# رحلة البشرية عبر الزمن

«من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية»

محمد كامل الفجا

مكتبة التوبة

ح محمد كامل الخوجا، ١٤١٨هـ
*فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر*
الخوجا، محمد كامل
رحلة البشرية عبر الزمن. ـ المدينة المنورة.
... ص، ... سم
ردمك ٩ ـ ١٠٨ ـ ٣٤ ـ ٩٩٦٠
١ ـ علم الإنسان ٢ ـ الأنبياء ٣ ـ الوعظ والإرشاد
أ ـ العنوان
ديوي ٩١٣,٠٣ ١٨/٠٤٨٨

رقم الإيداع: ١٨/٠٤٨٨
ردمك: ٩ ـ ١٠٨ ـ ٣٤ ـ ٩٩٦٠

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

مكتبة النوبة
المملكة العربية السعودية – شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠
الرياض ١١٤١٥

# رحلة البشرية عبر الزمن

«من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية»

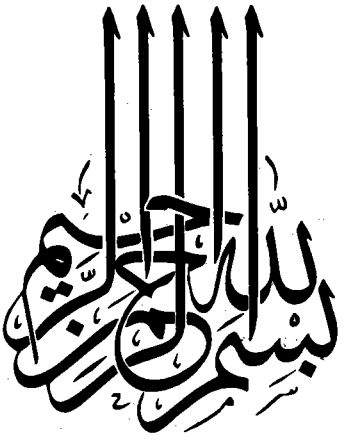
بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

صدق الله العظيم

[إبراهيم: ٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ . . . ﴾.

صدق الله العظيم

[الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]

# أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

صدق الله العظيم

[إبراهيم: ١٣ ـ ١٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

قال خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ: **«تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»**.

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد أصبحت مسؤوليتنا هي العمل على تصحيح مسار الإنسانية ورسم الطريق المستقبل لها بهدي من هذه العقيدة السمحة التي جاء بها الرسول ﷺ للناس كافة وأزال بها جميع الفوارق: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»..

وهكذا سمت الأخوة الإسلامية فوق كل اعتبار واتضحت أبعاد المسؤولية الملقاة على عاتقنا وأصبح الطريق واضحاً جلياً من خلال هذه العقيدة العظيمة ومن خلال العودة إليها والتمسك بها وتطبيقها نستطيع أن نحل مشكلاتنا ونرتفع بعد انكسار ونتوحد بعد فرقة وننتصر بعد تراجع وانحدار.

**فهد بن عبد العزيز**

بسم الله الرحمن الرحيم

كثيراً ما تلوك ألسنة المسلمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا الكلام صحيح ولكن ألم يأتهم نبأ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؟.. إن الله غفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، أما من يستمر في طغيانه ويصر على كفره فسيناله عقاب ربه.. إنني أرجو من المسلمين أن يرجعوا إلي كتاب الله وسنة رسوله.. وهذا هو ديننا.. وهو هو معتقدنا.. نقاتل من أراد أن ينال ديننا أو وطننا بأذى. يقول كثير من المسلمين: «يجب أن نتقدم في مضمار المدنية والحضارة، وإن تأخرنا ناشيء عن عدم سيرنا في هذا الطريق» وهذا ادعاء باطل، فالإسلام قد أمرنا بأخذ ما يفيدنا ويقوينا على شرط ألا يفسد علينا عقائدنا وشيمتنا، فإذا أردنا التقدم فيجب أن نتبع الإسلام وإلا كان الشر كل الشر في اتباع غيره.

**عبد العزيز آل سعود**

# مـقـدمـة

بقلم

أستاذ الجيل

الكاتب والشاعر المعروف

عضو مجمعي اللغة بالقاهرة ودمشق وبغداد

عبدالله بن خميس

# مقدّمة

أستاذ الجيل الكاتب والشاعر المعروف عضو مجمعي اللغة بالقاهرة ودمشق وبغداد/ عبدالله بن خميس.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

ذلك هو الخلق وتلك هي النشأة ومن بعدهما الموت. ومن ثم القيامة والبعث وما كان ربك عن خلقه بغافل. إلا أن ماهية الحياة وسرها أشغلت الفلاسفة والأدباء والشعراء فتتابعت تساؤلاتهم وحلقت تأملاتهم تبحث عن سر الحياة.. مبدؤها وتفاصيلها ومنتهاها، لقد اختلفوا في تحليلهم لأصل الحياة وأكد بعضهم جهلهم بها إلا أنهم يتفقون على أن الحياة تؤول في نهاية الأمر إلى فناء. ويذهب الفلاسفة إلى أبعد من ذلك بكثير ويؤكدون أن الموت هو أصل الديانات والفلسفات لأنه هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة على هذه الحياة الدنيا. ومن تلك النتيجة يدعون إلى اتخاذ سبيل وسلوك مثالي يحرص على حقوق ورفاهية البشر كما ورد في (جمهورية أفلاطون). وكذلك كانت أفكارهم وكان تخبطهم وضياعهم.

ثم جاء الإسلام بنوره الوضاء وحقيقته الساطعة ليضع أسساً واضحة وسليمة لرفاهية البشرية، وأصبحت كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هي مصدر الحقيقة، وصار لها دوراً فعالاً في بناء المجتمعات والرقي بها فكراً واقتصاداً وسياسة

واجتماعاً. . وقطعت جميع الشكوك مؤكدة أن الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله وخلافته على الأرض بإعمارها. وهكذا كانت لتبدأ رحلة البشرية عبر الزمن.

إن هذا الكتاب الذي بين يدينا يحتوي على توجه رائع ومفهوم جديد لكاتبه (يحفظه الله) يدل على نضج في التجربة وعمق في الإدراك. . إنه يدعو إلى ضرورة إعادة الإنسان إلى مثالية الإسلام وروحه لبناء المجتمع المتعافي وذلك بترسيخ قيم الإيمان الحق ثم بناء الروح والعقل البشري بناءاً سليماً، وإرساء أسس الحرية والعدل والمساواة ثم بناء دولة القوة والمال والنأي بها عن الخلافات والحروب الغير مجدية. . حقناً لدماء الإنسان.

إنه يتحدث عن سوء توزيع الثروة في العالم وأن عدالة توزيعها تقود إلى بناء دولة الرفاهية ومن ثم دولة العلم والإيمان (أساس بناء الدولة)، وضرورة ترسيخ قيمة شريعة التوحيد التي تؤكد على أنه لا كبير إلا الله. ويخلص إلى أن تحقيق كل ذلك إنما هو بيد المسلمين لأن فيهم كتاب الله وسنة رسوله الأعظم، إلا أنهم أهملوها وطفقوا يسايرون الغرب ويقلدونه. . ويتعرض إلى كثير من أقوال مفكري الشرق في ضرورة العودة إلى أصل حضارة الشرق (الإسلام) للمساهمة في الرقي بالحضارة الإنسانية. كما يتعرض لبعض أقوال مستشرقي الغرب في هذا الخصوص والذين يهاجمون الكنيسة في العصور الوسطى لتحريفها لتعاليم المسيح، ويؤكد على أن الشرائع الثلاث (اليهودية والمسيحية ثم الإسلام) إنما هي ذات أصل واحد ختمها الإسلام وأرسى كل أسس وقواعد بناء دولة العلم والإيمان.

ويتحدث الكاتب عن تاريخ بناء الكعبة المشرفة من الملائكة عليهم السلام حينما بنوها بأمر الله على نمط البيت المعمور في السماء السابعة ثم بناء آدم، فنوح، فإبراهيم عليهم السلاح. ثم بناؤها قبل البعثة بسنوات خمس إلى البناء الأخير وتوسعة الحرم على يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز يحفظه الله. وكذلك المسجد النبوي الشريف والمدينة المنورة وهجرة المصطفى (ﷺ) إليها وتطورها لتصبح عاصمة أول دولة للإسلام.

كما يتحدث عن المسجد الأقصى وتاريخ مدينة القدس وتشريفها بهبوط الوحي فيها على موسى وعيسى ثم رحلة الشتاء والصيف، ثم الإسراء والمعراج

وأنها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. ويتعرض بعد ذلك لتاريخ اليهود ونبي الله سليمان وبناء الهيكل وزمن سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم والمسمى (إسرائيل) وهجرته من فلسطين إلى مصر ثم عودة اليهود إلى فلسطين مع نبي الله موسى هرباً من فرعون ومعجزة فلق البحر.

بعد ذلك يتحدث الكاتب عن أسس إقامة المجتمع الإسلامي المترابط وضرورة ذلك حتى تحل الحضارة الإسلامية محل حضارات العالم شرقه وغربه لتلعب الدور منوط بها في النهوض بالبشرية ويؤكد على أهليتها لذلك.

ويتعرض الكاتب لتعريف الموت لغة ثم المغزى منه ويذكر نماذج من آي الذكر الحكيم تتحدث عن الموت، حتميته، عموميته، اختصاص الله بمعرفة زمانه ومكانه لكل إنسان، ثم ماهيته وربط ذلك باليوم الآخر والإيمان به وتسمية بعض العلماء للموت بالنقلة كأن يقولون: انتقل إلى جوار ربه.

وهنا يتوسع في مفهوم الإيمان باليوم الآخر والانتقال إلى حياة النعيم الدائم وضرورة التضحية بالحياة الدنيا واستثمارها فيما يعود بالنفع للبشرية وفيما يؤسس ليوم آخر أكثر سعادة، وفي ذات السياق يذكر أن ضرورة اليوم الآخر تكمن في أنه لا بد من عقاب الظالمين في هذه الحياة الدنيا وثواب الصابرين، وفي أنه تعويض عن ابتلاءات الدنيا من مرض وفقر وبؤس وسوء معيشة وظلم العباد، وعقاب لمن بغوا على إخوانهم من بني البشر، وهذا يندرج في سياق التبرير العقلاني للموت واليوم الآخر. وفي هذا رد على أباطيل منكري البعث واليوم الآخر.

ويوجز الكاتب بأن الحياة بالنسبة للمسلم ما هي إلا تطلع دائم إلى السماء ورجاء مستمر من الله بالمثوبة والمغفرة والاستعانة به على كل أموره في الحياة الدنيا.

ويقسم الحياة كلها إلى أربع مراحل:

١ ـ موت في عالم الذر.

٢ ـ الحياة في الدنيا.

٣ ـ الموت في حياة البرزخ.

٤ ـ الحياة الأبدية في الآخرة، فإما نعيم مقيم أو عذاب أليم.

ويتأنى قليلاً في الحديث عن حياة البرزخ (القبر) ليستدل بالآية الكريمة

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ ذلك أن الإنسان إنما هو زائر فيي القبر إلا أنه تعرض عليه حياته في الآخرة صباحاً ومساءاً وهو في قبره، فينعم من رضي الله عنه ويعذب من سخط الله عليه، وكل حسب أعماله.

ثم تبدأ حياة الآخرة عند البعث ويرى المؤمن ملائكة الرحمة ومقعده من الجنة كما يرى الكافر ـ والعياذ بالله ـ ملائكة العذاب ومقعده من النار، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

ويتحدث الكاتب بعد ذلك عن رحلة الحياة والبشرية عبر الديانات القديمة في العالم من الحياة الدنيا إلى الآخرة ويؤكد بأن الشعب المصري هو أكثر شعوب العالم القديم إيماناً بالبعث. ويتضح ذلك من أنماط حياة المصريين القدماء وتعظيمهم للموت كبناء الأهرامات والتماثيل وذلك نابع من اعتقادهم بالحياة الأخرى، لذلك فهم يهيئون لها المرء استعداداً لعودة الروح إلى الجسد عند البعث فيحنطون موتاهم ويضعون في أضرحتهم شتى صنوف متطلبات الحياة من مأكل وملبس وحلي، ولكنهم ما كانوا ليهتدون ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾.

بعد ذلك يتحدث الكاتب عن الديانة الفارسية والأساطير الأغريقية والبابليين والديانات الهندية وديانات العرب الجاهليين، ومن ثم عن الديانة اليهودية والديانة المسيحية، وربط جميع ذلك وانتهائه بالرسالة السماوية الخالدة، رسالة الإسلام.

ويتحدث عن الرحلة الخالدة في العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم وعن البعث والنشور والحشر والحساب والجزاء وصحائف الأعمال والصراط ورد المظالم إلى أهلها والجنة ودرجاتها ومساكن أهل الجنة وأنهارها وعيونها ونعيمها وصفتها وأبوابها وطعام أهل الجنة وشرابهم وأشجار الجنة وثمارها ولباس أهل الجنة وحليتهم كما يتحدث عن النار وأن وقودها الناس والحجارة وأنها أعدت للكافرين وأن عليها ملائكة غلاظ شداد، والدرك الأسفل.

كما يتحدث عن الرحلة الخالدة في الحديث النبوي الشريف ويورد النفخ في الصور واقتراب موعد الساعة وصفة الحشر ومحاسبة العباد وسؤالهم وأنواع الحساب، والميزان والصراط والشفاعة والجنة والنار وعذاب جهنم وأهل النار وكثرتهم.

ثم بعد ذلك يتحدث عن الرحلة الخالدة في الآداب العالية فيورد أثر رحلة الإسراء والمعراج في تلك الآداب، ويتكلم عن أبي العلاء المعري ورسالة الغفران وعن دانتي وكيف صور الجحيم في الكوميديا الإلهية التي يؤكد الكاتب أنه استعارها من رسالة الغفران.

وختاماً.. فإن الكاتب يؤكد على أنه لا يحث على البحث في مصير وإنما يدعو إلى التدارس حول مستقبل الذات الإنسانية في القرن الواحد والعشرين.

وبذلك فإن هذا السفر القيم يعتبر إضافة جادة لنشر الإسلام في العالم لتخليصه من الانحطاط والدمار.. وهو جدير بالقراءة والتحليل والتدارس لإنقاذ النفس البشرية مما حل بها من المصائب، وهو يصدر معبراً عن مفكر ملهم وشاعر مبدع عرف مبكراً بإلهاماته العميقة وأفكاره البناءة وإخلاصه الدؤوب للأمة الإسلامية وجرأة في الحق ودعوة إلى وضوح الإخلاص وصدق في العقيدة البينة، وهذا الكتاب شاهد يؤكد اقتراب الأستاذ السيد محمد كامل الخجا حفظه الله بكليته من الله سبحانه وتمسكه الإيماني به عز وجل وينم عن ثقافة واسعة وعلم غزير وهو كتاب موثق الجهد فيه مبذول والبحث مقتضب شامل ومرجع جامع كامل مبشر ومنذر وكل ما فيه نور!!!...

نسأل الله مثوبة أجر وافر وعطاء جزيل للمؤلف وأن ينجينا من النار.. وأن نكون من عباده الصالحين المصلحين إن شاء الله والله الهادي إلى سواء السبيل.

**عبدالله بن محمد بن خميس**
**١٤١٨/٦/١٧هـ**
**الموافق ١٩٩٧/١٠/١٨م**

# تصدير

شغلت رحلة البشرية عبر الزمن من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية أذهان كل الناس من مفكرين وعلماء وأدباء وشعراء، ومن عامة الناس وخاصتهم. ورسمت الديانات السماوية والكتب الإلهية صورة هذه الرحلة رسماً صادقاً قوياً عميقاً؛ كما حاولت المذاهب الوضعية رسم صورة لها يجانبها الصواب، ويحيط بها الخطأ من كل جانب حيناً آخر. وكذلك حاول الفلاسفة تفسير الموت وما بعد الموت، وآية ظاهرة في الحياة أشمل وأقوى من تلك الظاهرة التي تتناول كل كائن حي في عالم الإنسان والحيوان والنبات.

فنجد أن الفلاسفة والمفكرين جميعاً في القديم والحديث، قد شغل أمر هذه الرحلة وأمر الموت تفكيرهم واحتل جانباً كبيراً من هذا التفكير بل وكان محوراً قامت عليه فلسفة عدد غير قليل منهم.

يقول ول ديورانت: «إن الموت هو أصل الديانات كلها ويجوز أن لو لم يكن هناك موت لما كان للإله عندنا وجود»[1].

ومن الطبيعي أنه إذا كان الموت أصل «الديانات» فإنه يكون أصل الفلسفات لأن الديانات ليست إلا الصورة الكاملة لوحي الله لا لارتقاء التفكير الإنساني في أعلى قممه، في كل عصر وعند كل أمة.

---

(١) قصة الحضارة تأليف wel dewrant ول ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثالث ص ٦٨ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

فظاهرة الموت أشمل وأقوى ظاهرة عرفها الأحياء لأنها دائرة مع الحياة منذ بدئها إلى اليوم، وإلى ما بعد الموت فحيث كانت حياة كان الموت راصداً لها، واقفاً إزاءها فما ولدت الحياة وليداً إلا نسبته إلى الموت ووثقت أواصره به. إن الموت قد كان له في كل كائن حي حساب وتقدير حتى أن كثيراً من أنواع النبات حين يدهمها خطر تجد في الخلاص منه والهرب من بين يديه.

وهذا هو الإدراك النوعي للموجودات ـ ولكن لكل ماهية صورة ثابتة خالدة أبدية هي من خلق الله. فمثلاً لجميع أفراد الأسرة ماهية هي الإدراك النوعي، ولكن درجة كمالها تتمثل في سرير مثالي موجود في ذاته، وكل نجار يحاول أن يقرب من درجة الكمال في صنعته للسرير يتأمله في ذلك السرير المثالي.

والمرتبة الأخيرة، وهي معرفة الصور ذات الوجود الثابت (المثل) لها صلة بالجمال والحب عند أفلاطون فيذكر أفلاطون على لسان سقراط كيف ترقى الروح إلى إدراك تلك الصور العقلية ـ وهي أكمل مما في عالمنا من أشياء ندركها بالتجربة ـ عن طريق الروح لما كانت تعلمه في عالم الجمال الخالد قبل هبوطها إلى الجسم[1].

ومن هنا يرى أفلاطون أنه يجب على كل منا، فوق كل سبب أن يدرس باجتهاد دون كل شيء آخر، علماً يمكنه من التحصيل والاكتشاف، فيهذبه ويمكنه من التمييز بين الحياة الصالحة والردية فيختار بما له من الوسائل الحياة الفضلى في كل مكان وزمان، متقصياً بوافر التدقيق، التأثير الذي للأشياء التي ذكرناها، جمال الحياة الحقيقي في الأفراد وفي الجماعات. ويفهمه ما يخلفه لجمال المتميزة بالثروة أو بالفاقة، من خير أو من شر. ويفهمه أيضاً كيف تتأثر النتيجة بحالة النفس التي تدخل في ذلك المزيل، وما هي نتيجة مزج عناصر كهذه، شرف الممتد أو وضاعته، الحياة

---

(١) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال ص ٣٠ و ٣١، دار النهضة، مصر للطبع والنشر.

الخاصة أو الجمهورية، قوة الجسم أو ضعفه، سرعة الفهم أو بطئه، وكل ما هو من هذا النوع سواء أكان مختصاً بالنفس طبعاً أم أنها طلبته عوضاً - ليتمكن بكل هذه المواد من تأليف الحكم وطرقاً غير قليلة عن ملاحظة طبيعة النفس ليختار بين الحياة الصالحة والردية فيدعو الحياة التي تقوده إلى التوغل في التعدي رديه، والتي تؤول إلى زيادة العدالة الصالحة، معرضاً عن كل اعتبار آخر. لأننا رأينا أن هذا الاختيار هو الأصلح في الحياة وفي الموت. ويجب التشبث بهذا الرأي بإرادة قوية حين دخول العالم الآتي، لئلا تبهره الثروة أو ما ماثلها من الشرور في هذا العالم أو في العالم الآتي ولا يعود علي الاغتصاب، أو يعمل عملاً من هذا النوع، ينتهي به إلى دماره أو دمار الآخرين دماراً كلياً، فيزيد كربه، بل يحسن اختيار الحياة التي تلزم منهجاً متوسطاً بين هذه الأطراف متحاشياً بكل قوته الميل إلى أحد الجانبين، ليس في هذه الحياة فقط بل أيضاً في الحياة الآتية، لأنه بهذا التصرف يمكنه أن يؤكد صيرورته أسعد إنسان[1].

فقد طالب أفلاطون وغيره من الفلاسفة بحياة مثالية مطالبهم هذا ليس إلا تمثل للعالم الآخر.

وإذا كان العالم الآخر شغل فكر الفلاسفة والمفكرين فقد شغلت فكرة الموت الشعراء فقد أبدى الشعراء عامة سواء في العصر الجاهلي أو عصر صدر الإسلام أو العصر الأموي أو العصر العباسي الأول والثاني وكذلك في العصر الحديث أسفهم من الموت فقد عبر كل واحد منهم بطريقته الخاصة وأسلوبه المتميز على حسب الحالة النفسية لكل واحد منهم.

وكما لاحظنا فقد تأثر بعض الشعراء ببعض كما فعل أبو العلاء شاعر الحياة والموت مع المتنبي فلم يبلغ تأثر أحد من الشعراء بتأملات المتنبي مثل ما بلغ أبو العلاء المعري الذي أقبل على شعره إقبالاً ما عرف من شاعر آخر معجباً به وبفنه وإذا بتأملات المتنبي تفتح أبواب الفلسفة والتفكير

---

(١) جمهورية أفلاطون نقلها إلى العربية حنا خبار ص ٢٨٧ و ٢٨٨ دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة ١٩٩٥م.

لأبي العلاء وغيره كثير[1].

وعندما جاء الإسلام هز العقلية العربية وترك الفكر ليعمق به التأمل وإن كان المسلمون قد انشغلوا عن الشعر بالخطب الحماسية، لحاجة الخلفاء إليها في بادىء الأمر لكي يستتب السلام، وينتشر الإسلام فلم يتعد أغراض الشعر الجاهلي وموضوعاته لاقتراب العصرين بعضهما من بعض، ولما امتد سلطان الإسلام وآل الحكم إلى بني أمية انتقلت معهم الخاصة من الحجاز إلى دمشق، فألفت أفئدتهم ورقت طباعهم من هذه التأملات فكان شعرهم قريباً من الطبع كما كان في الجاهلية وصدر الإسلام.

يتأمل «زياد بن زيد» ويتفكر في الدهر والأيام وصروفها فيراها تتراوح بين أمرين أحدهما مر فقد الحبيب وفقد المال فيقول:

هل الدهر والأيام إلا كما نرى رزية مال أو فراق حبيب[2]

كما يتأمل «الفرزدق» الدهر وحلاوة أيامه ومرارتها فيجد أن حلاوتها ممتدة ومستمرة بامتداد الشباب واستمراره ومرارتها ممتدة بامتداد المشيب الذي يقهر الشباب ويضيع أجمل وأحلى أيام العمر فيقول:

أرى الدهر أيام المشيب أمره علينا وأيام الشباب أضابيه
إذا نازل الشيب الشباب فاصلاً بسيفهما فالشيب لا بد غالبه[3]

ويتأمل «مروان بن أبي حفصة»[4] المشيب المقيت الذي حل محل الشباب المحبب إلى النفس فنراه يصوره في صورة الضيف المنشود المتطفل

---

(١) مع أبي العلاء في سجنه طه حسين ص ٢١ طبعة دار المعارف الطبعة الثالثة عشر سنة ١٩٨١م.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين، القسم الثالث، ص ٧٠، طبعة دار الكتب المصرية الطبعة سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م.

(٣) ديوان الفرزدق ج ١، ص ٤٨، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

(٤) مروان بن أبي حفصة: هو مروان بن سليمان بن الحسن بن أبي حفصة وكان أصله من العجم فقد كان جد أبيه أبو حفصة يهودياً خراسانياً مولى لمروان بن عبد الحكم الأموي، ولما ولى مروان المدينة ولاه على خراج اليمامة منه وتزوج من امرأة من=

الذي لا يبغى الرحيل ثم نراه يصور انتشاره وطغيانه وتغلبه بلونه الأبيض الواضح بالصباح المذهب لظلام الليل فيقول:

أمسى المشيب من الشباب بديلاً ضيفاً أقام فما يريد رحيلا
والشيب إذ طرد السواد بياضه كالصبح أحدث للظلام أفولا[1]

ويتأمل القطامي ويمعن النظر في سلوك أهل عصره فيراهم لا يظلمون ولا يجورون إلا على الضعيف بينما يخافون القوي الظالم ويجتنبونه ويوصله هذا إلا أن الناس لا ينقلبون إلا على من يظلمهم فيقول:

أراهم يغمزون من استرقوا ويجانبون من صدق المصاعا
كذاك وما رأيت الناس إلا إلى ما جز جانيهم سراعاً[2]

وخير ما يمثل ذلك قول عبد الرحمن شكري يتأمل المجهول ويخاطبه فيقول:

يحوطني منك بحر لست أعرفه ومهمة لست أدري ما أقاصيه
أقضي حياتي بنفس لست أعرفها وحولي الكون لم ندرك مجاليه
ياليت لي نظرة للغيب تسعدني لعل فيه ضياء الحق يبديه
أخال أني غريب وهو لي سكن خاب الغريب الذي يرجو مقاصيه
أوليت لي خطوة تدحو مجاهله وتكشف الستر عن خافي مساعيه
كأن روحي عود أنت تحكمه فابسط يديك واطلق من أغانيه

---

= جزائر العرب ولد مروان سنة ثلاث ومائة هجرية في اليمامة وكان أبوه شاعراً أيضاً وكان من شعراء الصنعة كما ذكر ابن جني وقتل سنة اثنين وثمانين ومائة للهجرة انظر الخصائص لابن جني تحقيق محمد علي النجار ص ٣٣ دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م وكذا تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ص ٢١ الطبعة الخامسة ١٩٨٣م دار المعارف.

(١) ديوان مروان بن أبي حفصة جمعه وحققه حسين عطوان ص ٧٧ دار المعارف بمصر.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين النويري، القسم الثالث ص ٧٠ طبعة دار الكتب المصرية ط، ١٣٤٨هـ، ١٩٣٠م.

والروح كالكون لا تبدو أسافله ... عند اللبيب ولا تبدو أعاليه
وأكبر الظن أني هالك أبداً ... شوقاً إليك وقلبي فيه ما فيه
من حسرة وإباء لست أملكه ... يأبى لي العيش لم ندرك معانيه
وأنت في الكون قاص ومقترب ... قد استوت فيك قاصيه ودانيه
يا قلب يهنيك نبض كله حرق ... إلى الغرائب مما عز ساميه
فلعيش حب لما استعصت مسالكه ... تجارب المرء تدنيه وتعليه
كم ليلة بتها ولهان ذا أمل ... لم يسل قلبي إن غابت أمانيه
لعل خاطر فكر طارقي عرضاً ... يدنو بما أنا طول العمر أبغيه
يوضح الغامض المستور عن فطن ... وأفهم العيش تستهوى بواديه
هيهات ما كشفت لي الحق خاطرة ... ولم يجب لي سؤالاً ما أناديه[1]

فالشاعر حائر في بحر غامض مصطخب الأمواج لا يدري أقاصيه يعيش بنفس لا يعرفها ولا تعرفه، عاجز عن كشف الستار عن المجهول الذي يتوق إلى معرفته واستكناه خفاياه وأسراره، وهو يرسم الحالة النفسية المضنية في صور رمزية عابسة تبعث القلق والحيرة في النفوس ثم يعود في نهاية المضاف بعد رحلة طويلة حاول فيها أن يكشف السر، يعود بلا معرفة ولا علم ولا جواب:

هيهات ما كشفت لي الحق خاطرة ... ولم يجب لي سؤالاً ما أناديه

ولم يقتصر هذا الشعر التأملي الفلسفي على شكري وحده فالعقاد هو الآخر صدر عن هذه الحالة وصور مثل هذه الأحاسيس في كثير من القصائد منها قصيدته «ترجمة شيطان» تمثل هذه النزعة التأملية يقول فيها:

صاغه الرحمن ذو الفضل العميم ... غسق الظلماء في قاع صقر
ورمى الأرض رمي الرجيم ... عبرة فاسمع أعاجيب العبر
خلقه شاء لها قبل الوجود ... وتعالى من عليم قادر

(١) ديوان عبد الرحمن شكري الجزء الخامس ص ٣١.

قال كوني محنة للأبرياء فأطاعت، يا لها من فاجرة
ولو استطاعت خلافاً للقضاء لاستحقت منه لعن الآخرة[1]

فهي قصيدة طويلة تمثل ثورته العاتية التي تمردت على كل شيء حتى على الخالق وراحت تجدف على لسان الشيطان.

وشعر جماعة الديوان لم يقتصر على هذا اللون الذاتي الرومانسي الحزين المتشائم إنما ظهرت فيه مجموعة من الاتجاهات ففيه الاتجاه الرمزي والتأملي والفلسفي والعناية بالفكرة والبحث عن الحقيقة.

فنجد العقاد يتأمل الحياة وما فيها من قمم وسفوح، ويرى أن المعرفة كالحياة لها سفح وقمة، ويرى أن قمة المعرفة باردة لا تشعر فيها بحياة فيقول من قصيدته «القمة الباردة»:

إذا ما ارتقيت رفيع الذرى فإياك والقمة الباردة
هنالك لا الشمس دوارة ولا الأرض ناقصة زائدة
ولا الحادثات وأطوارها مجددة الخلق أو بائدة

وقد حرصت أن أثبت بعض أبيات هذه القصيدة لأنها تكاد تكون أبلغ وثيقة نفسية تدل على مدى إحساس هذا الجيل بالحياة والأحياء والكائنات مهما أحدقت بهم النوائب وأضناهم المجد، وهاجمتهم كوارث الحياة.

فهنا تحس اللوعة الصادقة والحزن العميق لفقد الكلب، وتشعر بهذه الصحبة الأليفة التي ربطت بين الكلب والشاعر، وتحنو على هذا الحزن الجليل المتواضع، ونبكي مع العقاد في الصباح وقبيل الفجر، وتندب هذا البيت الموحش الخاوي.

وهناك أيضاً تجد في شعر هؤلاء الشعراء الطابع الوصفي فهم يصفون الطبيعة بصورة جديدة غير التي كان ينبعها شعراء التقليد في أوصافهم لأنهم

---

(١) ديوان عباس محمود العقاد ج ٣ ص ٣٣٨، ٣٣٩، المقتطف المقطم بمصر ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م.

يخلعون على الطبيعة أحزان نفوسهم، ويمزجونها بأفكارهم وتوليداتهم العقلية.

أما إذا نظرنا إلى شعر «أحمد زكي أبو شادي»[1] وبخاصة الناحية التأملية وهذه ناحية هامة في شعر أبي شادي ففيها يظهر تجديده ونلمح في وضوح كثيراً من المعاني المبتكرة والألفاظ الجديدة التي اكتسبها من دراسته العلمية وإذا كان شعراء التجديد في مطلع هذا القرن من أمثال شكري والعقاد والمازني وشعراء المهجر قد بدأوا هذا النوع من الشعر فإن أبا شادي قد واصل المسير في هذا الطريق وأضاف إلى قاموس الشعر الحديث كثيراً من المعاني والألفاظ، وشعر التأمل عند أبي شادي يتمثل في الشعر الصوفي والفلسفي والشعر الذي يتشكك في القيم الثابتة المستقرة ويحاول الانفلات منها، ولأبي شادي شعر كثير من هذا القبيل يتأمل فيه الوجود والعدم ويتساءل على الخلق والدنيا منشؤها؟ وما الفكر؟ وما الجوهر الباقي؟ وما هو العدم؟ ويثور على عقله الضائع بين الظنون والأوهام ثم يمتزج بالوجود ويحس أنه قطعة منه، وأنه لمحة من الشعاع ومن الهواء ومن موج الأثير والشموس والذرات، وأن روحه قبس من الكواكب وقصيدته «أقصى الظنون» تعطينا صورة صادقة لهذه التأملات يقول:

أقصى الظنون وجودي أصله العدم ... ومن عجيب وجودي ليس ينعدم
في ذمة الصامت الماضي البعيد وما ... تخفى العصور هدى هبيهات يغتنم
مرت ملايينها لمحاً كثانية ... وخلقت حيرة كبرى لمن فهموا
ما الخلق ما هذه الدنيا ومنشؤها؟ ... ما الفكر؟ ما الجوهر الباقي؟ وما العدم
مسائل هي للأحقاب باقية ... كما سيبقى الردى والشك والألم

---

(١) أحمد زكي أبو شادي ولد في القاهرة سنة ١٨٩٢ ودرس في القاهرة ولندن شغل مناصب عدة وزاول الصحافة له عدة دواوين شعرية ومؤلفات قصصية ومسرحية ومؤلفات تاريخية وعلمية واجتماعية، توفى سنة ١٩٥٥م انظر الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب الحديث، حنا الفاخوري ص ٦٣٢، ٦٣٣، دار الجيل بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

أجل فرض لها وهم وايسر ... وهم وقد يستوى الدهاء والعلم
قنعت من نشأة الدنيا بصورا ... في الذهن كالحلم لولا أنها حلم
وثرت آناً على عقلي وضيعته ... بين الظنون التي قد عافها القلم
وما أبحث سوى تخليد ما نطقت ... به المشاعر عن وحي له كلم
أحسن أني قرين للوجود وهل ... يغنى الوجود قريناً ليس ينفصم
وما أبحث سوى تخليد ما نطقت ... به المشاعر عن وحي له كلم
من الشعاع ومن هذا الهواء ومن ... موج الأثير جرى فيها هوى ودم
كلي شموس من الذرات تربطها ... بالعالم الأكبر الأسباب والنظم
ففي حياتي شعاع من جلالتها ... وفي الممات مصير سره عظم
الله أعلم هل روحي سوى قبس ... من الكواكب لا تودي به الظلم؟
عوامل الكون تزجيها وتجذبها ... وأصلها بينما ينحل يلتئم
تمتد في مثل تواقه لعلى ... ويعشق النور ما تهدي ويقتسم
يكاد يقسم وجداني بأن له ... في الكون ملكاً رحيماً كله لحدم
جمّ المناجاة لا يعصيه مستمع ... لصوت نجواه حتى الصخر والأجمم
فليس ترشده إلا مداركه ... وليس تلهيه أضغاث الألى زعموا
وليس يزعجه موت وليس له ... غير الحنيص لأشياء له عملوا[1]

وإذا كانت هذه التأملات الفلسفية والتمرد على الفناء والعدم استقاها أبو شادي من قراءاته الكثيرة إلا أنه قد صاغها صياغة شعرية جميلة رحبة ليس فيها الجفاف العقلي وإنما فيها الانفعال الحار الذي يجعلنا ننفعل بها بصرف النظر عما تحوي من معان وأفكار قد نخالفه فيها.

ونجد الشاعر إبراهيم ناجي يجلس يوماً يستعرض الحياة في شارع «ويخرج من هذا الاستعراض بقصيدة تأملية سماها «الحياة» يقول فيها:

---

(١) ديوان الشفق الباكي أحمد زكي أبو شادي ص ٣٠٠ و ٣٠١ و ٣٠٢، المطبعة السلفية مصر ١٩٢٦م.

جلست يوماً حين حل المساء ... وقد مضى يومي بلا مؤنس
أريح أقداماً وهت من عياء ... وأرقب العالم من مجلس
أرقبه ياكد هذا الرقيب ... في طيب الكون وفي باطله
وما يبالي ذا الخصم العجيب ... بناظر يرقب في ساحله
سيان ما أجهل أو أعلم ... من غامض الليل والغز النهار
سيستمر المسرح الأعظم ... رواية طالت وأين الستار؟
عييت بالدنيا وأسرارها ... وما احتيالي في صموت الرمال
أنشد في رائع أنوارها ... رشداً فما أغنم إلا الضلال
فصاح بي صائحها هاتفاً ... كأنما يوقظني من منام
أنت امرؤ ترزح تحت الضنى ... لم يبق منك الدهر إلا غاد
وكل ما تلمحه من سنا ... يهزأ بالجذوة خلف الرماد[1]

فيتحول شكهم إلى يقين، كما أننا نراهم مؤمنين متصوفين، يخاطبون الروح التي تمدهم بالمعرفة.

وهكذا كان لنا شعر ينضج بالأفكار الفلسفية، ويعتمد على الآراء العلمية الحديثة، التي تدفع الإنسان بنفسه إلى التجارب والاختبارات لمعرفة كنه الأشياء، فإذا مشى في الطريق رأى كائنات تولد، وأخرى تموت، هذا يأخذ وذاك يعطى، والكون - كما يقول الأستاذ توفيق الحكيم - كله إناء واحد، صنعته يد واحدة، من عناصر متآلفة، وهذا التآلف أو التضامن إنما هو وليد ذلك القانون: الأخذ والعطاء[2] ولعل هذا القانون هو غاية الحياة.

غير أن غاية الحياة سر غامض، وقد زعم بعض الناس أن الغاية هي الخلود إنما هل رأى الإنسان منذ كان إلا الفناء واللحود، وفي هذا المعنى يقول العقاد:

---

(١) جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث عبد العزيز الدسوقي ص ٤٣٩، ٤٤٠ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(٢) تحت شمس الفكر توفيق الحكيم ص ٥٣، ٥٤ مطبعة دار سعد مصر ١٩٤٥م.

زعموها إلى الخلود تؤدي ما رأينا سوى فناء ولحد
فيه مود على تحاليد مودى[1]

والحياة في نظر جميل الزهاوي نزاع وجهاد دائمان، وهي سعادة وشقاء، يسيطر فيها القوي على الضعيف فيقول:

ليس الحياة سوى نزاع دائم يا للضعيف به من الجبار[2]
علم الذي درس الحياة كفاحص أن الحياة تنازع وجهاد
إن الحياة سعادة وشقاء يتعاقبان وضحكة وبكاء[3]

ويتساءل معروف الرصافي عن الوجود وغايته فيقول:

من أين، من أين ابتدائي ثم إلى أين يا انتهائي
أمن فناء إلى وجود ومن وجود إلى فناء؟
أم من وجود له اختفاء إلى وجود بلا اختفاء؟
خرجت من ظلمة لأخرى فما أمامي وما ورائي؟[4]

حتى إذا حاول معروف الرصافي أن يطالع سفر العالم العلوي لعله يحظى بشيء يهدىء ثورة نفسه المتطلعة إلى المعرفة رجع خاسراً لا يعرف شيئاً عن معانيه:

كأن العالم العلوي سفر تطالعه ولسنا مفصحينا
نحاول منه إعراب المعاني بتأول فنرجع معجمينا
فيا أم النجوم وأنت أم أيولد فيك كالأرض البنونا
وهل فيك الحياة لها وجود فيمكن للردى بك أن يكونا
وهل بك مثل هذي الأرض أرض وفيها مثلنا متخالفونا

---

(١) ديوان عباس محمود العقاد ج ٢ ص ١٨٦ مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ١٣٤٦م.
(٢) ديوان الأوشال جميل الزهاوي ص ٢٠ مطبعة بغداد ١٩٣٤م.
(٣) ديوان رباعيات جميل الزهاوي ص ١٨٠، ١٨١، بيروت مطبعة القاموس ١٩٢٤م.
(٤) ديوان معروف الرصافي ٢ ص ٢٣ بيروت مطبعة دار المعرض ١٩٣١م.

وهل هم مثلنا خلفاً وخلقاً هناك فيأكلون ويشربونا[1]

ومن يستطيع أن يعرف سر الوجود، وسر الفناء؟ ومن يستطيع أن يعرف غايتهما؟ أما الأسرار فتلفنا من كل صوب، وعبثاً يحاول الشاعر المتأمل أن يشفي ظمأه مهما أسرف في تساؤله وإلحاحه المتواصل يقول صلاح لبكي:

الحياة، أزهو

ورقة واقترار؟

أم خفقة وانتقاض

ووثبة وانتشار؟

**«المؤلف»**[2]

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٥.

(٢) شرعت في كتابة هذا التصدير في الروضة الشريفة في الحرم النبوي الطاهر وكذلك ختمت نهاية الكتاب في هذا الموقع المقدس.

# البـــاب الأول

# الفصل الأول
# التوحيد شريعة الله

ذكر ابن الفقيه في كتابه «مختصر كتاب البلدان» في الصفحة ١٤١ - ١٤٣ أن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق بعث ثغراً من صحابة رسول الله إلى قيصر الروم في القسطنطينية بكتاب معه يدعوه فيه إلى الإسلام، وكان من هذا الوفد الكريم: عبادة بن الصامت، وهشام بن العاص، ونعيم بن عبد الله، وسار الوفد حتى وصلوا عاصمة قيصر، وسألوا عن قصر القيصر فأرشدوا إليه، فأناخوا إبلهم حول القصر، تحت غرفة قيصر ملك الروم، وقالوا بصوت واحد: لا إله إلا الله والله أكبر، فإذا غرفة قيصر قد اهتزت كاهتزاز سعف النخل قد ضربه الريح.

ثم دخل الوفد على قيصر، فبادر القيصر الوفد بالسؤال: ما أعظم كلامكم؟ فقال الوفد: لا إله إلا الله والله أكبر، فانتفض سقف غرفة القيصر حتى ظن هو وأصحابه أنه سيسقط عليهم.

هذه هي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله والله أكبر.. فلننظر ماذا صنعت هذه الكلمة أمس، ولننظر لو قلناها اليوم مخلصين، ماذا تصنع اليوم وغداً.

إن أيدلوجية.. «مكة المكرمة» و «المدينة المنورة» و «بيت المقدس».. تحتم على المفكر فيها الانصراف إلى تكوين وقت معين للتدارس حول واقع العالم اليوم والاستقاء منه لمستقبله غداً وتغذية الإنسان بلقاحات فكرية روحية دعماً لدولة الإيمان المنشودة كما تحددها تعاليم

السماء وإزاء ما تحمله تيارات العصر في القرنين الحالي والقادم من تبعات يغلفها الحذر والقلق والضياع.

ولنكن على بينة جلية من أن كلاً من الحضارات التي بادت والتي تعايشنا اليوم كانت تتصل في معظمها بجانب من الإنسان فحسب.. بينما هي في الحضارة من تعاليم السماء تتوجه إلى كل الأركان في الإنسان وتتنضد في الروح والفكر والغريزة فوق بعض. فهي تنضم انضماماًعميقاً يولد الحياة والفعالية في مثالية فذة!..

فعلى الإنسان أخذ العبرة من حاضر تائه فيعمل لغاية واحدة فيها التحرر من كل أدران العبودية للمخلوق.. فكراً كانت أو اقتصاداً.. سياسة أو واقعاً حياتياً.. ففيها وحدها قوة بسرعة تقف في وجه كل قوى الشر المتمردة له وحينئذ تتحقق سمات الخير.. وكما حمل الإنسان النور ذات يوم من الأماكن المقدسة الثلاث إلى مشارق الدنيا ومغاربها.. فما زالت رسالة السماء على موعد مع المؤمنين العالمين العاملين.. قدراً لا يرد.. ونوراً لا تجابهه دماسة ظلمة.. ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز!!

أنارت السنة الإلهية الغاية من خلقه وهي عبادة الله وحده، تلك الغاية المجسدة للحقيقة الكونية التي ليس سواها سوى وهم عابر وزيف زائل!!

حرر الله الإنسان ورفعه فوق مبتغيات النفس وهواها إلى أفق الحقيقة الكونية الشاملة.. وبالمنهج المبين الواضح دون أي لبس أو إبهام حمله تبعة الأمانة ومسؤوليتها وحثه على أن لا يلج درب الانحراف وأن لا يسلك مسيرة تتباين مع الصراط المستقيم!!..

وإن الإنسان في حياته الابتدائية لا يكون خيراً ولا شريراً ولا يملك نقيصة ولا فضيلة.. إنه يولد طيباً ـ على فطرة ـ ولكن المجتمع هو الذي يفسده.. وليست الحضارة كما تريدها تعاليم السماء وكما أفهمها في أن نؤمن بحق المخلوق الأقوى.. ولا في حق السيطرة.. ولا في قبول الظلم!..

ورسل الله عز وجل.. تواكبوا على الإنسان منذ أن كان في قرونه

السحيقة وعلى مدار التاريخ.. يرسمون الجادة عند كل انحراف.. إلى أن هيأ خاتمة العقد من الرسل عليهم السلام المواكبين على الإنسان.. محمد ﷺ.. وتولى الله حفظ رسالته وتماسكها وصان منهاجه ذلك المنهاج الكامل الشامل للفرد والأسرة والجماعة والدولة.. للبشرية كلها وللأرض كل الأرض!..

وكل شيء يخرج حسناً من يدي مبدع الأشياء. ولكنه يتشوه بين يدي الإنسان. وليس هناك ثمة سلطانان مدني وديني.. فالدين هو السلطان الرابط بين الناس أراده الله لسعادة الإنسان في كل ذرة من العلائق. في الحياتين الدنيا والأخرى!.

وأيدلوجية «مكة المكرمة» وفيها أول بيت وضع للناس.. بيت الله العتيق.. بناه أبو الأنبياء والمرسلين.. إبراهيم بن آزر وابنه إسماعيل عليهما السلام بأمر من الله.. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾...: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

وأيدلوجية «المدينة المنورة» أحب البقاع إلى الله (اختارها لخاتم الأنبياء والمرسلين) «محمد بن عبد الله عليه السلام». سكنا له ومستودعاً لتعاليم السماء. «اللهم لقد أخرجتني من أحب البقاع إلي. فأنزلني في أحب البقاع إليك!».

«إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها».

وأيدلوجية «بيت المقدس» ملتقى الرسل والأنبياء عليهم السلام ودار «موسى بن عمران» عليه السلام، ومهد «عيسى بن مريم» عليهما السلام ومسرى سيدي «محمد بن عبد الله عليه السلام..

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾
﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

تلك الأيدلوجيات للمدن الثلاث المقدسة تنزلت فيها رسالة السماء. لتضعها في بوتقة التصور والإبداع للالتزام بتبعة المسؤولية على الصعيد الإنساني العالمي على صعيد الخلق جميعاً. تماماً كما هي مشيئة الله الخالق وقدره..

وأنا لا أحث على البحث في مصير. وإنما أدعو إلى التدارس حول مستقبل الذات الإنسانية في القرن الواحد والعشرين، القرن القادم.

ولسائل أن يسأل: هل يجب أن يعاد الإنسان إلى مثاليته التي حققها له الدين؟.. في حريته وعيشه وطمأنينته وفي علاقاته الإنسانية؟.. وفي إبداعه وتفوقه العقلي؟

فأجيب.. نعم.. ولكن ليس على صور.

فلطالما ينخرط الإنسان بالدمع باكياً من غير أن يدري لماذا؟..

ويسبح في الأحلام ويسبح. فلا يستطيع أن يعبر عما هو فيه.. وقد يبكي المجرمون ولكن الدموع لا تدل على شيء في تغيير العادات!.

وإنما الإيمان أولاً.. ليأتي بالعجب.. لا لأنه يحرك الجبال فحسب بل يحملك أيضاً على الاعتقاد بأن السمكة هي حصان سباق.. وهو لا يكتسب بالحجة والمنطق.. فالمرء لا يقع في حب امرأة أو يدين بمذهب أو يعتنق مبدأ نتيجة اقتناع أو وليد منطق.. وقد تدافع الحجة عن فعل من أفعال الإيمان.. ولكن ذلك إنما يأتي بعد انتهاء الفعل وارتباط الفاعل به.. وقد يكون للحث أو الحض أو الإقناع آثر في تحويل الإنسان من اتجاه إلى اتجاه ولكن دور الحث لا يتعدى مجرد الوصول.. بعملية نفسية ظلت دهراً طويلاً تختلج وتستوي وتنضج في ناحية لا ينفذ الحث إليها أو يخترقها الإقناع إلى ذروتها الكاملة وأقصى حدود الإحساس بها واليقين.

الإيمان لا يكتسب وإنما ينمو نمو الشجر وإن رأسه ليذهب في السماء.. وقيمته لتمضي في الأفق.. أما جذوره في أعماق الماضي وتتغذى من عصارة تربة التجربة!..

إعادة الإنسان إلى مثاليته التي حققها له الدين تتم بتزويد عقله وروحه وغريزته بحواجز واستحكامات وتحصينات مرنة تقيه الصدمات وترد عنه المؤثرات فلا تهز أو تزلزل معتقداته.. وهذه هي القواعد الرئيسية في أساس غرس الإيمان!!.

وإعادة الإنسان إلى مثاليته التي حققها له الدين في حريته تكون بالإيمان فقد ولد حراً وهو مع ذلك في القيود بكل مكان. وإن أقوى الناس لا يكون دائماً قوياً وسيداً إلا إذا حول القوة إلى حق والطاعة إلى واجب.. وليس لرجل سلطان طبيعي على آخر.. والتعاقد أساس سلطة شرعية بين الإنسان وأخيه الإنسان.. والذي يقبل أن يكون عبداً لغيره لا يمنح نفسه فحسب وإنما يبيع شخصة لكسب عيشه.. وإذا كان يبيع نفسه فهو أحمق وعمله غير شرعي.

وإعادة الإنسان إلى مثاليته التي حققها له الدين في عيشه وطمأنينته

يكون بالإيمان.. فمن العدل أن نشير إلى أن إنفاق الأموال على الأسلحة ينطوي على التضحية الفورية بفرص وإمكانيات بناءة أخرى في الوقت الحاضر على أقل تقدير. لكن الأسلحة في حد ذاتها لا تسبب نشوب حرب بل على العكس من ذلك فإن اختيار الأسلحة بشكل لائق قد يؤجل قيام الحرب..

إن التفكير الجدي فيما قد تؤدي إليه الحرب النووية قد يؤجل الحاجة إلى شن حرب إذ أن المرء يفضل في الواقع استعراض نواحي الحرب في مخيلته على خوض تجربة حقيقية بالنسبة إلى مثل هذه الحرب!..

والإنسان لا يرغب في السير شوطاً بعيداً في الاستعانة بالتجارب السابقة فالذي كان مسلماً به في الماضي لا يكون كذلك بالنسبة إلى وضع معين في المستقبل!..

أما إعادة الإنسان إلى مثاليته التي حققها له الدين في علاقاته الإنسانية.. فإنها تكون بالإيمان.. إذ ليس من السعادة أن تعيش فئة من البشر على غذاء يكفي فرداً واحداً.

وفي البشرية شعوب تعيش على تعاسة نادرة. فالملايين من الآدميين في الهند لا يكلف غذاؤهم الأسبوعي ما يكلف فئة صغيرة يوم واحد في شعب آخر.. والإسباني يعيش ثمانية أيام من غذاء يكفي لواحد من الألمان، والإنجليزي يثقل مائدته باللحوم، والإيطالي يزينها بالسكر.. والأمراض تفتك بالشعوب التي لا تصل إلى اللحم أو السكر أو الغذاء العادي.

أما ماذا سيكون عليه فكر الإنسان بعد إعادته إلى مثاليته التي حققها له الدين.. فحقاً سيكون بالإيمان. وفق ما به يبدع ويصور. يفعل ويعمل.. فإن إبداعه لا بد أن يمتد ويتسع لعمل كل طرق استنباط الأشياء التي يستطيع صنعها وعندئذ يمكننا أن نجد لذة وارتياحاً دون أن نهتم للنتيجة.. فالفكر المبدع والعمل المخلص يصبحان جزءاً من الحياة والنمو.. وقد يصبح في الإمكان تجنب بعض المنافسات التي تقضي على بهجة الحياة المعاصرة!!.

ومهما كان الشيء الذي يبرع فيه الإنسان فلا بد من أن ينظم طاقاته المبدعة. ويتحقق بالطبع تشريع وفق الطاقة الفورية في دولة الإيمان والعلم.. ولكن إذا كان الهدف التفوق فإن العمل المنظم واضح جداً!!..

وفي نهاية المطاف نشعر بأن هذا التقدير لما يحمله معه القرن الجديد القرن الحادي والعشرون.. هو ثمرة جهود ضخمة في معاناة صراع مع القيم المشوهة للمجتمع المتداعي الفاسد تبذلها الروح الإنسانية ذات الغرس الإلهي المثالي.. تلك الروح التي هي سر القدرة على الثبات والجلد والمؤهلة للشفقة والرحمة والتضحية.. في واقع إنساني تتنضدد فيه تلك الروح مع الفكر والغريزة لتنضم انضماماً عميقاً يولد الحياة والفعالية للقرن الجديد في مثاليته ليس فيها كما قلت ثمة سلطانان.. مدني وديني.. فالدين هو السلطان الرابط بين الناس.. أراده الله لسعادة الإنسان في كل ذرة من العلائق في الحياتين الدنيا والأخرى لكل زمان.. ومن هنا ولت أيضاً فكرة المكان لأيديولوجية مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس!..

وفي وسط الألم الذي تعيش الإنسانية فيه.. تتحدد صورة المستقبل صورة مجمع الإنسان الذي نسعى إليه.. مجتمع غير قائم على الاستغلال.. مجتمع يقدس الكلمة الشريفة.. قائم على الطهر والإيجابية بالإيمان العميق الذي يملأ حياتنا ويصوغ هذه الحياة بما وقر في القلب وصدقه العمل!..

فالدين يعود بالإنسان بدفعة قوية جديدة تشرق عليه من خلالها طوالع القرن الجديد في كيان للإنسان جديد.. صورة مثالية على الأرض مما تريده له تعاليم السماء وليستشعر العالم رابطة قوية.. فيختصر الزمان والمكان ليعود إلى ملكوت خالقه وعهود النبوة والنماذج الإنسانية التي تهوي إليها الأفئدة.. مجسداً كرامة الإنسان والمساواة بين البشر.. وطوبى للذاكرين.. فإنهم سيفرحون!!.

ليتنا نعود إلى شريعة التوحيد ليعلم الكبير والعظيم والغني أنه عبد الله، وأن الله أكبر من كل شيء وأنه لا إله إلا الله بيده الخير والشر والضر والنفع!.

ليتنا نؤمن بكتاب الله عز وجل وبكلامه الحكيم المعجز!.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وليتنا نؤمن حق الإيمان بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠ ـ ١٦٣].

إن الروح الإنسانية العميقة تنتج نظماً خلاقة عادلة ولكن النظم الرأسمالية والنظم الاشتراكية المادية التي جاءت بها أوروبا بمعسكريها لم تنتج عواطف إنسانية.. إن الروح الإسلامية استطاعت أن تخلق نفوساً تطبق الإخاء والتعاون والفداء في سبيل المجموع وتسير في الخط الذي رسمه تشريعه من غير تعقيد.. ولم تستطع الأنظمة الاشتراكية المعقدة والقوانين الرأسمالية الملزمة الزاجرة أن تولد العواطف في النفوس وتغير أخلاق الإنسان وتهذب غرائزه وعواطفه.. ولذلك فإن لمعاركنا اليوم صدى عالمياً لعظيم مغزاها...

إن العالم اليوم بحاجة إلينا.. بحاجة إلى هذا التراث الذي نحرسه ونحن الأوصياء عليه.. إن العالم كله بحاجة إلى العرب، أما العالم الشرقي الإسلامي فليصحح له العرب ما شوهه من تعاليم الإسلام وما غير من معالمه ودثر من قيمه.. وأما العالم الغربي فلنعد إليه روح الإيمان والأخلاق، ونبعث فيه العواطف الإنسانية والمبادىء الخلقية المنبثقة عن هذا الإيمان وقد نسيها كذلك وشوهها بل مسخها وقلبها ثم طردها بعد ذلك من أرضه.. ولنخرجه من حمى المادية وحمأة الطين التي غاص فيها...

إن هذا الصوت قد خرج من الشرق في أوائل هذا العصر وفي السنين الأخيرة منه من مسلمي العرب ونصاراهم.. سمعه العالم من الكواكبي ومحمد عبده ومحمد بن عبد الوهاب والرافعي وعبد العزيز آل سعود ومن

مالك بن نبي كما سمعه من ميخائيل نعيمة وفيلكس فارس والشاعر القروي. . .

أما ميخائيل نعيمة فيقول: «واهاً لهذا الشرق ما أضعف ذاكرته وأوهن قلبه. . سرعان ما نسى ميراثه وسرعان ما تخلى عن سلاحه الذي لا يفل ليستبدل به سلاحاً يتأكله الصدأ. . كما كنت أتمنى لو يسترد ميراثه وسلاحه. . لعله يستطيع أن يرد العالم إلى رشده بدلاً من أن يفقد هو الآخر رشده في عالم جن جنونه.

لئن أحسن الغرب توجيه العقل البشري وتدريبه وتنظيمه حتى بلغ به ما بلغ من بعيد الشأو في دنيا الصناعات والعلوم والفنون فقد أهمل القلب كل الإهمال والقلب هو مهب العواصف التي تعبث بنتاج العقل. . ومصدر السموم التي تفسد على الناس الاستمتاع بذلك النتاج وهو على ضآلة حجمه ذلك العالم الشاسع الذي يلاصق فيه الإنسان الحيوان من جهة ويعانق الله من الأخرى وحتى اليوم ما تمكن أحد من سبر أغواره السحيقة وتسلق أعاليه الربانية غير نفر قليل من الناس أنجبهم هذا الشرق هداة للبشرية وقادة لخطاها أولئك هم أنبياء الشرق لرسل الله إلى الكون بأجمعه الذين مروا بالأرض مرور الشهب في الفضاء فرسموا للناس طريق الخلاص بخطوط من نور». . .

وفي موضع آخر يقول: أما معجزة العرب الكبرى فهي القرآن. . وهي وحدها التي تستطيع أن تجعل من العرب قوة أين منها قوة الأساطيل البحرية والجوية والقنابل الجهنمية. وأين منها قوة المال والرجال فالأساطيل للصدأ والرجال للموت والمال للزوال أما معجزة القرآن فللبقاء. . ذلك أنها أقامت للعرب ولغير العرب هدفاً من حياتهم وكانوا بغير هدف، واختطت طريقاً لهم إلى الهدف وكانوا بغير طريق. . وما اكتفت بأن أقامت لهم هدفاً واختطت طريقاً بل إنها برهنت لهم بحياة النبي وصحبه أن ذلك الهدف مستطاع بلوغه على من سار في الطريق. . لو لم يترجم النبي وصحبه القرآن إلى أفعال لما كانت المعجزة معجزة. . أجل إن معجزة العرب هي القرآن. .

إلا أنها أصبحت اليوم وكأنها عندهم ليست بمعجزة ذلك لكثرة ما ألفتها الشفاه والآذان والعيون.. وأغلقت أمامها القلوب وقلوب العرب غدت مغلقة دون معجزة العرب بعد أن حكموا دنياهم في دينهم.. فهم اليوم يؤمنون بالراديو والرادار وبالدبابة والطيارة ثم بالفلس يبتاع كل هذه.. يؤمنون بهما كما لو كانت المفاتيح إلى الراحة والهناء والسلام والحرية والكرامة الإنسانية أما المفتاح الذي أعطي لهم في القرآن فجوهرة يتبركون بلثمها ويباهون بجمالها ولكنهم يتهربون من استعمالها»..

وميخائيل نعيمة هو صاحب كتاب (أبعد من موسكو وواشنطن) الدال بعنوانه على فكرته...

أما الأستاذ فيلكس فارس فيقول: «إن لهذه الشعوب المنتشرة في الشرق العربي فطرة واحدة كونتها العقيدة والتقاليد والبيان.. فهي تنشد مثلاً عليا للحياة تتوافق وحوافزها المستقرة في أساليب تفكيرها لذلك كان لزاماً على هذه الشعوب أن تتجه إلى جامعة واحدة تبعث لها الحضارة الملائمة التي ترتاح إليها سريرتها.. إن عظماء المصلحين قد قضوا على كثير من سخافات الجاهلية وعادات الفرس ولكن ضلالات روما وتقاليد الغرب الحديثة التي يبكي لها عقلاء الغرب ومصلحوه لم تزل تهاجم الفئة المخدوعة بنظم الاجتماع ناسية أو متناسية غرائزها الشرقية وما في كتابها من روائع الطهر وآيات العفاف، أقيموا الحضارة القرآنية المحررة في الغرائز الشرقية السامية تتبع خطواتكم الأمة المفرقة قبائل وشعوباً...

فالثقافة الشرقية العربية هي العقل الباطن لأمم هذا الشرق العربي وهي اللوح الذي سطرت عليه مبادئه» ثم بعد ذلك ينقل عن المستشرق الإسباني «فيلا سبازا» قوله: «لقد حجب الغرب أنوار المسيحية الأولى وبدل ما في المسيحية السامية من مواساة.. وحول فلسفتها إلى أحاج ومعميات.. إن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمعة واحدة ولا خلق ابتسامة واحدة.. وليس أجدر من أمم الشرق العربي المحتفظة بالثقافة العربية والقائمة على إذاعتها بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم إلى

هوة التوحش الاقتصادي.

ويقول أيضاً هذا المستشرق الإسباني: ليس في طاقتنا نحن الأندلسيين المعتنقين بإيمان ثابت دين المسيحية أن نجحد دين أسلافنا فلئن كان الأول مستقراً في ضمائرنا فإن الثاني أي الإسلام ما برح مستقراً في نظرة قوميتنا المزدانة بالبدائع كما أننا لو انتزعنا بعض الألوان التي موهت بها جدران كنائسنا نجد وراءها لمعاً مذهبة لاسم الله الصمد محفوراً بالكوفية...

فإننا لو خدشنا بشريتنا الأوروبية الصفراء لبرز لنا من تحتها لون بشرة العرب السمراء.. فما قوميتنا الغربية إلا العرض الظاهر أما حقيقتنا الخالدة فهي القومية الشرقية، ولكن فيلكس فارس يعلق على ما قال المستشرق إذ فصل بين الإسلام والمسيحية بقوله: «ولأقف هنا أمام هذا الشاعر الكبير الذي يرى المسيحية مستقرة في ضميره والإسلام مستقراً في فطرته لأقول له: إنه بالرغم من إدراكه أن الغرب قد بدل فلسفته المسيحية لم يتمكن من إيصال الإسلام إلى ضميره كما أنه امتنع عليه أن يبلغ بالمسيحية إلى فطرته وبقى النزاع مستحكماً فيه بين الفطرة والضمير لأن ثقافته المسيحية لم تزل متأثرة بالأحاجي والمعميات»...

ثم يقول إن هذا الوحي الواحد في أصله المنزل لإصلاح الحياة في ثلاثة أزمان مختلفة لا يتجلى للغريزة الشرقية المستنيرة إلا صوتاً واحداً تعالى ثلاث مرات داعياً إلى المعروف وناهياً عن المنكر وما كان عيسى مناقضاً لموسى.. ولاكان محمد ناقضاً لعيسى.. إننا لو عرينا حياة المسيحي مما علق بها من عادات الغرب وعرينا حياة المسلم مما علق به من عادات الفرس ورجعنا بالرجلين إلى الكتب السماوية الوضيئة لصعب علينا أن نعين موضوع الفرق بينهما».

ثم يقول: «إنني أعترف جهاراً أنني برغم إمكاني تفهم روح الموسيقى الغربية لأن أمي أنشدتها فوق سريري وأنا طفل وأمي من وطن (جان جاك روسو) مستلهم الشرق في ثورته.. إنني بالرغم من ذلك لا أفهم الموسيقى الغربية إلا بدماغي أما أصداء روحي فإنها لا تتجاوب إلا إذا سمعت في السحر أصوات الأجيال القديمة في أمتي تهتف في أعالي المآذن.. حي

على الفلاح.. حي على الفلاح. الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله...».

وأما الصوت الثالث الذي ذكرته لكم فأكتفي أن أحيلكم على ما كتب وسطر وكأنه أراد أن يبلغ هذا الصوت إلى الغرب فكتب كتبه بالفرنسية ثم ترجمت إلى العربية وأعني به الفيلسوف العربي مالك بن نبي الجزائري. وهو مؤلف كتاب: «مستقبل الإسلام» وكتاب «وجهة العالم الإسلامي» وكتاب «الفكرة الآسيوية الإفريقية» و «الظاهرة القرآنية» و «شروط النهضة» وكتب ومحاضرات أخرى.

أما خلاصة نظرية مالك بن نبي أن الحضارة الغربية قد آلت إلى إفلاس.. وشرح هذا شرحاً مفصلاً.. وأما ما آل إليه الشرق في عصور انحطاطه فهيكل فارغ وألفاظ جوفاء.. والحضارة اليوم تنتظر ظهور الإنسان الجديد الذي رسالته التوفيق بين العلم والضمير، بين الأخلاق والصناعة، والطبيعة وما وراء الطبيعة.. أن مالك بن نبي يمثل مرحلة التحرر من التبعية والشعور بالذات بعد الشعور بالنقص إنه طليعة ورائد...

ومع أننا نعيش اليوم في مرحلة التحرر من التبعية السياسية والتي تكون في تاريخنا الحديث الإطار الصحيح للتحرر من التبعية الفكرية والحضارية فلا يزال يعيش الكثيرون من المثقفين العرب على فتات موائد الغرب.. ولا يزالون يقفون موقف الذاهل المندهش أمام حضارة الغرب موقف التلميذ الصغير أمام أستاذ كبير.. وأما «مالك بن نبي» فهو الذي يقف أمامنا ليقول أننا سنقف بعد الآن من الغرب موقف الأستاذ من التلميذ.. يكفينا هذا الشعور بالضعف والنقص والطعن في تاريخنا وتراثنا وحضارتنا والقول أن أولئك الذين نهضوا بالإنسانية منطلقة رسالاتهم من بلادنا.. من إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وأمثالهم من الأنبياء لم يصنعوا شيئاً بالنسبة إلى فرويد ونيتشه وماركس وإنجلز...

إنه قول من يحتقرون أنفسهم وأمتهم وينكرون الحقيقة ويجهلون ما بعثه هؤلاء الذين سموا بنفوسهم فوق البشر من روح إنسانية عميقة ونفحة

إلهية في أجيال البشرية المتعاقبة إن هؤلاء أناس سطحيون من صغار تلاميذ الغرب وإن دورهم في حضارتنا الحديثة قد انقضى فهم ليسوا إلا نقلة ومقلدين ومترجمين وقد انتهينا من مرحلة النقل والتقليد والترجمة وبدأنا في مرحلة الإبداع مرحلة الشعور بالذات.. ومن هنا تفهمون ذلك المغزى البعيد الذي تستمد بلادنا منه معناها وقيمتها. إن المملكة العربية السعودية هي الدولة الأولى التي رسمت بالإسلام طريق التحرر المزدوج.. التحرر السياسي والتحرر العقائدي والتحرر الحضاري والتحرر الفكري.. ولذا تجدون لهذه الدولة الإسلامية في كثير من واقعها معنى وصدى عالمياً...

ذلك أن الغرب يفهم أكثر من الكثير منا مع الأسف المغزى البعيد للإنسان الجديد الذي سينبثق من الحضارة الإسلامية التي تبنيها بلادنا نبراسها القرآن لتعبر بذلك عن معنى هو في أغوارنا وفي أعماق نفوسنا وتصل ما بين تاريخنا البعيد الذي بدأ من العربية الأولى قبل الإسلام ثم ازدهر وارتقى على العالم بعد الإسلام.. ثم انحدر وانحط في العصور الأخيرة...

ينبغي منذ الآن أن نعرف أين هي حضارة الغرب الحديثة وأين نحن الآن.. وماذا نستقبل كما قلت لنعرف هدفنا ونتحكم في أدق وأصغر تفصيلات حياتنا.. ولنعي من جديد رسالتنا وأن القضية ليست فقط في أن نطرد المستعمر من بقية بلادنا العربية التي ما زالت تحت نير الاستعمار. ولكن وظيفتنا أن نطرد المستعمر بل أن نطرد نفسية الاستعمار من بلاد المستعمر نفسه.. أن نحرر الإنسانية جميعاً أن نحررها في الغرب كما نحررها في الشرق.

إننا نريد أن نرقى بالعالم.. نريد أن نحرر البشرية من نفوسها ومن شهواتها.. لنعيد إلى العالم الرخاء والسعادة والعدالة والفضيلة..

# الفصل الثاني
# البيت الحرام

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٥، ٩٦].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧]. صدق الله العظيم.

البيت الحرام، وما أدراك ما البيت الحرام؟ فما أعظم البيت الحرام، وما أعلى قدره، هو نور الله في الأرض.

إنه منارة الملائكة وقبلة آدم وبناء إبراهيم وإسماعيل، إنه رمز التوحيد، وقبلة الدنيا.

يروي الفاسي في كتابه «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» الجزء الأول.

إن الله عز وجل أمر الملائكة أن يبنوا له بيتاً ويطوفوا حوله[1]، فبنوا البيت المعمور في السماء السابعة، وعلى نمطه بنو البيت الحرام في الأرض[2] وكان ذلك قبل هبوط آدم من الجنة إلى الأرض.

ولما هبط آدم إلى الأرض أمره الله عز وجل ببناء البيت، فكان أول

---

(١) راجع الأزرقي في أخبار مكة ٢/١.

(٢) راجع الأزرقي في كتابه أخبار مكة ٤/١.

بيت وضع للناس[1].

وأوحى الله إليه بمكانه، فلما فرغ من البناء طاف حوله سبعاً[2].

وتوارث أبناء آدم تعظيم هذا البيت والحج إليه جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، وكذلك فعل نوح عليه السلام، وبعد الطوفان أعاد نوح البناء وجدده.

ولما أوحى إلى إبراهيم عليه السلام بالرسالة، وولد له ابنه إسماعيل، الذي صاهر قبيلة جرهم، أمره الله عز وجل بأن يبني البيت الحرام[3] هو وابنه إسماعيل وتولى إسماعيل أمور البيت الحرام، وبعد وفاته تنازعت جرهم وخزاعة على حكم مكة ونشبت بينهما حرب طاحنة انتصرت فيها جرهم وتولت حكم مكة، ثم لم تمض فترة طويلة حتى صارت الغلبة لخزاعة، وتولت أمر مكة حيناً من الزمان.

إلى أن ظهر قصي في قريش فقاتل خزاعة وأخذ منها مفتاح الكعبة، وتولى أمر البيت الحرام، وخلص الأمر لقصي وورث أبناء قصي من بعده مفاخر الولاية، على مكة والبيت الحرام.

وولد رسول الله ﷺ عام الفيل أي عام ٥٧٠م، ورأت قريش بناء البيت الحرام قد تهدم، فقررت هدمه وإعادة بنائه على قواعد إبراهيم وإسماعيل، وحضر الرسول الأكرم بناءه وهو في الخامسة والثلاثين من عمره أي قبل البعثة بخمس سنين عدداً.

وهكذا مرت الأيام وتوالت الأحداث على مكة والبيت الحرام، وجدد بناء البيت الحرام والكعبة - في عهد بعد عهد، وعصر بعد عصر، حتى كانت عمارة المسجد الحرام الأخيرة، التي تعد من مفاخر العمارة الإسلامية، ومن معجزات العمارة في جميع دول العالم وفي جميع أنحاء

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ١٣١، والكامل لابن الأثير ١/ ٢٤.

(٢) الطبري ١/ ١٣٣.

(٣) الطبري ١/ ١٢٨، البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٥٤.

الدنيا، وهي تشهد بعظمة الدولة، وجلال الملك، وغيرة خادم الحرمين الشريفين على الكعبة والبيت الحرام وعلى المسجد النبوي الشريف الذي شملته أيدي العمارة، فصار عروس الدنيا في عالم البناء، وأصبح مجداً وفخراً للدولة السعودية التي يقودها اليوم خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز، ويسير بها من نصر إلى نصر، ومن نهضة إلى نهضة، أعز الله ملكه وحفظ عرشه.

هكذا كان الإنسان في تكوينه الذي صاغه الله عليه سكب فيه نورانية شفافة تتقبل ما يعرض عليه من عطاء تتحكم من خلال تقبله له سمات واضحة فيها معالم الإذعان والرضى حتى تتوارث أجياله ذلك العطاء.. بما فيه خيراً كان أو شراً...

ولأن الله خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض استن له سنة وانتهج منهاجاً لتحريك إرادة التغيير فيه والتبديل كلما ازداد العطاء الممنوح له والمتوارث عليه رسوباً وتعمقاً في دخائله فكانت سنته سبحانه تلك هو أن يصطفي من بني الإنسان بين الفينة والفينة من يضع له منهاجاً يحرك على ضوئه إرادة التدبير ليسيروا بعد سريانها بهدي أضواء المنهاج المرسوم له نحو التبديل فتتجسد إرادة التغيير. ذلكم الصفي الذي يصطفيه الله هو النبي الرسول. هكذا كانت إرادة الله العظيم الخالق كما تؤكده تعاليمه السماوية.

فكانت الرسالات على الأرض تترى وكانت النبوات تتوالى فتتغير المعالم وتتجدد الصلات وتصفو النفوس ويتآخى البشر في ديناميكية مستمرة متتالية. حتى كانت نهاية الرسالات وخاتمتها بمحمد ﷺ الذي اختاره الله من أربعة عشر قرناً أنموذجاً حياً يتعلم منه المرء أبجدية المثالية في علاقاته بخالقه ومخلوقاته ولتكون أمته على أجيالها المتعاقبة منذ بعثته ﷺ خير أمة أخرجت للناس بعد أن توافر لها الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل ما تحمله هذه الأقانيم الثلاث من قيم ومثل عليا واستهداف نحو الكمال نصت عليها الدلالات الواضحة البينة المحكمة آيات القرآن الحكيم وسنته التي تنزلت على رسول الله ﷺ لتبقى حتى يرث الله الأرض ومن

عليها باذن وحفظ منه سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[1]. و ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[2].

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

# الفصل الثالث
# المدينة المنورة والمسجد النبوي الشريف

المدينة المنورة

حدث ولا حرج

حدث على مهاجر رسول الله الأعظم وحدث عن عاصمة الإسلام الأولى وحدث عن غرة الإسلام والمسلمين.

وحدث عن المسجد النبوي الشريف أول جامعة إسلامية في الدنيا وحيث كان يجلس رسول الله ﷺ وأصحابه من حوله يتلون القرآن، ويشاورهم الرسول في أمر الدعوة وأمر الدولة.

حدث بكل فخر عن عظمة الإسلام، وجلال الرسول في مهبط الوحي الأمين وحيث كان ينزل جبريل عليه السلام وحيث تلقى رسول الله الوحي، وحيث بلغه أصحابه من المهاجرين والأنصار.

أيها التاريخ تحدث.. أيها المجد تكلم.. أيها الكلم لتصمت.

فإن بيانك يعجز عن تصوير الحقيقة.

وما أصدق ما يقول ضياء الدين الصابوني في ديوان: «من نفحات طيبة» الصفحة الخامسة والثلاثون:

كم طار قلبي من شوق إلى الحرم ... مجنحاً فوق هام الشهب والقمم
وكم حننت إلى أرض الحبيب هوى ... وطيبة بوحيها يجرى بكل دم

فما تمالكت دمعي في تحدره ... وما تمالكت قلبي وهو في خترم
أشعلت نار فؤاده في تذكرهم ... فكيف لما حللنا روضة الكرم
ولاحت القبة الخضراء زاهية ... كأنها الكوكب الدري في الظلم
وشعشع النور في الأرجاء ... تبسما هذا الضريح وفيه صفوت الأمم

وما أصدق ما يقول في صفحة ٥٧:

بشراك يا نفس هذا الحب والحرم ... وهذه الروضة الزهراء تبتسم
وهذه (طابة) لاحت عرائسها ... وقد تزينت الأجواء والأكم
تلوح للعين عن بعد فتحسبها ... بدر الدياجي وقد شقت به الظلم
يا أهل (طيبة) إني جئت مقتبساً ... من نوركم فجمال الكون عندكمو

أما المدينة فقد كتب الله لها الشرف الكبير بأن تكون مهاجر رسول الله ﷺ، وبأن ينتقل إليها النور الإلهي، وبأن تصبح مهبطاً للوحي، وبأن يتنزل فيها القرآن بعد أن تنزل جزء منه في مكة بلد الله الحرام.

وشرفها الله بأن تصبح بعد الهجرة عاصمة الإسلام، ودار الوحي، وحاضرة الدعوة والدولة.

والمدينة المنورة قبل الإسلام بسكانها من الأوس والخزرج واليهود، فقد كانت في ثراء ومال وتجارة وزراعة، ثم وفد إليها الرسول الأكرم وصحابته من المهاجرين، فارتفعت مكانتها، وعظم شأنها ونبه أمرها، وتطلعت إليها القلوب، وتسمعت لأخبارها الآذان، واستشرقت لمرآها الأبصار؛ وبنى الرسول الأكرم بها منذ حل فيها المسجد النبوي الشريف للعبادة والدعوة والشورى والوحي وتبليغ رسالة الله إلى الدنيا، بعد أن بنى صلوات الله عليه وسلم مسجد قباء في الجنوب الغربي للمدينة المنورة، وقد تناوبت على مسجد رسول الله ﷺ العمارة عهداً بعد عهد، وعصراً بعد عصر وآخرها هي العمارة السعودية الراهنة اليوم التي أضافت إلى المسجد الشريف مئات الألوف من الأمتار ليصبح متسعاً لجميع الزائرين والحجاج والمعتمرين، والمسجد النبوي الشريف هو ثاني مساجد الإسلام الكبرى،

تظلله رعاية الله وحفظه وكرمه ولطفه، وسيبقى أبد الآباد رمزاً للتوحيد ومنارة شماء لدعوة الإسلام.

# الفصل الرابع

# المسجد الأقصى ثالث مساجد الإسلام

حسب المسجد الأقصى أن ورد ذكره في القرآن الكريم فقال تعالى في مطلع سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

والقدس المكان التاريخي العظيم الذي بني فيه المسجد الأقصى، والقدس من أهم مدن العالم تاريخاً وحضارة، وهي من أرض فلسطين الإسلامية العربية، وفلسطين من أعظم بقاع الدنيا التي شهدت مولد التاريخ الإنساني. وفي مدينة القدس تلاقت الحضارات اليهودية والمسيحية والإسلامية.

وكان موقع القدس مسكوناً منذ فترة الاستقرار والتحضر الأولى بدليل ما وجده المنقبون من نماذج الفخار التي وجدت في قبر على منحدر تل عوف إيل (الذي سماه الرومان أرفيل) جنوب المدينة الحالية ذلك التل الذي كان نواة للمدينة اليبوسية التي سبقت المدينة الإسرائيلية وقد أرجع العلماء هذا الفخار إلى العصر البرونزي القديم (١٠٠٠ ـ ٢١٠٠م.ق.م).

قامت القدس القديمة على تل الظهور (لوفيل) وهو موقع غير مناسب لمدينة يراد لها الاتساع إذ يلف حولها من الشرق وادي قدرون وينحدر بالتدريج للجنوب الشرقي وعرضه أقل من مائتي متر ويجرى فيه خلال الشتاء والربيع جدول ولكنه يجف في الصيف ويتصل قدرون في الجنوب

بوادي هنوم (جهنم) الذي يمتد إلى الغرب نحو نصف ميل ثم يدور إلى الشمال وأخيراً يتصل بوادي تريبيون باعة الجبن) الذي يمتد شمالاً وهكذا يكون موقع القدس القديم محاطاً من ثلاث جهات بالوديان ولا يتصل مع مستوى الأرض إلا من الشمال يحميها من هجمات الأعداء وهناك سبب أهم لاختيار هذا الموقع لمدينتنا هذه هو وجود عين العذراء على جانب وادي قدرون جنوبي شرق الموقع.

يمتد وادي تربيون من باب العمود شمالي المدينة مسافة كيلو متر ونصف حتى يلتقي بوادي هنوم في الجنوب وترتفع الآكام في شرقيه وفي غربيه نحو ٥٠ ـ ١٥٠ بدما ومن كثرة هدم المدينة وتراكم الأنقاض امتلأ وادي تربيون بها.

ومنذ أيام سليمان عليه السلام وما بعده أخذت بعض الأبنية التي تقام على السفح في غربي وادي تربيون إلى أن اتصلت إلى تلة سهيون حيث تقوم القلعة الحالية ومقام النبي داود وهو أعلى من نوفيل بنحو ثمانية أقدام في شمال أوفيل حفر خندق عمقه عشرون قدماً ليفصل المدينة عن صخور الشمال وبني فيه سور هذا الخندق هو الواقع بين المتحف ومقبرة باب الساهرة إلى حي المصرارة والمرتفع الصخري يسمى تلك أكدا وفي أسفله مغارة الهدمية وفي جنوب الخندق محاجر سليمان والسور الحالي.

ولقد وصف المؤرخ يوسيفوسي مدينة القدس في أيامه (منتصف القرن الأول بعد المسيح) بقوله المدينة مبنية على تلين الواحد مقابل الآخر بينها واد يشطرهما صخرة القدس الأعلى كلس رملي فيه بعض الصوان.

وعلى الصخرة المعروفة في تاريخ الرومان باسم لوفيل المحرفة عن اسمها العربي القديم (عوف إيل) تكثر الكهوف التي سكنها الكنعانيون القدماء منذ الألف الثالث قبل الميلاد وبعد حياة طويلة بدأ الكنعاني يبني بيتاً فوق المغارة وبقوا بها ومن هذه المباني البسيطة ظهرت مدينة دعوها باسم الههم سالين نوفت باسم (يورد ساليم) واشتهر من الكنعانيين عشيرة اليبوسين التي كان لها فضل تزويد المدينة بالماء في نفق شقوه تحت الأرض من

عيون جيمون (عين العذراء ٩ في سلوان إلى عين أم الدرج في ساليم.

وفي أوائل القرن العشرين قبل الميلاد عرف من رجال ساليم (ملكي صادق) وكانت أهم مظاهر حضارة عصره نشوء عبادة (إيل عليون) أي الله العلي ومع ظهور كهنوت يمارس قربان الخبز والخمر التي أصبحت رمزاً لكهنوت المسيح الذي جاء بعد هذا العصر بألفي سنة وتقول الرسائل إلى العبرانيين لأحد الكتب المقدسة في المسيحية أن ملكي صادق كان رمزاً للمسيح وهكذا كانت ساليم مدينة مقدسة وفي هذا الزمن وصل إيل كنعان إبراهيم الخليل كشيخ عشيرة وبسبب قلة رجاله لم تنشز بينه والكنعانيين أية حروب بل عاش مسالماً وفي رواية كعب الأحبار أن نبي الله سليمان بنى بيت المقدس على أساس قديم، ووصف المؤرخ اليهودي يوسيفوسي مدينة القدس أيام المسيح بقوله: كانت القدس محاطة بثلاثة أسوار في المنبسط الأرض من الشمال وبور واحد في الجهات الثلاث الأخرى التي تحميها من الوديان وكانت المدينة مبنية على تلين الواحد يقابل الآخر وبينها واد يشطرها وكانت البيوت متقابلة على سطح التلين.

وكان للعرب في الجاهلية رحلة تجارية تسافر فيها خلال الصيف قوافلهم إلى بلاد الشام من مدنها القدس ولقد شارك النبي ﷺ في رحلتين إلى بلاد الشام وكان أبو سفيان قد وصل إلى القدس في رحلاته التجارية كما أن عمر بن الخطاب تاجر في أسواق غزة وقد تشجع المسلمون بفتح القدس بسبب ما حظيت به من مكانة كبرى في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة:

- الإسراء قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

- المعراج: وهو عروج الرسول من صخرة بيت المقدس إلى السماوات العلى في الليلة التي كان فيها الإسراء وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

القبلة: إن الرسول كان يصلي هو وأصحابه متجهين نحو القدس وبقيت صخرة بيت المقدس قبلة المسلمين مدة سبعة عشر شهراً بعد الهجرة ولذلك تسمى القبلة الأولى.

ونرى مكانتها في الأحاديث النبوية، وبعد موقعة اليرموك والفتح الإسلامي للشام وإزاحة الرومان من هذه البلاد عام ١٦هـ اختط الخليفة الإسلامي العظيم عمر بن الخطاب مسجداً لرجال الفتح لأداء الصلوات فيه، وقد فكر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في بناء مسجد عظيم مكان المسجد الذي بناه عمر.

وجاء ابنه الوليد بن عبد الملك فأمر بإزالة مسجد عمر العتيق وبناء المسجد الأقصى كما روى ذلك الطبري وابن الأثير وابن خلدون وابن كثير وسواهم من أعلام المؤرخين.

والمسجد الأقصى هو أولى القبلين وثالث الحرمين ومسرى رسول الله رب العالمين الذي قال صلى الله عليه وسلم: لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى.

إن كثيراً من الناس يفهمون البركة حول المسجد الأقصى بكثرة الثمار والزرع ووفرة الأرزاق وغيرها مما تغل تلك الأرض الطيبة الخصبة وإذا كانت هذه وأمثالها من النعم المادية خيراً لا مرية فيه وبركة لا شك فيها.

وإن البركة الحقيقية في يقظة القلوب المؤمنة بالله المتفتحة للحياة المتجاوبة مع الإصلاح الآخذة بنواميس الترقي الصاعد بقواها إلى أعلى تلك القلوب التي تقتبس أنواراً من ماضيها الذي كان يسود الدنيا ويقودها بالعدل وتمد بحيويتها حاضرها الذي غدا حاضراً يلفت الدنيا ويملؤها بالإعجاب وتتجه في قوة مستقبلها التي نرجو أن يكون مسايراً للحاضر في عزته ومجده تلك هي البركة التي يعنيها القرآن الكريم.

إذ لا خير في نبت ولا زهر ولا في حب ولا ثمر ولا في درهم ولا دينار إذا رزىء الإنسان قلبه وأصيب في لبه أو نكب في عقيدته الدينية وأخلاقه الفاضلة.

والمسجد الأقصى حرم مقدس يشهد على ذلك أنه مكان الإسراء والمعراج والمكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالأنبياء إماماً، ووقف فيه البراق ليركبه رسول الله ﷺ بعد لقائه بالأنبياء وإمامته لهم، في صعوده إلى الملأ الأعلى.

وقد نشأ يعقوب بن إبراهيم في فلسطين، وهو إسرائيل، وبهجرة يعقوب إلى مصر ومع عائلته جميعها خلت فلسطين من بني إسرائيل، وبقي فيها سكانها الأصليون وهم الكنعانيون، وكان بني إسرائيل قبل انتقالهم إلى مصر يكونون أسرة كبيرة ولم يكونوا شعباً.

وتناسل بني إسرائيل في مصر وتكاثروا وأفسدوا في الأرض فأضرهم الفراعنة، حتى كان عهد فرعون موسى، ففارهم نبي الله موسى إلى أرض فلسطين ووقعت المعجزة حيث انغلق البحر وساروا فيه حتى نجوا وتبعهم فرعون فغرق فرعون، وغرق من معه من الجنود، وأغرق الله فرعون عبرة وعظة للناس.

«إن الحكومة في المجتمع الراقي صناعياً أو السائر في هذا الطريق لتقدر على البقاء وصيانة نفسها إذا نجحت فقط بتعبئة وتنظيم إنتاجية العلوم والتقنية والآلة لصالح الحضارة الصناعية وهذه الإنتاجية يخضع لها المجتمع ككل بقطع النظر عن المصلحة الفردية أو الجماعية والحقيقة الشرسة هي أن مقدرة الآلة المادية ـ وهي تفوق منفردة مقدرة الفرد أو مجموعة من الأفراد ـ تجعل منها ـ أي من الآلة ـ الأداة السياسية الأكثر فعالية في أي مجتمع بنى نظامه عليها.

إن الحضارة الصناعية المعاصرة وصلت إلى المرحلة التي تبدو فيها عبارة «المجتمع الحر» لا معنى لها بالمفهوم التقليدي للحريات الاقتصادية والسياسية والفكرية لا لكون هذه الحريات فقدت أهميتها بل لأن هذه الأهمية قد ازدادت بحيث لا يمكن تحديدها بالقوالب التقليدية. ونحن أحوج ما نكون إلى قوالب فهم جديدة تمت بصلة إلى قدرات المجتمع الجديدة كأن يصبح المعنى الجديد للحرية الاقتصادية التحرر من الاقتصاد

ومن كل قيوده والحرية السياسية تحرر الأفراد من السياسات التي لا سيطرة لهم عليها والحرية الفكرية استعادة الفكر لفكره الذي امتصته وسائل الإعلام والتثقيف الموجه.

وإن العالم الإسلامي الآخذ في البروز تدريجياً كطاقة مادية وبشرية عالمية لهو من أوضح وأصفى التكتلات البشرية المتجانسة فكرياً والتواقة أبداً للرقي وتحمل المسؤوليات الحضارية ذات الطابع القيادي. هذا العالم يشغل حيزاً جغرافياً بين ثلاث قارات. ولذا كان في الماضي ملتقى ومنبعاً للحضارات وعلى أديمه الممتد من الخليج إلى المحيط يرتكز اليوم اهتمام العالم بأسره ـ والأمة الإسلامية حتى في أحلك عصورها وانقساماتها واختلافاتها لم تفقد الإحساس بتجانسها الفكري. ولأسباب عديدة لم يتح لهذا التجانس أن يبرز على الصعيد العالمي الحضاري اليوم كطاقة إيجابية إلا أن الزمن آخذ في التغير وبوادر اليقظة بدأت تشق طريقها نحو النور.

هذه الأمة في تكتلها الأرضي والسكاني ستواجه احتمالين.. الوجود الأبدي ونقيضه. ذلك لأن تحديات العصر ومشاكل الحضارة الصناعية ستؤدي حتماً إلى تدابير وحلول تشمل الكرة الأرضية بكاملها ترابها وماءها وهواءها وإنسانها. وعندها تتهاوى الدويلات والكيانات السياسية الهشة مثل أوراق الخريف. أما التكتلات المنسجمة المتجانسة فيصعب اجتثاثها لا سيما إذا كانت تساير العصر وتساهم إيجابياً في تقدم الحضارة الإنسانية وتصحيح إعوجاجاتها.

وهناك من البوادر ما ينبىء بأن العالم الإسلامي مقبل على تكتل من نوع جديد لم يسبق له مثيل في عصرنا ولا يندرج تحت أي شعار أو تجربة وحدوية سابقة كاتحاد الولايات المتحدة الأمريكية أو الجمهوريات السوفياتية أو حتى تلك التي رفعتها الشعوب العربية وما زالت تنادي بها.

هذا التكتل إسلامياً تمليه حقائق العصر وما أوجدته الحضارة الصناعية من تشابك المصالح الإنسانية وتعددها وتعقدها بحيث أصبحت الاستقلالات الحالية لدى العرب وغيرهم لا تحوي مفهومها التقليدي السابق وأن بلدان

العالم المائة وثلاثين ونيف لا تستطيع الاستمرار في البقاء لوحدها مهما بلغت ثروتها الفردية وأن البديل هو التكتل المبني على التجانس البشري وأن العالم الإسلامي لأحسن مثال على هذا التجانس إنه أمل جديد ونظام جديد وامكانيات لانقاذ الحضارة الإنسانية التائهة أو هديها للطريق الصحيح.

# الفصل الخامس

# ماذا نريد من رحلة البشرية هذه؟

هذا الكتاب هو حديث عن «رحلة البشرية عبر الزمن من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية»، وهي رحلة طويلة الأمد، ولكنها تقف أمام الأبد وانية عاجزة عن الإحاطة بكل أسرارها، ومعرفة كل ما يتصل بأخبارها.

ولكنه العقل الإنساني يحاول أن يعرف وإن أدته المحاولة إلى العجز والوقوف أمام ساحة التاريخ الطويل، ولكن نور الله هو الذي يبدد الظلمات، ويشرح سر المعجزات، ويتفهم ما في هذه الرحلة الشاقة من آيات.

فقد عرف الإنسان الموت منذ كان، فالموت لا بد منه به تنتهي حياة الإنسان وهذه الظاهرة المستمرة نشاهدها ونعاينها مرة بعد أخرى فما من إنسان خلد في هذه الدنيا مهما طال عمره ومهما كان جبروته وملكه فإن مآل ذلك كله إلى الموت فالموت هو النهاية لكل حي ولا يبقى إلا الواحد القهار ذو السلطان الأبدي، فالموت كأس كل الناس شاربه[1].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2].

---

(١) قضية الألوهية بين الفلسفية والدين، عبد الكريم الخطيب ص ١٨٤ و ١٨٥ دار الفكر العربي.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٥٧.

وقال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1] أي من الناس والأنبياء والعلماء والصلحاء وغيرهم وقوله: كل من عليها فان، وقوله وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد فلكل إنسان وقت محدود لموته وساعة معلومة لا يتقدم عنها ولا يتأخر.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

فالموت هو تغير من حال إلى حال وليس عدواً كما يقول الملحدون بدليل أن الإنسان يحاسب بعد ذلك. والموت لا يحجبه حاجز الزمان ولا المكان بدليل قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[3].

وفي ذلك يقول ابن كثير: «والمقصود أن كل واحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد فإن له أجلاً محتوماً ومقاماً مقسوماً كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية وها أنا أموت على فراشي[4].

هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي، ما هو؟ وكيف يقع؟ وأي سلطان له لا يقاوم؟ إنه قدر الله، ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ ومن ثم لا يفلت منه أحد ولا يسبقه فيفوته أحد، وهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل.

إنه الموت نهاية كل حي، ولا يتفرد بالبقاء إلا الله وفي الموت يستوي

---

(١) سورة الزمر: الآية ٣٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٤.

(٣) سورة النساء: الآية ٧٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير ج ١ ص ٢٥٦ دار المعرفة بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م وكذا رسالة ماجستير بعنوان المراقبة والمحاسبة في القرآن الكريم إعداد سهير ياسين قنديل تحت إشراف الأستاذ الدكتور الحسيني أبو فرحة ص ٣٥٢.

كل البشر بما فيهم محمد رسول الله ﷺ، والموت ليس نهاية المطاف إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدى[1].

والموت لغة: ضد الحياة مات يموت موتاً ويمات أيضاً فهو ميت ويستوي فيه المذكر والمؤنث قال تعالى: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ولم يقل ميتةً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، والموت: السكون وكل ما سكن، فقد مات وهو على المثل، وماتت النار موتاً: برد رمادها، فلم يبق من الجمر شيء، وماتت الريح: ركدت وسكنت.

(والموت) بالضم الموت و (الموت) بالفتح ما لا روح فيه[2].

ونجد أن القرآن الكريم يلمس مكمن الخوف من الموت في النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف عن طريق الحقيقة الثابتة في شأن الموت وما بعد الموت من حكمة لله وتدبير ومن ابتلاء للعباد وجزاء.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۖ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾[3].

إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم، فالخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل

---

(١) الموت والخلود في الأديان المختلفة عزت زكي ص ١٦٤ دار الجيل للطباعة.

(٢) لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ج ٢ ص ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣ وكذا محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية ص ٨٦٨ مكتبة لبنان مطابع مؤسسة جواد للطباعة.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي ص ١٦٢. سورة آل عمران: الآية ١٤٥.

أجلاً والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمراً، فلا نامت أعين الجبناء، والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم أو يزيد.

ثم نجد أن القرآن الكريم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التي حسم فيها القول فإنه إذا كان العمر مكتوباً والأجل مرسوماً فلتنظر نفس ما قدمت لغد، ولتنظر نفس ماذا تريد، أتريد أن تعيش لهذه الدنيا وحدها؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى وإلى حياة أكبر من هذه الحياة؟ مع تساوي هذا الهم فيما يختص بالعمر والحياة؟[1].

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾.

ونجد أنه شتان بين حياة وحياة، وشتان بين اهتمام واهتمام. اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل والذي يعيش لهذه الأرض ويحصر همه كله فيها ويريد ثوابها وحدها إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام ثم يموت في موعده المحدد المضروب بأجله المكتوب. والذي يتطلع إلى الأفق الأعلى والحياة الأكبر، إنما يحيا حياة الإنسان الذي كرمه الله واستخلفه وأفرده بهذه الأرض ثم يموت أيضاً في موعده المضروب بأجله المكتوب.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[2].

وهكذا يقرر القرآن الكريم حقيقة الموت، وحقيقة الغاية التي ينتهي إليها الأحياء حسب ما يريدونه لأنفسهم من اهتمام قريب بالحياة الدنيا وحدها، أو اهتمام بعيد كالاهتمام بالحياة الآخرة وبذلك ينقل القرآن الكريم النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف وهي لا تملك

---

(١) الموت والحياة حبيب عبد الشهيد الدويري ص ١٥، ١٦ وكذا الموت والخلود في الأديان المختلفة عزت زكي ص ١٦٤، ١٦٥ دار الجيل للطباعة.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي ص ٥٩٥ دار الحديث ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م. سورة آل عمران: الآية ١٤٥.

شيئاً في شأن الموت ـ إلى الانشغال بما هو أنفع للنفس، في الخير وتنال من جزاء الله ما تختار.

وكل نفس معدودة الأنفاس متروكة لأجل تعلمه ـ فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه ـ بينما هو مرسوم محدود في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر وكل نفس موكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر، لا يغفو ولا يهمل فإذا جاءت اللحظة الموعودة وحان الأجل والنفس غافلة مشغولة أدى الحفيظ مهمته.

وهذا التصور كفيل بأن يرتعش له الكيان البشري وهو يحس بالقدر الغيبي يحيط به ويعرف أنه في كل لحظة قد يقبض، وفي كل نفس قد يحين الأجل المحتوم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[1].

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه فبيد الله إعطاء الحياة، وبيده استرداد ما أعطى في الموعد المضروب والأجل المحتوم سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة وعنده الجزاء وعنده العوض عن خبرة وعن علم وعن بصر.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فالموت يصيب المجاهد والقاعد، والشجاع والجبان. ولا يرده الحرص ولا الحذر ولا يؤجله جبن ولا قعود، والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء وهذا الواقع الذي يحجهم به القرآن الكريم ويقر الحق في نصابه ويثبت قلوب المؤمنين ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين.

فالموت حتم في موعده المقدر، ولا علاقة له بالحرب والسلم ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣١٩ سورة الأنعام: الآية ٦١.

يعجله عن موعده هذا أمر وذاك أمر ولا علاقة بينهما إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل، بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد وليست هناك علاقة أخرى.

وبهذه اللمسة يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر، وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر[1].

فالموت نهاية كل حي وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض وإلى الله يرجع الجميع فكل حادث فهو فان وكل ما له بدء فله نهاية، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وإذا كان الرسول ﷺ يموت فهل هم يخلدون وإذا كانوا لا يخلدون فما لهم لا يعملون عمل أهل الموتى؟ وما لهم لا يتبصرون ولا يتدبرون؟

واليوم الآخر ليس منفصلاً عن هذه الحياة الدنيا بل متصل بها ومترتب عليها.

والمؤمن الحق يرى أن رحلة الآخرة بما فيها ما هي إلا امتداد لهذه الحياة الدنيا ولذا نرى الصالحين يفضلون لفظ النقلة على لفظ الموت، فيقولون انتقل إلى جوار ربه، فالانتقال من مكان إلى آخر يفيد استمرار المنقول وحياته.

واتباعاً لهذه العقيدة الإسلامية، تستقيم حياة الإنسان في الأرض فيسمو في أقواله وأفعاله.

فالذين يؤمنون بالآخرة في حياتهم متسع، لأن حياتهم لا تقتصر على الحياة الدنيا، فإذا انتهت حياتهم الدنيا فسوف ينتقلون إلى حياة أخرى، وإن هذه الحياة فيها النعيم وفيها العذاب فيها الشقاء وفيها السعادة، وبين أيديهم البيان والحق والدليل الصادق الذي يرشدهم في أقوالهم وفي أفعالهم، فيقول لهم: هذا الطريق في الدنيا يؤدي إلى الشقاء بعد النقلة، فيتجنبوه أبداً،

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن أحمد فائز ص ٦ وما بعدها مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة عشر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

ويقول لهم: هذاك الطريق يؤدي إلى السعادة والنعيم بعد النقلة، وأن الحياة بعدها أعظم وأوسع وأكثر امتداداً من هذه الحياة. ولذا نرى المؤمنين يعملون لما بعد النقلة، يجهزون أنفسهم ويتزودون بالمزاد، ويعدون الرحال ليوم السفر، يقيسون أقوالهم وأفعالهم على مقاييس ما بعد النقلة.

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فحياتهم قصيرة معدودة اللحظات وعقولهم ضالة فاسدة، يعتقدون أن الحياة تنتهي بالموت، وأن الموت فناء وعدم فقالوا:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

لذا كانت حياتهم قصيرة لا قيمة لها.

وإنكار الذين لا يؤمنون بالآخرة ناشيء من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره، فحكمة الله ألا تترك الناس سدى، يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم المسيء، ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته..

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[2].

فكل من يدرك الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية وعد الله وخبره ولكن الذين لا يؤمنون محجوبون عن تلك الحكمة[3].

إن الذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش في عذاب نفسي لا أمل له ولا رجاء ولا عدل ولا جزاء، ولا عوض عما يلقاه في الحياة وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الآخرة، وثوابها للمحسن وعقابها للمسيء، وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه في ذلك العالم الآخر، الذي لا تضيع فيه صغيرة ولا كبيرة. والذي

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٣٧.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣.

(٣) اليوم الآخر في ظلال القرآن، أحمد فائز ص ٢٩ مؤسسة الرسالة الطبعة السادسة عشر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

يحرم هذه النافذة المضيئة الندية المريحة يعيش ولا ريب في العذاب كما يعيش في الضلال. يعيش فيهما وهو حي على هذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الآخرة جزاء على هذا العذاب الذي لقيه في دنياه.

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبها الله لمن يستحقها من عباده بإخلاص القلب، وتحري الحق، والرغبة في الهدى.

ولكن ما هو المراد بالإيمان باليوم الآخر؟

نقول إن المراد بهذا الإيمان أن تؤمن بأنك ميت مهما طال الأجل وأن الموت حق، وأن البعث حق، وأن الحشر حق، وأن الحساب حق، وأن الجنة حق، وأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك، محصي، يحصي عليك كل أعمالك يحاسبك على كل ما قدمت يداك في هذه الحياة الدنيا فإما الجنة وإما النار.

إن الإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان بالله وفق التصور الإسلامي فالمصير إليه في كل عمل. فلا ملجأ من الله إلا إليه، ولا عاصم من قدره.

والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء، وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى، ولا فوضى بغير ميزان. وبأن الخير لا يعدم جزاءه، ولو بدا أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء[1].

واليوم الآخر، هو يوم الحقيقة الكاملة يوم يكشف فيه الحق سبحانه وتعالى الحقائق المستورة، فلا أسرار ولا غيب، ولا ستور، الجميع قد ذاق الموت، فعلم علم اليقين أن الموت حق وشاهد عذاب القبر ونعيمه، فعلم علم اليقين أنه حق، ثم يبعث الله من في القبور، فيعلم الذين كفروا أن البعث حق، فلقد كشف الحق سبحانه وتعالى سر الحقيقة فيه ثم يحشرون

---

(١) عندما تقوم الساعة، مصطفى اللمعي ص ٣، ٤، ٥ الناشر المختار الإسلامي وكذا اليوم الآخر في ظلال القرآن أحمد فائز ص ٢٠، ٢١، ٢٢، مؤسسة الرسالة الطبعة السادسة عشر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

إليه سبحانه وتعالى فيقفون بين يديه عز وجل للعرض والحساب وهم يرون النار رأي العين.

ثم يقضى الحق عز وجل بينهم بحكمه، وهو الحكم العدل، فيحاسب كل امرىء بما قدمت يداه في الحياة الدنيا ثم يجازي كلاً منهم على ما عمله فمن آمن وعمل صالحاً فله الجنة خالداً فيها أبداً وأما من كفر، وعمل السيئات، فله جهنم خالداً فيها.

وميعاد هذا اليوم من الأسرار التي احتفظ بها الحق سبحانه وتعالى وينعى القرآن الكريم على الذي لا يؤمنون بالآخرة ويصور جهلهم وإفكهم، فيقول تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

فإن القرآن الكريم ينقل البشر إلى آفاق العالم الآخر في أروع صورة من صور تاريخ الإنسانية، وكما لم يتصور خيال البشرية كلها منذ أن بنت في ضمير الحياة القديمة حتى أظل البشرية الإسلام ولعل عرض مشاهد القيامة يبين مدى هذه الفقرة التي رفع العرب إليها الإسلام، فإذا هم يؤمنون باليوم الآخر وبالجنة والنار والنعيم والعذاب والعدالة المطلقة ورحمة الله الواسعة في صورة أكمل وأنقى من كل تصور سابق في تاريخ الإنسانية الطويل وسيأتي ذلك بتفصيل إن شاء الله أما إذا أردنا أن نتحدث عن أهمية الآخرة في التصور الإسلامي فنجد أن قضية البعث قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية، قاعدة تقوم عليها العقيدة، ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة.

فالمسلم مطلوب منه أن يتمسك بالحق ليدحض به الباطل وأن ينهض بالخير ليقضي على الشر وأن يجعل نشاطه وعمله كله في الأرض عبادة لله بأن يجعل هذا العمل كله لله ولا بد من جزاء للعمل، وهذا الجزاء قد لا

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

يتم في الدنيا فيؤجل للحساب الختامي «في الآخرة» فلا بد إذن من عالم آخر ولا بد إذن من بعث للحساب في العالم الآخر.

وحين ينهار أساس الآخرة في النفس نجد أنه ينهار معه كل تصور لحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها، ولا تستقيم هذه النفس على طريق الإسلام أبداً.

فمما لا شك فيه أن الإيمان بالبعث والحشر، وبالحساب والجزاء، عنصر أصيل في العقيدة لا يستقيم منهجها إلا به. فلا بد من عالم مرتقب، يكمل فيه الجزاء، ويتناسق فيه العمل والأجر ويتعلق به القلب، وتحسب حسابه النفس ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك.

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً عجيباً من قضية البعث واليوم الآخر، على بساطتها وضروريتها.

كان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول الله ﷺ: أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور.. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

ولم تكن معجزة بدء الحياة التي لا تنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة وتستمرىء الجحود والمعصية وتستطرد في الكفر والتكذيب.

ونحن نعلم أن الآخرة غيب ولا يعلم الغيب إلا الله. ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[2].

---

(١) سورة النمل: الآيتان ٦٧، ٦٨.

(٢) سورة النمل: الآيتان ٦٥، ٦٦.

لقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب، لا ينفد إليه علمه، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل، إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب[1].

ونجد أن الذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش في عذاب نفسي لا أمل له ولا رجاء ولا عدل ولا جزاء، ولا عوض عما يلقاه في الحياة ونحن نعلم أن في الحياة مواقف ومصائب وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها والصبر عليها إلا إذا كان نفسه رجاء الآخرة وثوابها ونعيمها للمحسن وعقابها للمسيء. إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبها الله لمن يستحقها من عباده بإخلاص القلب.

والحياة في نظر الذين لا يؤمنون بالآخرة هي هذه الرحلة التي يرونها في الدنيا رأي العين جيل يموت وجيل يحيا. وفي ظاهر الأمر لا تمتد إليهم يد الموت، إنما هي الأيام تمر وتمضي والدهر ينطوي، فإذا هم أموات، فالدهر إذن هو الذي ينهى آجالهم، ويلحق بأجسادهم الموت فيموتون» ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

وهي نظرة سطحية لا تتجاوز المظاهر، ولا تبحث عما وراءها من أسرار. وإلا فمن أين جاءت إليهم الحياة، وإذا جاءت فمن ذا يذهب بها عنهم، والموت لا ينال الأجساد وفق نظام محدود ومعلوم وعدد من الأيام معين، حتى يظنون أن مرور الأيام هو الذي يسلبهم الحياة. فالأطفال يموتون كالشيوخ، والأصحاء يموتون كالمرضى، والأقوياء يموتون كالضعفاء. ولا يصلح الدهر إذن تفسيراً للموت عند من ينظر إلى الأمر نظرة فاحصة، ويحاول أن يعرف وأن يدرك حقيقة الأسباب إنهم يظنون ظناً واهياً، لا يقوم على تدبر ولا يستند إلى علم.

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن أحمد فائز ص ١٣، ١٤ مؤسسة الرسالة.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

وقد كان للتصور الإسلامي للآخرة أثره في الاتجاهات الروحية والسلوكية عند الإنسان، فما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض محدودة ومعدودة. إن الإيمان بالحياة الأخرى نعمة. نعمة يفيضها الإيمان على القلب. نعمة يهبها الله للفرد الفاني، المحدود العمر الواسع الأمل. فالإيمان باليوم الآخر ـ فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق وجزائه الأوفى ـ هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلائها بالحياة لا يقف عند حدود الأرض، إنما يتجاوزها إلى البقاء المطلق، الذي لا يعلم نهايته ومداه إلا الله وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صاعداً إلى جوار الله.

والاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح وقلب المؤمن وعالمه ونفي القلق والسخط والقنوط. إن الحساب الختامي ليس في هذه الدنيا. والجزاء الأعظم ليس في هذه الدنيا إن الحساب الختامي هناك والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب، فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الدنيا أو لم يلق جزاءه ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة فسوف يوفاه بميزان الله. فهناك الآخرة فيها عطاء، وفيها غناء، وفيها عوض عما يفوت.

وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة، وأن يخفف الإحساس الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود.

إن القرآن يلمس القلب البشري لمسة قوية، إذ يدرك أنه مستخلف في ملك أزيل من مالكيه الذين سبقوه وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك. يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

---

(١) سورة يونس: الآية ١٤.

إنها أيام يقضيها الإنسان فيه، ممتحناً بما يكون منه، مبتلى بهذا الملك محاسباً على ما يكسب بعد بقاء فيه قليل. إن هذا التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري فوق أنه يرى الحقيقة فلا تخدعها الخدع يظل يثير فيه يقظة وحساسية وتقوى، هي صمام الأمن له وصمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه.

وهذا هو مفرق الطريق بين التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري بمثل هذه اللمسات القوية، والتصورات التي تخرج الرقابة الإلهية والحساب الأخروي من حسابها فإنه لا يمكن أن يلتقي اثنان أحدها يعيش بالتصور الإسلامي، والآخر يعيش بتلك التصورات القاهرة لا يمكن أن يلتقى في تصوره للحياة، ولا في خلق، ولا في حركة، كما لا يمكن أن يلتقي نظامان إنسانيان يقوم كل منهما على قاعدة من هاتين القاعدتين اللتين لا تلتقيان.

فالاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة، وأن الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة، ومن ثم لا بد أن يلقى جزاءه فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاءه مضمون في العالم الآخر، الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لها.

فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقاً للثواب في الحياة الآخرة فحسب ـ كما يعتقد بعض الناس ـ إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا والحافز على إصلاحها وإنمائها وهكذا ترتبط الدنيا بالآخرة.

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب. بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ماله في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك، وراء هذا الحيز الصغير المحدود. وكل صفة من هذه الصفات ذات قيمة في الحياة الإنسانية. ومن ثم كانت هي صفة من صفات المؤمنين.

واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشري وتطلعه إلى ما عند

الله واستعلائه على كل ما فوق الأرض، وترفعه على متاع الدنيا، ومراقبة الله في السر والعلانية وفي الدقيق والجليل، والوصول إلى درجة الإحسان التي سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[1].

وفي رحلة البشرية، من آدم عليه السلام حتى اليوم الآخر، عبر الرسالات السماوية، وعبر كتب السماء، ورسالات الرسل والأنبياء، معجزات ورسالات الرسل والأنبياء معجزات القدرة الإلهية، وجلال عظمة الخالق الأعظم، وبيان للضعف الإنساني، وتصوير لجلال النفوس المؤمنة التي وقفت مع رسالات السماء، تؤيد الحق، وتنكر الباطل، وتؤمن بالله وباليوم الآخر إيماناً لا يعتريه شك، ولا يدخل عليه وهن.

إن أمر البعث «أعظم وأكبر من أن ينكره المنكرون إنه مطلب الإنسانية مخلصها من الفناء الأبدي بعد هذه الحياة».

إن الناس قد خلقوا وفي كيانهم إيمان بالبعث قبل أن تدعوهم إليه السماء وتخبرهم به بل نجد أن «آدم»: أبا الإنسانية كلها إنما أكل من الشجرة المحرمة، وعصى ربه لينال الخلود وكيف يحيا الناس في هذه الدنيا، وكيف يحتملون ما يحتملون فيها إذا سد في وجههم باب الحياة الأخرى بعد الموت وكيف يفسرون الشر والخير المتماوج في هذه الدنيا وكيف يطوي الموت الأخيار والأشرار، دون أن ينال كل منهم جزاء ما عمل؟

إنه لكي يقوم ميزان العدالة بين الفضائل والرذائل بين الأخيار والأشرار بين الظالمين والمظلومين يجب أن تكون حياة أخرى بعد هذه الحياة، يسوى

---

(١) سورة لقمان: الآيات ١، ٢، ٣، ٤.

فيها الحساب لأن الحياة الدنيا مضطربة الميزان في هذه الأمور، فقد يرتفع الشر ويعلو، وينزل الخير، وقد يرزق الكسول ويحرم العامل فإذا كان هذا هو الحساب «الختامي» لأعمال الناس كان القول بالعدل والحكمة والإحسان ضرباً من العبث لأن الواقع ينقضه ولسان الحال يكذبه.

يقول «ول ديورانت»: هذه المشكلات ـ أي تناقض الحياة ـ في هذه الحياة، لا تدركها العقول، ولا يستطاع الإجابة عنها ـ كما يقول «دانيال» و «اخنوخ» و «كانت» ـ إلا إذا آمن الإنسان بحياة بعد الممات، ترفع فيها كل المظالم، وتصحح فيها كل الأخطاء. يعاقب فيها المسيء، ويثاب المحسن أجزل الثواب»[1].

وقد زكت الأديان السماوية هذا المعتقد، فدعت الناس إلى الإيمان بالبعث وجعلت الإيمان به إيماناً بالله فمن آمن بالله ولم يؤمن بالبعث فقد هدم إيمانه، لأنه أنكر «عدل» الله ومجازاته المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولأنه أيضاً أخلى نفسه من أوامر الله ونواهيه التي هي ضابط الحساب والجزاء.

لهذا قد جعلت الديانات السماوية أمر البعث والإيمان به أماً من أمهات العقيدة الدينية، وأصلاً من أصولها. وإذا تتبعنا الشرائع السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية، والإسلامية نجدهم يؤمنون بالبعث، وبالحياة الآخرة، وبالحساب وبالجنة وبالنار، مع اختلافهم في الصور والتفاصيل، على ما سنرى فيما بعد.

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثاني من المجلد الأول ص ٣٩٣، ٣٩٤.

# الفصل السادس

# ماذا تعني الحياة بالنسبة للمسلم؟

المسلم يركن إلى السماء دائماً في كل أموره وأعماله، وكل حياته.

فمن الله عز وجل يستمد القوة، ويستعد للكفاح، لأداء رسالته في الحياة، والمسلم يوقن إيقاناً صادقاً وجازماً، ويؤمن إيماناً يقينياً من أعماق قلبه.

أن رحلة الحياة التي يقوم بها الإنسان مقسمة إلى أربع مراحل:

المرحلة الأولى: موت في عالم الذر. والمرحلة الثانية: حياة في الدنيا، والمرحلة الثالثة: موت في حياة البرزخ، والمرحلة الرابعة: حياة أبدية حياة خلود إما في الجنة، وإما في النار. وفي يوم القيامة يؤتي بالموت وتقبض روحه أو يذبح كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. فيؤمر به فيذبح. قال ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وأشار

بيده إلى الدنيا[1].

إذاً فهناك نهاية للموت يقول الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾[2].

ومن هنا نعرف أن الموت له نهاية. وأن الحياة هي التي ستبقى خالدة مخلدة وأن الحياة هي الأصيلة في الكون والموت طارىء عليها.

قرر الإسلام وكتابه الحكيم أن الموت يقترب من كل حي، في وقته الذي رسمه الله عز وجل ومن ثم ينتقل الإنسان إلى حياة القبر. ثم تنتهي هذه المرحلة بالبعث. وإذا دققنا النظر لأدركنا أن هذه الفترة الوجيزة لا تقاس بما يتبعها من حياة بعد البعث والنشور ولذلك نجد أن القرآن الكريم يعبر عن هذه الفترة بلفظ الزيارة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾[3].

أي أن الإنسان في القبر ما هو إلا مجرد زائر. وليس مقيماً إقامة دائمة. ومعنى ذلك أن الزيارة مهما طالت سيأتي لها وقت وتنتهي. وهي زيارة ستنتهي بيوم الحشر. والموت يبدأ بالاحتضار. ومعنى ذلك أن حياة الاختيار البشري قد انتهت. فالإنسان في الحياة الدنيا له اختبارات. ولكنه ساعة يحتضر تنتهي فترة الاختيار التي منحها الله له والتي كانت اختباراً وامتحاناً وابتلاءً ويبدأ طور آخر جديد لا اختيار له فيه. يصبح الإنسان في هذه المرحلة مقهوراً. إن الإنسان حين يحتضر.. يعرف يقيناً أنه ميت. لأنه يرى الملائكة. ويرى من كون الله ما كان محجوباً عنه قال تعالى: ﴿لَّقَدْ

---

(١) صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ج ١٧ ص ١٨٤ دار إحياء الكتب العربية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٥٦ ميلادية تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي وكذا فتح الباري لشرح صحيح الإمام البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج ٨ ص ٤٢٨ المطبعة السلفية القاهرة ـ ١٣٨٠هـ.

(٢) سورة الدخان: الآية ٥٦.

(٣) سورة التكاثر: الآيتان ١، ٢.

كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[1] في هذه اللحظات تخمد البشرية وتتحدد المصائر يقيناً إما إلى الجنة أو إلى النار. إما أن يرى الإنسان ملائكة الرحمة. وإما أن يرى ملائكة العذاب، هكذا أخبرنا الله عز وجل في كتابه الحكيم بما يحدث لأهل الجنة حين يحضرهم الموت يقول جل شأنه:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2] إن المؤمنين أصحاب العمل الصالح ساعة الاحتضار يرون ملائكة الرحمة. وتكون أول بشارة لهم بالجنة فتغمرهم الفرحة لأنهم ذاهبون إلى خير مما كانوا فيه. إذا نظرت إلى وجوههم بعد الموت تراها ساكنة مطمئنة لما رأت من وعد الله الذي لا يخلفه.

أما أولئك الذين كفروا وعصوا الله وأشركوا به وحاربوا دينه، فإن لقاءهم مع الموت يختلف وقد أخبرنا بذلك القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾[3]، وقد جاء القرآن الكريم بوصف آخر للكفار في الآية التي تقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[4]، ونفهم من خلال هذه الآيات الكريمة أنه كما يرى المؤمن مصيره ومقعده في الجنة وهو يحتضر كذلك يرى الكافر مصيره ومقعده في النار وهو يحتضر. إن ساعة الاحتضار ـ كما صورها لنا القرآن الكريم ـ تزيل الحجب وترفع الغطاء وتحد البصر، وتكشف كل ما كان غيباً عنا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ

---

(١) سورة ق: الآية ٢٢.

(٢) سورة النحل: الآية ٣٢.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٠.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩٣.

﴿ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[1] في هذه اللحظة تبدأ أول منازل الآخرة[2] فبعد أن تخرج روح الإنسان من جسده إلى حيث أمر الله لها أن تكون ويوضع جثمانه في القبر عندئذ تبدأ محاسبته، وهذه المحاسبة ليست شراً وإنما خيراً لينال كل إنسان جزاءه من خير وشر وذلك لتفضيل الله له في الدنيا عن باقي المخلوقات، يقول الشيخ شلتوت:

«رسم له شرائعه ووهبه قوى العمل وقوى التسلط على ما خلق وأنشأه عاملاً قوياً مفكراً ثم أحاطه بعناية بما ينعم به في حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته، فلا بد إذن في يوم يسأل فيه عن النعيم، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسيء فضل الله وعدله وهو في ذلك اليوم الموعود».

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[3] فالمرء إذا مات إما أن يكون في نعيم أو عذاب، وإن الروح تبقى بعد مفارقة البدن إما منعمة أو معذبة. وإثبات حساب القبر تذكر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[4].

قال أبو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود: ضنكاً قال: عذاب القبر[5].

من ذلك نعم أن الإنسان يظل معذباً أو منعماً في القبر حتى يوم القيامة، لقد صور لنا الحق سبحانه وتعالى ما يحدث لآل فرعون وهم في قبورهم في قوله جل شأنه:

---

(١) سورة الواقعة: الآيات ٨٣، ٨٤، ٨٥.

(٢) الحياة والموت محمد متولي الشعراوي ص ٤٩ وما بعدها مؤسسة أخبار اليوم.

(٣) إلى القرآن للإمام الأكبر محمود شلتوت ص ١٦٥ دار الشروق.

(٤) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٥) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي ص ١٣٩، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ﴾ صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم.

وقال ابن زيد: هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة[2].

قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا[3].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾[4]، عن مجاهد: عذاب القبر، والعذاب الأكبر عذاب الآخرة[5]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[6].

قال ابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم النار[7].

وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر وذكر القرطبي في التذكرة قال: «قال كعب الأحبار: إذا وضع العبد الصالح في

---

(١) سورة غافر: الآية ٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص ٨٢ وكذا نهاية العالم محمد متولي الشعراوي ص ٦٨ وما بعدها مؤسسة أخبار اليوم.

(٣) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي ج ٧ ص ١٦٣.

(٤) سورة السجدة: الآية ٢١.

(٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوب التأويل للزمخشري الخوارزمي ج ٣ ص ٢٤٥ انتشارات اغتاب تهران.

(٦) سورة التوبة: الآية ١٠١.

(٧) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٥.

قبره أحتوشته أعماله الصالحة فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه: فتقول الصلاة: إليكم عنه، فيأتون من قبل رأسه، فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه، فقد أطال ظمأه لله عز وجل في دار الدنيا فيأتون من قبل جسمه، فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه، فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله عز وجل ابتغاء لوجهه، فلا سبيل لكم عليه، قال: فيقال له: نم هنيئاً وطبت حياً، وطبت ميتاً»[1].

وأحاديث الرسول ﷺ كثيرة ومتضافرة في هذا الشأن.

روى عن مسروق عن عائشة قالت: دخلت على عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا لي: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما فخرجتا ودخل علي النبي ﷺ فقلت له: يا رسول الله إن عجوزين وذكرت له فقال صدقتا: إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها، فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[2].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[3].

يقول الإمام الغزالي:

والمؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص ١٤٨ دار المنار للطبع والنشر والتوزيع.

(٢) عمدة القارىء شرح صحيح البخاري ج ٣٣ ص ٤ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ج ٧ ص ٢٠٠، ٢٠١ وكذا إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ج ٤ ص ٤٥١ دار القلم بيروت لبنان.

فتح له باب إلى بستان واسع الأكفاف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلاً فقال لرجل مات: «أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه[1].

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٥٢.

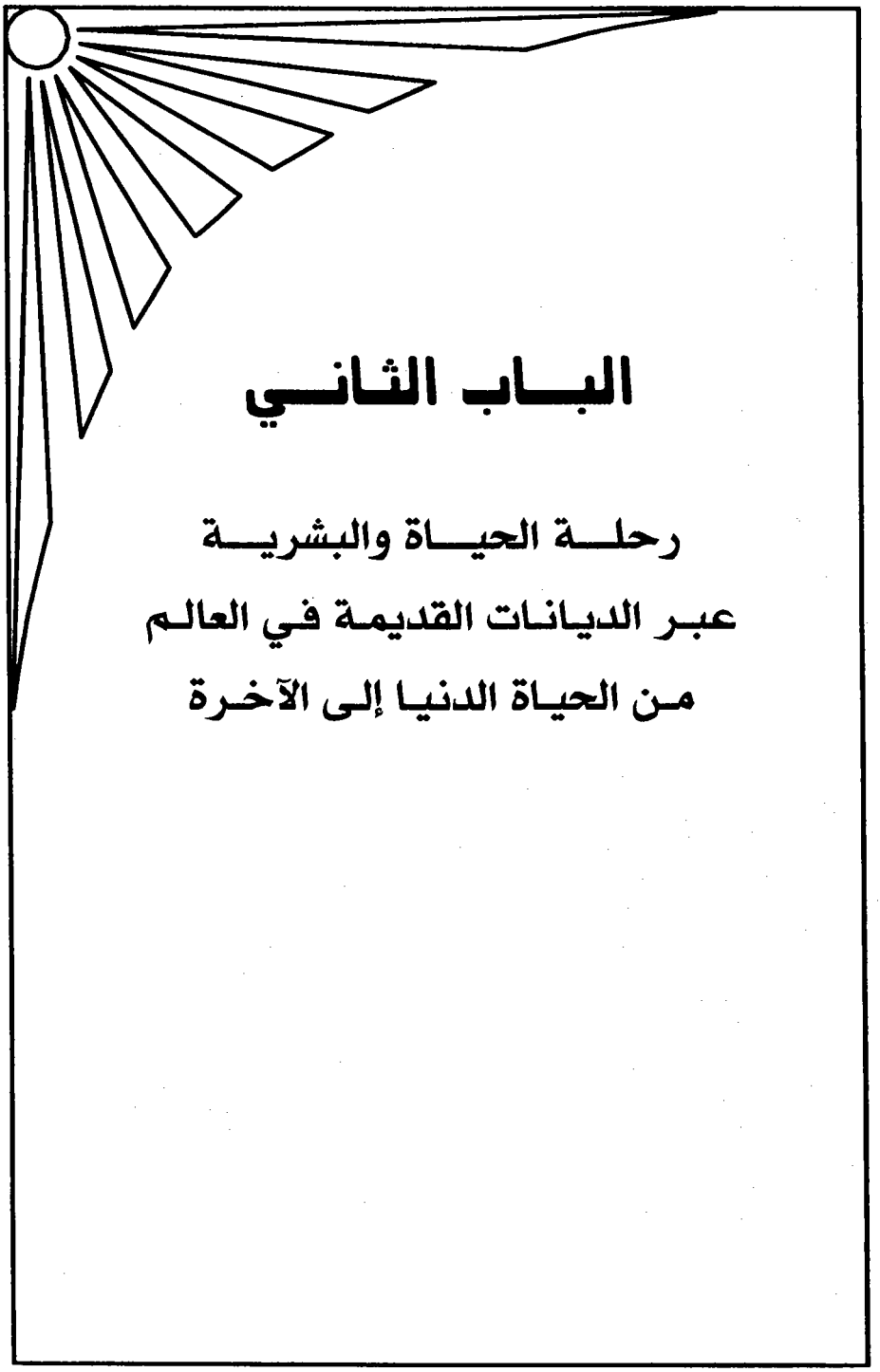

# البـــاب الثانـــي

## رحلـــة الحيـــاة والبشريـــة
## عبـر الديانـات القديمـة فـي العالـم
## مـن الحيـاة الدنيـا إلـى الآخـرة

# الفصل الأول

# الديانة المصرية القديمة

أول ما يلاحظه الدارس لديانات العالم القديم أن أشد الأمم تدينا المصريون القدماء، حتى لقد قال شيخ المؤرخين هيرودوت: «إن المصريين أشد البشر تديناً، ولا يعرف شعب بلغ في التدين درجتهم فيه، فإن صورهم بجملتها تمثل أناساً يصلون أمام إله، وكتبهم في الجملة أسفار عبادة ونسك[1].

وذلك كلام حق ـ فتلك الآثار الباقية التي تحكي لنا حياة المصريين كلها قام على أساس من التدين والاعتقاد لا ريب في أن المصريين اعتقدوا منذ أقدم العصور أن الإنسان روحاً وأن هذا الروح لا يموت بموت الجسم، بل يحيا بعد ذلك حياة أخرى. ولولا انبعاث هذا الاعتقاد في أنفسهم ما قامت تلك الأهرام الضخمة ولا نصبت تلك الأحجار ولا شيدت هاتيك التماثيل الحجرية التي وضعت مع الميت في قبره والتي لا تزال تسترعي الأنظار بجمالها وزخرفها وروعتها وقوة بنيانها ومغالبتها الزمان، وهي قائمة الأركان ثابتة العمد، ينحدر عنها الزمان، ولا يزيدها القدم إلا روعة وبهاء[2].

---

(١) مقارنات الأديان، الديانات القديمة الإمام محمد أبو زهرة ص ٥ دار الفكر العربي.

(٢) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة باشا ص ٥١ مطابع الشعب ١٩٥٧ وكذا مقارنات الأديان، الديانات القديمة الإمام محمد أبو زهرة ص ٥ وكذا الأديان القديمة رؤوف شلبي ص ٢٧٠.

ولولا الاعتقاد الكامن في أنفسهم بأن الإنسان روحاً وإن هذه الروح لا تموت بموت الجسم، بل تحيا بعد ذلك حياة أخرى. ما عنوا هذه العناية الكبيرة ببناء القبور المتينة، وهي لا تزال متماسكة لم تتحلل، ولم تتناثر أشلاؤها.

كما نجد أن المصريين كانوا يقولون إن لكل إنسان شبيهاً به، يولد معه منذ ولادته، ولا يرى، ويسمى «كا»[1] ويبقى هذا الكا لابساً جسمه طوال فترة حياته، فإذا فارقه مات. كما كانوا يقولون بأن لكل آلهة (كا) أيضاً.

وكانوا يرمزون إلى هذا الكا بذراعين مرفوعين لأنه قيل في أساطيرهم أن الإله رع حينما بدأ بخلق الإلهين الأولين «شو» و «تفنيت» وضع ذراعيه خلفهما فمسهما «الكا» الذي فيه، فسرت فيهما الحياة.

ومن أبرز خصائص «الكا» أنه عند اتصاله بالجسم يعطيه الحياة، وأن انفصاله عنه يؤدي به إلى الموت، وأنه لا يموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت في قبره.

وكانوا يعدون هذا نوعاً أولاً من الروح. وكان هناك عندهم نوع ثان كانوا يسمونه (با) وكانوا يعتقدون نفس الاعتقاد في أنه هو أيضاً يفارق الجسم عند الموت ويطير في الجو، ويصعد إلى السماء، كما أنه يمكنه أن يتشكل في أشكال مختلفة وكانوا يجعلون له وجه صاحبه أما الجسم فجسم طائر. وهوأيضاً لا يموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت في قبره.

فقد اعتقد المصريون إذن أن للإنسان نوعين من الروح باقيين بعد موته[2] ومن هنا فإن المصريين لم يجعلوا الإنسان يفنى بموته، بل جعلوا له روحين باقيتين.

---

(١) مصر القديمة سليم حسن عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العهد الاهناسي الجزء الأول ص ٢٢٠، ٢٢١ مطبعة كوثر.

(٢) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥١، ٥٢ وكذا سندباد=

كما نجد أن شدة تدينهم كانت سبباً في أن جعلوا الدين عنصراً قوياً في كل أعمالهم العامة والخاصة، فنجد أن الدين كان مسيطراً حتى في الكتابة في الحاجات الخاصة، وفي أوامر الشرطة، وسلطان الحكم. ولقد تعددت بسبب ذلك الكائنات المقدسة التي يعتبر احترامها من احترامهم آلهتهم، وربما تصل في العلو والسمو إلى مرتبة الآلهة، في التقديس والعبادة[1].

والواقع أن عقائد المصريين كانت تختلف باختلاف الأقاليم نفسها وكانت آلهتهم محلية فكل إقليم كانت له آلهته. فكان موطن أوزيريس في أبيدوس، وقتاح ممفيس وآمون في طيبة، وهو روس في دفو إلخ.. ومكانة الإله تتبع مكانة الإقليم الذي يعبد فيه.

ومن هذا نستطيع أن نقول إن المصريين لم يعرفوا التوحيد الإقليمي بأن يجتمعوا على آلهة واحدة في كل إقليم ويتفقوا عليهم مهما تتباين جهات إقامتهم بل كانت آلهتهم محلية، كل إقليم له آلهة خاصة به.

بيد أنه يجب علينا أن نعتقد أن دعوات إلى التوحيد الخالص بعبادة إله واحد ـ قد تواردت على العقل المصري. وبعيد أن تنفى نفياً تاماً عن المصريين في مدى خمسة آلاف سنة ازدهرت فيها حضارتهم ونمت ـ أن تكون قد وردت عليهم عقيدة التوحيد بدعوة من رسول مبين[2].

والدليل على ذلك فقد ورد في القرآن الكريم ما يفيد أن يوسف عليه السلام قد دعاهم إلى عبادة الواحد القهار فلقد ورد في سورة يوسف ماحكاه

---

= عصرس، جولات في رحاب التاريخ حسن فوزي ص ١٥٣ دار المعارف بمصر الطبعة الثانية.

(١) مصر القديمة في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العهد الاهناسي سليم حسن الجزء الأول ص ٢٤٥، ٢٤٦ مطبعة كوثر.

(٢) مقارنات الأديان الديانات القديمة الإمام محمد أبو زهرة ص ٧، ٨ دار الفكر العربي وكذا على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٩ مطابع الشعب ١٩٥٧.

الله عنه من كلام لصاحبي السجن فقد قال الله تعالى حاكياً عنه:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

من هذا الخبر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نحكم مستيقنين أن دعوة إلى التوحيد قد وردت للمصريين.

ومن هنا يتبين لنا أنه لم يكن المصريون إذن قد خلوا في كل عصورهم من دعوات إلى التوحيد نعلم منها يقيناً دعوة يوسف عليه السلام، وكذلك دعوة موسى عليه السلام كما أن الهكسوس الذين جاءوا إلى مصر، وحكموها سنوات طويلة لا يمكن أن يكون مجيئهم قد خلا من دعوات دينية، وخصوصاً أنه ورد في بعض الآثار أن إبراهيم عليه السلام قد زار مصر، فلا بد أن يكون التوحيد قد كان موضوع دعاية له، وإن لم يكن موضوع إجابة منهم.

كما أن احتكاك المصريين بالآسيويين في الحروب المستمرة لا بد أن يكون هو الآخر قد أطلع الغزاة والفاتحين على ما في آسيا من ديانات وآثار النبيين من شرائع وعقائد وأحكام، وكل ذلك لا بد أن ينال شيئاً من النفس المصرية، وإن لم ينل قلوبهم ويستولي عليهم استيلاء تاماً.

ولعل أروع ما في العقيدة المصرية القديمة[2]، اعتقادهم الحياة الآخرة

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٧ ـ ٤٠.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ١٤ دار الشروق الطبعة العاشرة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

وأنها الباقية بعد هذه الدنيا الفانية، فقد شهدت مصر القديمة أول فجر للينبوع الدافق في ضمير البشرية المستيقظ وأول عقيدة بالحساب بعد الموت على الخير والشر وأول جزاء عادل تلقاه الرذيلة والفضيلة. ومضى أكثر من ألفي عام قبل أن تمتد هذه العقيدة إلى مكان آخر على ظهر هذا الكون المعمور، فقد قام اعتقادهم بالحياة الآخرة على أساسين:

**أحدهما**: أن هذه الدنيا معترك يتنازع فيه الشر والخير والبر والفاجر، وكثيراً ما نجد في هذا المعترك أن الشر ينتصر على الخير، فلو لم يكن هناك يوم كله للخير، وكله على الشر، يحاسب المسيء على إساءته ويكافىء المحسن بإحسانه ما استقام، العدل الإلهي، فمن العدالة الإلهية إذن أن تكون الحياة الآخرة لينتصر فيها الخير وينتصف فيها من الشر[1].

**ثانيهما**: اعتقادهم في النفس الإنسانية فهم يعتقدون وجود نفس تنفصل عن الجسم، وإن كانت تحل فيه، وأن تلك النفس ذات الجسم، وإن كانت تحل فيه، وأن تلك النفس ذات أربع إحداها الروح، وهي أساس القوى في الإنسان، والثانية العقل والإرادة والثالثة مادة أو صورة على هيئة الجسم تماماً، والرابعة الجوهر الخالد السامي الذي يشترك فيه الإنسان مع الآلهة، وهو سر الوجود وهذه الشعبة من شعب النفس متصلة بعالم الآلهة ما دام الإنسان على قيد الحياة، فإذا مات اتصلت به اتصالاً وثيقاً.

فأما الروح فهي التي تظل تتردد على الإنسان في قبره إلى أن يجتاز الحساب ويصل إلى مرتبة الثواب، وعندئذ تعود إليه فيشعر بما يشعر به الأحياء كما أنهم كانوا يعتقدون أن روح الميت في الحياة الآخرة تحتاج إلى ما تحتاج إليه الأحياء في الحياة الدنيا من مأكل ومشرب وملبس، وأن ما يقدم من ذلك في الدنيا قرباناً على أرواح الأموات يفيدهم في الآخرة، ولذلك تكون روح الميت في أشد الألم إذا لم تقدم إليها القرابين من طعام

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٢ وكذا مقارنات الأديان الديانات القديمة الإمام محمد أبو زهرة ص ١٦ وكذا مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ١٤ الطبعة العاشرة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

وشراب، وما إلى ذلك من مطاعم الأحياء في الدنيا.

لهذه المعاني الإنسانية التي وصفوا النفس بها وللعدالة الإلهية التي تسود الأكوان، اعتقد قدماء المصريين أنه لا بد من حياة أخرى فيها النعيم المقيم للأخيار الذين لم يرتكبوا الآثام، ولم يفعلوا الشر هؤلاء الذين يجدهم «أوزير» مبرئين من جميع الذنوب، يسمح لهم بأن يعيشوا مخلدين في «حقل الفيضان السعيد أي الحدائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن والدوام.

إن هذه الحقول الفردوسية لا يمكن الوصول إليها باستدام صاحب «المعبر» وهو شيخ طاعن في السن - هو أوزير - الذي لا يقبل في قاربه إلا الرجال والنساء الذين لم يرتكبوا في حياتهما إثماً[1].

ومعنى هذا الذي يحاسب الموتى، ويزن قلب كل من يريد الركوب في قاربه في كفة ميزان، تقابله في الكفة الأخرى ريشة ليتأكد من صدق قوله والذين ينجحون في هذا الامتحان يدخلون الحدائق السماوية، أما الذين لا ينجحون فيحكم عليهم أن يبقوا أبد الدهر في قبورهم في جوع وفي ظمأ تنبشهم التماسيح البشعة، ولا يخرجون من قبورهم ليروا الشمس[2].

وليس «أوزير» وحده هو الذي يتولى حساب الناس يوم الحساب وإنما حوله محكمة تتألف من اثنين وأربعين قاضياً يرأسها أوزيريس نفسه، وتسأل المحكمة الشخص عما قدم من خير، وما قدمت يداه من شر، وقد وجد الكهنة هنا لهم مدخلاً يدخلون به إلى الناس، فيفتحون لهم أبواب الخلاص في هذا الموقف العظيم، ليستنقذوا كثيراً من الناس، وينقلوهم إلى عالم الخلود.

---

(١) قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الأول ول ديورانت ترجمة محمد بدران ص ١٦٣.

(٢) قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الأول ول ديورانت ترجمة محمد بدران ص ١٦٣.

فليس بالأعمال الصالحة وحدها يدخل الناس حدائق السموات إذ لو صح هذا لبطل عمل الكهنة أو لضاع سلطانهم على قلوب الناس إن هناك طرقاً ماهرة لاجتياز الامتحان أمام «أوزير» وأن لكل إنسان أن يتعلم من هذه الطرق ما شاء نظير أجر معلوم[1].

ومن هذه الطرق أن يهيأ القبر بما يحتاجه الميت لغذائه من طعام وشراب وبمن يستطيع الاستعانة بهم من الخدم بشرط أن يكون ذلك بمعرفة الكاهن وعلى حسب النظام الذي يضعه، والطقوس التي يؤديها وبغير هذا لا يكون للطعام ولا للشراب أثره المطلوب.

ومن تلك أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم والصور التي تحبها الآلهة، من أسماك ونسور، وأفاع وجعارين ـ والجعارين ضرب في الخنافس كانت في رأيهم رمزاً لبعث الروح لأنها تتوالد كما كان يبدو لهم بعملية التلقيح فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب طقوس يؤديها أقامت كل معتد على الميت وقضت على كل شر[2].

وكان خيراً من هذه الطرق كلها أن يحمل الميت معه «كتاب الموتى».

ولعل أقدم أدب وصل إلينا هو أدب المصريين القدماء الذي سجل على الآثار وأوراق البردى وأقدم كتاب مصري انتهى إلينا علمه هو «كتاب الموتى» الذي وجد في أيام الدولة الوسطى والذي دون في عصر بناء الهرم الأكبر، ولا تزال نسخة منه محفوظة في المتحف البريطاني وفيه دعوات للآلهة وأناشيد وصلوات، ثم وصف لما تلاقيه أرواح الموتى في العالم الآخر من حساب، يتبعه عقاب أو ثواب، وكانت توضع نسخة من هذا الكتاب مع جثمان الميت في قبره ليكون دليلاً للروح يهديها في رحلتها إلى العالم الثاني.

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ١٥ دار الشروق الطبعة التاسعة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

(٢) قصة الحضارة ول ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول محمد بدران ص ١٦٣ وكذا مصر القديمة في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العهد الاهناسي سليم حسن الجزء الأول ٢٣٠ مطبعة كوثر.

وكان هذا الكتاب يشتمل على فصول عديدة بعضها في خلق الكون، وبعضها في بيان الأخطار التي يواجهها الميت بعد موته، وبعضها تعاويذ سحرية كان يزعم الذين وضعوها أنها تنفع الميت بعد موته وتنجيه من الأخطار، وبعضها ما يعنينا في موضوعنا هذا وهو محاسبة الميت على أعماله في الدنيا أمام محكمة أوزريس.

وكانوا يجسمون هذه المحاسبة فيضعون لها في كتاب الموتى، وعلى التوابيت، رسم محكمة ومحاكمة وميزان. وفي هذه المحكمة يجلس أوزوريس على عرشه حاملاً عصاه وكرباجه، ومعه اثنان وأربعون قاضياً من الآلهة، ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة إلى اثنين وأربعين إقليماً. فإذا جيء بالميت تسلمه أتوبيس وأخذ قلبه فوضعه في إحدى كفتي ميزان ووضع في الكفة الأخرى تمثال الآلهة ومات آلهة الحقيقة والعدل، أو ريشتها، ثم وقف الإله توت بجانب الميزان وفي يده اليمنى قلم وفي يده اليسرى سجل يدون فيه نتيجة الميزان يرفعها إلى أوزريس.

ويقف بالقرب من توت الوحش «أمابيت» وهو وحش له رأس تمساح وجسم أسد، متأهباً لأن يلتهم الميت الذي يصدر الحكم بإلتهامه. وفي بعض الرسوم تضاف نيران إلى المحكمة في مكان خاص منها، ليلقى فيها المذنبون. والقلب في الميزان يمثل أعمال الميت في حياته وهو الذي يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر[1].

كما أن كتاب الموتى يدلنا على نوع الأعمال التي كان الميت يحاسب عليها أمام أوزريس، كما أن كتاب الموتى يوجد به تضرع من الميت إلى قلبه عندما يؤخذ منه ليوضع في الميزان وهو يقول فيه: «أيها القلب الذي

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٥ مطابع الشعب ١٩٥٧ وكذا مشاهد القيامة في القرآن الكريم سيد قطب ص ١٥، ١٦ الطبعة العاشرة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م دار الشروق وكذا الأديان القديمة في الشرق مع ترجمة لكتاب البوذية رؤوف شلبي ص ٢٧٠ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م وكذا الفلسفة الشرقية محمد غلاب ص ٥٦ القاهرة سنة ١٩٣٨م.

أخذته من أمي، وولدت به، ومشيت معه على الأرض، لا تشهد علي ولا تكن خصمي أمام القوى المقدسة لا تكن ثقيل الوزن ضدي[1].

كما وجد في كتاب الموتى «أيضاً دفاع يدافع به الميت عن نفسه أما قضائه في العالم الثاني.

«السلام عليك أيها الإله الأعظم إله الحق، لقد جئتك يا إلهي خاضعاً لأشهد حلاً لك يا إلهي متحلياً بالحق متخلياً عن الباطل، فلم أظلم أحداً ولم أسلك سبيل الضالين، لم أحنث في يمين، ولم تضلني الشهوة فتمتد عيني لزوجة أحد من رحمي، ولم تمتد يدي لمال غيري، لم أقل كذباً ولم أكن لله عاصياً، ولم أسع في الإيقاع بعبد عنده سيده. إني - يا إلهي - لم أجع أحد ولم أبك أحد، وما قتلت وما غدرت، بل وما كنت محرضاً على قتل، إني لم أسرق من المعابد خبزها ولم أغتصب مالاً حراماً، ولم أنتهك حرمة الأموات، ولم أرتكب الفحشاء ولم أدنس شيئاً مقدساً، إني لم أبع قمحاً بثمن فاحش، ولم أطفف الكيل أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر وما دمت بريئاً من الإثم فاجعلني اللهم من الفائزين»[2].

ومن هذا نرى أن الفكرة الأدبية عند القدماء المصريين ازدهرت بين جدران المعابد، وأن الجزء الأكبر من الأدب عند القدماء المصريين كان قائماً على أساس الدين، فقد رأى رجال الدين أن الشعب لا يتبع التقاليد الدينية إلا إذا امتزجت تعاليمها بنفوس أبنائه امتزاجاً قوياً وهذا لا يتيسر إلا إذا بشر بالدين رجال مثقفون فصحاء يملكون لغة البلاغة ويستولون على أزمة البيان، وإذاً فهم مضطرون قبل كل شيء إلى أن يفسحوا في مدارسهم للأدب أمكنة واسعة وأن ينزلوه بين معارفهم منزلة عالية وقد فعل القدماء المصريين ذلك فكان من نتائج هذه العناية الشديدة الفائقة بالأدب أن ظهر كتاب (الوصايا) «لفتاح حوتب» وزير الملك «إزيس» الذي هو أقدم كتاب في الدنيا.

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٥.

(٢) قصة الأدب في العالم أحمد أمين وزكي نجيب ج ١ ص ٢٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣م.

فقد كان للقدماء المصريين إلى جانب هذا الأدب الديني أدب في تمجيد الملوك، ولم يعدم المصريون القدماء أن يكون لهم أدب شعبي يروي ما يدور بين الناس من قصص وأساطير وحكمة وقانون وهذا ما حواه كتاب «الوصايا» «لفتاح حوتب» ووجد في هذا الكتاب أيضاً كثير من الحكم والنصائح والحث على طلب العلم واعتباره أهم ضروريات الحياة وألزم واجبات الأشخاص من كل الطبقات إلى غير ذلك من وصف حلاوة الشباب ولذة القوة ومرارة الشيخوخة وانكسار النفس في أيامها إلى غير ذلك، مما يجعل من غير الممكن أن يكون كتاب هذا شأنه من منتجات عقول شابة في الأدب أو ناشئة في الأخلاق أو بادئة في الحياة الاجتماعية أو حديثة عهد بالفلسفة[1].

ومن أشهر أساطير المصريين القدماء قصة «أوزريس» و «إيزيس».

ومضمون هذه الأسطورة أن «أوزريس» وهو إله الخصوبة والنماء قد استعان بأخته وزوجته (إيزيس) آلهة الحكمة والوفاء والإخلاص والتشريع وبوزيره «توت» إله العلم والتدبير وغيرهم من الآلهة على تكوين مملكة إلهية عظيمة في مصر.

وكان لهذا الملك الإله أخ وهو (سيت) إله الشر (القحط) فحقد عليه بسبب ما ناله من مكانة وإجلال فدفعه الحقد إلى إيذائه فغدر به، ولما كان لا يستطيع مجابهته وجهاً لوجه خوفاً منه فقد أخذه على غفلة وأدخله في التابوت ثم أقفله عليه وقذف به في النيل فحمله التيار إلى المصب وسلمه إلى البحر الأبيض، وفي أثناء ذلك بحثت عنه زوجته «إيزيس» فلم تجده فأدركت ما حدث له فعقدت العزم على البحث عنه حتى تعيده إلى الحياة وإلا لحقت به، وظلت «إيزيس» تبحث عنه وقرأت عليه بعضاً من التعاويذ والرقى السحرية حتى غرت علي وأعادته إلى الدلتا وقبل أن تتمكن «إيزيس» من فتح التابوت فاجأها (سيت) وتغلب عليها بقوته ثم مزق جسم أخيه

---

(١) قصة الأدب في العالم أحمد أمين وزكي نجيب ج ١ ص ٢٢، ٢٣ وكذا الفلسفة الشرقية محمد غلاب ص ٥٧ القاهرة ١٩٣٨م.

«أوزريس» قطعاً عددها اثنان وسبعون قطعة بعدد مقاطعات مصر آن ذلك، ولكن مع ذلك لم تستيئس زوجته بل ألقى الوفاء في قلبها شجاعة لا يأس معها وبجد ودأب أخذت في جمع هذه القطع المتناثرة حتى استكملتها ووضعت كل واحد منها في مكانه الطبيعي، ثم قرأت عليه بعض الرقى والتعاويذ السحرية فعاد إلى الحياة ولكنها لا تشبه الحياة الأولى فلم يلبث على الأرض إلا قليل ثم غادرها واستبدلها بمملكة الأموات ثم أصبحت مهمته محاسبة أهل الدنا ووزن أعمالهم واصدار الأمر لهم أو عليهم بالنعيم أو بالجحيم، وقد استخلف على مملكة الدنيا من بعده ابنه (حورس) فلما تولى (حورس) الملك جمع أنصاره لحرب (سيت) وظل يقاتله حتى هزمه هزيمة كبرى وكاد أن يقضي عليه ولكن «إيزيس» لم ترض من ولدها إبادة عمه «سيت» لأنها رأت أن الشر ضروري للخير، والظلام لازم للنور، ولكن «سيت» عاد إلى المشاجرة مع (حورس) فأعلن أنه ليس ابن «أوزريس» لأن «أوزريس» قد مات منذ زمن بعيد وعلى ذلك فإنه الوريث الشرعي الوحيد لعرش أخيه في المملكة الإلهية.

وقد رفع بهذه الدعوى قضية أمام محكمة الآلهة فتهب «إيزيس» مدافعة عن شرفها و (حورس) يثبت بنوته من (أوزريس) ثم استشهدت الزوجة والابن بالإله اللبق «توت» فشهد بشرف «إيزيس» وبشرعية الابن فقضت المحكمة بالعرش المقدس (لحورس) الإله الشاب[1].

ومع هذا الخيال الجامع لدى المصريين القدماء فلا يفوتنا أن في هذه الأسطورة دليل واضح على وجود القانون والأنظمة الشرعية وأنها كانت سائدة في مصر سيادة كاملة حتى في عهود ما قبل التاريخ وهذا برهان على

---

(١) مقارنات الأديان الديانات القديمة للإمام محمد أبو زهرة ص ١٠، ١١ دار الفكر العربي وكذا مقارنات الأديان في الديانة القديمة ثريا المرغني ص ٤٣، ٤٤، ٤٥ ـ ١٩٩٢م، وكذا مصر القديمة سليم حسن ج ١ ص ١٩١ ـ ١٩٤ مطبعة كوثر وكذا الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون ـ أورسبيل ترجمة محمدي يوسف موسى ص ٦٢ دار المعارف بمصر.

رقي الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية في مصر.

وكان أصحاب الطقوس الدينية وكهنة المعابد يبعثون هذه المعاني عند الخاصة والفلاسفة والمثقفين، وإن لم يفهمها العامة، ولذلك أقبل على هذه الديانة الطبقة الراقية المثقفة من اليونانيين والرومانيين، فكانوا يشعرون بالطمأنينة لعقيدة الحياة الأخرى والعمل الصالح.

ومن قصص المصريين المشهورة قصة «رمسنيت واللص» ولهم قصص أخرى كثيرة من هذا القبيل، كقصة خوفو والسحرة والبحار الغريق والأمير الهالك.

ثم كان لهم نوع آخر من الأدب وهو أدب الحكم والمواعظ، منها ما هو أدب للنفس ومنها ما هو أدب للمجتمع، ومنها ما هو أدب سياسي ومنها ما هو أدب ديني ومن المواعظ السياسية موعظة «خيتي الثالث» لابنه «خيتي» وكانت نصائحه إبان ثورة شعبية على نظام الحكم وهي موعظة طويلة ختمها بقوله:

«ليس لأحد أن يظلم، فسوف يحاسب كل إنسان على عمله، ولا تغتر بطول العمر في حياة الإنسان في هذه الدنيا إلا لمحة، ومبعث الإنسان حين وصوله إلى الشاطىء الثاني «في الحياة الأخرى» وكل نفس بما كسبت رهينة، وهناك الأبدية لا شك فيها، وويل لمن يحتقرها، وطوبى لمن إليها وليس له ذنب إنه يحيا كما يحيى الآلهة.

إن الناس عبيد الله، وهو يهديهم سواء السبيل خلقهم منه، وعلى صورته وخلق لهم ما في الأرض جميعاً، وهو يسمع بكاءهم وشكواهم، وقد جعل لهم رؤساء أوصياء عليهم يأخذون بيد الضعفاء منهم[1].

كما كان لقدماء المصريين الأناشيد الدينية والأغاني الشعبية.

---

(١) قصة الأدب في العالم أحمد أمين وزكي نجيب محمود الجزء الأول في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى ج ١ ص ٢٩٠، ٣٠ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣م.

وهذا نموذج من أناشيد قدماء المصريين، يعبر فيه الشاعر عن حيرته أمام الحياة المصير في عبثية واضحة أمام الحياة، وغبطة تامة أمام الموت:

ما التكاثر في الأرض والنهاية القبر؟!

تشبه بالحي الأبدي العادل

الذي لا يظلم أحداً

السلام الذي لا يحب تعكير الصفاء أبدا

إليه يرجع الناس كلهم

إذا خلق الإنسان ودعى إلى سبل الرشاد

ووعظ بأن يكون سليماً معافى

يعمل الخير، ويذكر الموت.

حتى إذا جاء أجله استقبل القبر جدلان مغتبطاً أيها الكاهن: إن الموت الذي تتحدثون عنه ليس إلا الاتحاد بأرباب الأبدية[1].

هذا الشعر الزاهد، أو ما كانوا يسمونه الأدب الاعتباري، جاء في شكل هواجس يطلقها الشاعر تحت تأثير الجو الديني الضاغط، وما كان الكهنة يثيرونه في نفوس الناس من رعب وخوف من هول المصير، ولعنة الآلهة التي تصب على رؤوس الخطاة، ومن هنا كان من الطبيعي أن الأمة التي يصل فيها الدين والأدب إلى هذه المرتبة الرفيعة تسمو فيها الحالة الاجتماعية سمواً عظيماً يتبعه تقدم في جميع نواحي الحياة، لأن الأمة تبرع في المخترعات وتبرع في الفنون بمقدار حاجاتها إليها وهذه الحاجة تتعدد تبعاً لتقدم المدنية التي هي أولى مظاهر السمو الاجتماعي. وإذاً فالدين يتطلب سمو الأدب والأدب عامل أساسي في الرقي الاجتماعي والمدنية أولى مظاهر هذا الرقي والحاجة إلى الاختراع والفن طليعة نتائج تلك

---

(١) قصة الأدب في العالم أحمد أمين وزكي نجيب محمود الجزء الأول في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى ج ١ ص ٣٤ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣م.

المدنية. وهذه هي الدرجات التي صعدت عليها الدولة المصرية القديمة حتى وصلت إلى قمة سلم الحياة العالية فارتقت فيها الفنون الجميلة على اختلاف ألوانها حتى وصلت إلى درجة حيرت كبار الفنانين في العصر الحديث.

والواقع أن نشأة المدنية المصرية التي قوامها العلم والأدب والعدل والإدارة الحسنة في نظام الحكام، يرجع إلى أصل ديني، أو اجتهاد المصري أن يعزوه إلى أصل ديني، وذلك لأن الدين كان متغلغلاً في كل مرافق حياته[١].

قول ول ديوارنت: «لقد كان الدين في مصر من فوق كل شيء ومن أسفل منه، فنحن نراه فيها في كل مرحلة من مراحله وفي كل شكل من أشكاله.. ونرى أثره في الأدب وفي نظام الحكم وفي الفن، بل هو أيضاً غزير موفور[٢].

هذا وقد ظلت الآداب المصرية تنمو وتنضج وترتقي وتعمل عملها في النفوس نحو أربعين قرناً وكانت علاقة قدماء المصريين بغيرهم علاقة قوية، إما بالحروب والفتوح للأمم المجاورة وإما بواسطة التجارة الواردة والصادرة، وإما البعوث ترد إلى مصر لدراسة حضارتها وعلومها وفنونها ودينها، ومن بعثوا كانوا ينقلون ذلك إلى بلادهم، كل هذا جعل آدابهم تؤثر - كعلومهم وفنونهم - في الأمم حولهم إما من طريق مباشر كتأثر العبرانيين واليونانيين بالمصريين، أو غير مباشر كتأثر الأداب الأخرى بالعبرية المتأثرة بالمصرية أو تأثر الرومانيين باليونانيين المتأثرين بالمصريين[٣].

وفي كتاب الموتى هذا، دفاع بارع يلقيه الميت أمام «أوزير» في موقف الحساب وفي هذا الدفاع يتخاشع «لأوزير» وللمحلقين الحافين به، حتى ينال

---

(١) مصر القديمة سليم حسن الجزء الأول في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العهد الاهناسي ج ١ ص ٢٤٥ مطبعة كوثر.

(٢) قصة الحضارة ول دويرانت الجزء الثاني من المجلد الأول الشرق الأدنى ترجمة محمد بدران ص ١٥٥ الإدارة الثقافية ص ١١٩ جامعة الدول العربية.

(٣) الفلسفة الشرقية محمد غلاب ص ٥٩ القاهرة ١٩٣٨م.

عطفهم ويكسب القضية أمامهم، فإذا هو بريء وإذا هو في قراديس السماء.

يقول ول ديورانت: فإذا ما وصلت روح الميت إلى أوزير بعد أن تجتاز العدد الكبير من الصعاب والأخطار، خاطبت القاضي الأكبر بما يشبه هذه الأقوال:

أيا من يعجل سير جناح الزمان،
يا من يسكن في كل قضايا الحياة،
يا من يحصى كل كلمة أنطق بها،
انظر إنك تستحي مني، وأنا ولدك،
وقلبك مفعم بالحزن والخجل،
لأني ارتكبت في العالم الذنوب ما يفعم القلب حزناً،
وقد تماديت في شروري واعتدائي
ألا فسالمني، ألا فسالمني،
وحطم الحواجز القائمة بينك وبيني!
ومر بأن تمحى كل ذنوبي وتسقط
نسبة عن يمينك وشمالك!
أجل امح كل شروري
وأمر العار الذي يملأ قلبي
حتى تكون أنت وأنا من هذه اللحظة في سلام[1].

لقد أفسد الكهنة بعملهم هذا عقيدة كان من شأنها أن تسلك بالناس مسالك الهدى، وأن تحول بينهم وبين الشر قولاً وعملاً لو أنهم تركوا

(١) قصة الحضارة رول ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول الشرق الأدنى محمد بدران ص ١٦٤.

لشأنهم يلقون جزاء ما عملوا أمام «أوزير».

ولكن تدخل الكهنة على تلك الصورة يسر للناس طريق الخلاص، وفتح لهم أبواب النجاة في الآخرة بغير عمل متى أرضوا الكهنة، واشتروا كتب الموتى إن هذا أشبه بصكوك «الغفران» التي كان يقدمها «البابوات» للآثمين في العصور الوسطى ويضمنون لهم بها رضا السماء، وغفران الرب، والحق أن «الدفاع» الذي كان يحمله الميت معه بتوصية من الكهنة، هو دفاع مجيد مؤثر، ولكنه يقوم على خداع الآلهة ببراعة الأسلوب وخلابة اللفظ، أكثر مما يقوم على صدق الأدلة وصحة «الوقائع»[1]. استمع إلى هذا الدفاع مثلاً:

سلام عليك أيها الإله العظيم

رب الصدق والعدالة

لقد وقفت أمامك يا رب وجيء بي، لكي أشاهد ما لديك من جمال!

أحمل إليك الصدق!؟

إني لم أظلم الناس.. لم أظلم الفقراء

لم أفرض على رجل حر عملاً أكثر مما فرضه هو على نفسه

لم أهمل ولم أرتكب ما تبغضه الآلهة.

ولم أكن سبباً في أن يسيء العبد معاملة عبده

ولم أمت إنساناً من الجوع

ولم أبك أحداً.. ولم أقتل إنساناً.

ولم أخن أحداً!

ولم أنقص شيئاً من مؤونة الهيكل!! ولم أتلف خبز الآلهة

---

(١) مقارنات الأديان القديمة للإمام محمد أبو زهرة ص ١٨ دار الفكر العربي.

ولم أرتكب عملاً شهوانياً داخل أسوار المعبد المقدسة.

ولم أكفر بالآلهة، ولم أغش في الميزان..

ولم أنتزع اللبن من أفواه الرضع

ولم أصدم بالشباك طيور الآلهة

أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر[1].

إن هذه المعاني الجليلة التي تضمنها هذا الدفاع، كان جديراً بها أن تقيم الناس في الحياة على أقوم طرق الحق والخير، كان ذلك شأنها لو أنها كانت سلوكاً، ولم تكن مجرد أقوال مقدسة، تخدع الآلهة، وتخلب عقولهم.

وننتقل بعد ذلك إلى البحث في هل وقف المصريون في اعتقادهم عند هذا الحد أم مضوا إلي نتيجته الضرورية فرتبوا على بقاء الروح حياة أخرى بحياة الإنسان بعد موته؟ وفيها يحاسب على أعماله في دنياه، فيثاب على الحسنات ويعاقب على السيئات.

فيثبت الأستاذ عبد القادر حمزة باشا في كتابه العظيم على هامش التاريخ المصري القديم «نص قصة مصرية قديمة وجدت في ورقة بردى عثر عليها المصر لوجي جريفث في المتحف البريطاني تصف رحلة إلى هذا العالم الآخر قام بها فتى اسمه «سينوزيرس» مع أبيه «سانتي» ليطلعه على طريقة الحساب وطريقة الجزاء وطريقة العقاب في هذا العالم الآخر في تاريخ الآداب والأديان ـ ونحن ننقل هذه القصة لما فيها دلالة على أن الخير والشر والحساب والجزاء لا علاقة لها بالغنى والفقر وسائر مظاهر الحياة.

«تطلع» «سانتي» ذات يوم من أعلى داره فرأى جنازة رجل غني تسير من ممفيس إلى الجبل في موكب حافل بالنادبات والمشيعين ومظاهر التكريم

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ـ الشرق الأدنى محمد بدران ص ١٦٤، ١٦٥.

ثم رأى في الوقت نفسه جنازة رجل فقير مدرج في حصيره، ولا موكب معه ولا مشيعين فالتفت إلى ولده وقال: إنه يرجو أن يكون له في الدار الآخرة مصير كمصير ذلك الغني لا كمصير هذا الفقير، فقال «سنوزيريس»: إنه بالعكس يرجو له مثل مصير الفقير لا مثل مصير الغني. فامتعض الوالد ولحظ الولد ذلك، فأخذ بيد أبيه ليريه مصير الاثنين، ثم قرأ صيغاً سحرية، وذهب بأبيه إلى مكان في جبل ممفيس، فنزل به إلى الدار التي يحاسب فيها الأموات وتسمى هذه الدار «الجحيم» فإذا هما بسبع قاعات واسعة مملوءة بالناس من جميع الطبقات فاجتازا ثلاثاً من هذه الدور، ثم دخلا الرابعة، فإذا ناس يذهبون ويجيئون بينما حمير تأكل من خلفهم، ثم ناس غيرهم يثبون إلى طعام معلق فوق رؤوسهم فلا يدركون، فيثبون ويثبون، بينما حفارون يحفرون تحت أقدامهم ليزيدوا مسافة ما بينهم وبينه.

ثم دخلا القاعة السادسة فوجدا أرواحاً من الأبرار لكل منها مكان تقيم فيه، بينما في الباب أرواح متهمة، فهي واقفة تتضرع.

ثم رأى رجلاً منطرحاً تحت الباب على ظهره، ومحور هذا الباب مركز في عينه اليمنى يدور عليها كلما فتح أو أقفل، وهو لا ينفك يفتح ويقفل، والرجل لا ينفك يصيح من الألم. ثم دخل القاعة السابعة فوجد آلهة الحساب جالسين والمنادين ينادون قضايا الأموات واحدة بعد أخرى، والإله الكبير «أوزريس» جالس على عرش من الذهب متوج بالتاج ذي الريشتين، بينما الإله «أنوبيس» واقف إلى يساره والإله «توت» إلى يمينه، والآلهة الآخرون الذين يتألف منهم مجلس دار الحساب واقفون يميناً ويساراً والميزان منصوب يزن السيئات والحسنات، فمن رجحت سيئاته حسناته ألقى إلى الوحش «إمابيت» يفترسه، ومن رجحت حسناته سيئاته قيد حيث الآلهة، وصعدت روحه إلى السماء، أما من تعادلت حسناته وسيئاته، فلا يفترسه الوحش ولا ينضم إلى الآلهة بل يعين للخدمة.

ونظر سانتي فرأى على مقربة من «أوزريس» رجلاً حسن البزة مرفوع المنزلة فالتفت إلى أبيه وقال: «أترى هذا الجالس بجانب أوزريس؟ إنه

الفقير الذي شاهدته مدرجاً في حصير، وليس في جنازته أحد من المشيعين لقد جيء به إلى هنا ثم وزنت سيئاته وحسناته فرجحت الثانية الأولى. وكان الإله «توت» قد سجل له في سجله أنه لم يتمتع على الأرض بسعادة كافية فأمر «أوزريس» أن يعطي كل ما كان مجهزاً به ذلك الغني الذي رأيت جنازته مشيعة بمظاهر التكريم، وأن ترفع منزلته بين الآلهة أما الغني فقد وزنت سيئاته وحسناته فوجدت الأولى ترجح الثانية فقيد إلى الجزاء، وهو الذي رأيت محور الباب يدور على عينه اليمنى وسمعته يصيح من الألم..[1].

ولهذه القصة قيمتها الكبيرة في الكشف عن تصورات المصريين القدماء للعالم الآخر، ومدى تقديرهم للعدالة في هذا العالم، والدقة في الجزاء الذي يناله الأفراد دون النظر إلى مظاهرهم في الدنيا من مال أو جاه.

ولكي نستكمل تصور المصريين للحساب، نذكر هنا نصاً من كتاب الموتى يصور معنى الخير والشر اللذين يكون عليهما الجزاء، وهو ملخص عمله «موري» وترجمة المرحوم الأستاذ عبد القادر حمزة. والخطاب موجه إلى أوزريس من أحد الموتى للدفاع عن نفسه وهو دفاع فيه معان سامية من معاني الأخلاق الفاضلة المتأثرة بعقيدة الحساب بعد الموت، وفي هذا الدفاع يقول الميت كلمات تقديس يوجهها إلى أوزريس والقضاة الذين معه:

«لقد جئت إليك أجلب الحقيقة وأطرد الخطيئة»

إنني لم أقارف الشر، ولم أعتد ولم أسرق، ولم أقتل غدراً، ولم أمس القرابين، ولم أكذب، ولم أسل دموع أحد، ولم أتدنس، ولم أذبح الحيوانات المقدسة، ولم أتلف أرضاً مزروعة ولم أقذف، ولم أترك الغضب يخرجني إلى غير الحق، ولم أزن، ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل، ولم أسيء إلى عبد ولم أحلف كاذباً، ولم أرد الماء إلا حين الحاجة إليه ولم

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٢، ٥٣ مطابع الشعب ١٩٥٧م.

أسد قناة ري على غيري، ولم أطفىء ناراً يجب أن تشعل، ولم يخطر على بالي أن أستخف بالآلهة إنني طاهر طاهر[1].

أما تصور المصريين للنعيم والعذاب، فقد عرضت جانباً منه فيما مضى، وأزيد هنا أنه كانت هناك صور للنعيم والعذاب غير الصور التي عرضتها.

لعل أقدم صورة إنسانية للجنة ونعيمها تلك الصورة التي نراها في الديانة المصرية القديمة لأنها تسبق كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الأمم الأخرى بما لا يقل عن ألف سنة، «فقد كان البابليون والإسرائيليون» في الوقت الذي اهتدى فيه المصريون إلى عقيدة الثواب والعقاب ـ كانوا ينزلون جميع الأموات في مكان مظلم لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساءوا[2].

ولا شك في أن هذا السبق الذي كان من قدماء المصريين في هذا الشأن، هو سبق له أثره الكبير في الدلالة على تفردهم في هذه الفترة المتقدمة في الزمن بنوع من السمو في منازع التفكير، وفي مناهج السلوك، لم يكن لأرقى الشعوب المعاصرة أن تصل إليه.

وشتان بين من يسوي بين الأخيار والأشرار، وبين المحسنين والمسيئين أو بين من لا يرى إحساناً ولا إساءة، ولا خيراً ولا شراً وبين من يجعل للخير مكانه وللشر موضعه، وللأخيار حساباً، وللأشرار حساباً، إن ذلك هو فارق ما بين الإنسان العاقل الرشيد والإنسان الغر الغربي، الذي تختلط عنده الأشياء لا يميز بين غث وسمين ومن هنا نستطيع أن نقول: إن الجنة التي صورتها الديانة المصرية القديمة، هي دار الجزاء الحسن لمن

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٦ مطابع الشعب ١٩٥٧م، وكذا الديانات القديمة للإمام محمد أبو زهرة ص ١٨/١٩/٢٠.

(٢) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٨ وكذا قصة الحضارة ول ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ـ الشرق الأدنى ترجمة محمد بدران ص ٤٢٨.

عملوا الصالحات في الدنيا، ولم يسيئوا إلى الناس بالقول أو بالعمل فإذا ماتوا عرضوا على «أوزريس» الذي يجلس بين الآلهة للفصل في قضايا الأموات فمن رجحت سيئاته على حسناته ألقى به إلى الوحش «أما بيت» ليفترس ومن رجحت حسناته على سيئاته أخذ به إلى حيث الآلهة، وصعدت روحه إلى السماء وأما من تعادلت حسناته وسيئاته فلا يفترسه الوحش، ولا ينضم إلى الآلهة، بل يعين للخدمة.

وتقول نصوص الأهرام: «إن الثواب هو الصعود إلى السماء بعد رحلة جمة المخاطر، للإقامة فيها مع الآلهة أو للإقامة مع الإله (رع) في سفينته وهؤلاء الذين يثابون بالإقامة في السماء يسمون «الممجدين» أو «السعداء»، والمكان الذي يقيمون فيه من السماء هو جانبها الشرقي البحري، لأن المصريين كانوا قد لاحظوا في هذين الجانبين نجوماً ثابتة فأطلقوا عليها اسم النجوم الخالدة وجعلوا عندها مكان النعيم الخالد للذين يصعدون إلى السماء[1].

ولم تكتف نصوص الأهرام بهذا الاجمال في تصوير دار النعيم، بل مضت إلى التفصيل، فذكرت أن الممجدين يقيمون في جزر في السماء فيها حقل يسمى «حقل الطعام» ومن هذا الحقل يتناول الممجدون أطعمة شهية مختلفة تتجدد ولا تنفذ، وهناك حقل آخر يسمى «حقل يارو»[2] وشجرة جميز عالية تسمى (شجرة الحياة) يجلس إليها الآلهة ويأكلون منها، هم والممجدون!

وليس هذا كل ما في النعيم السماوي، بل فيه إلى جانب ذلك أن

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٦ مطابع الشعب ١٩٥٧م وكذا مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ١٩ دار الشروق الطبعة العاشرة ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

(٢) يقول إرمان في ص ٢٥١ من كتابه Lareligion des Eg أن كلمة «يارو» معناها في اللغة المصرية نبات الخيزرات ويرى علماء آخرون أن هذا الحقل يسمى حقل «يالو» نقلاً عن كتاب على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٨.

السماء (نوت) والثعبان الذي يحمي الشمس يعطيان الصاعد إلى السماء حين وصوله إليها ثدييهما ليرضع منهما، فمتى رضع عاد صبياً. وهو يأكل الخبز مع الآلهة ويشرب الخمر وصحته تزداد تحسناً على مر الأيام، فهي اليوم أحسن منها أمس وتكون غداً أحسن منها اليوم[1].

هذا وقد ترك بعض المصريين كتابات عبروا فيها عما يتمنونه من السعادة في الحياة الآخرة وهم في هذا إنما يكشفون عن رغبات عزيزة عليهم، حصلوا عليها في الدنيا وعاجلهم الموت عنها، فتمنوا الالتقاء بها مرة أخرى، أو هي رغبات عز عليهم في الدنيا تحصيلها فضربوا لأنفسهم موعداً للقائها بعد الموت.

«فهذا» «ناخت ـ مين» يقول في لوحة محفوظة في متحف «اللوفر» إنه يتمنى أن يدخل قبره ويخرج منه، وأن يشرب كل يوم من ماء بحيرة كانت له، وأن تطير روحه فوق الأشجار التي زرعها، وأن يستنشق النسيم العليل تحت شجر الجميز الذي زرعه، وأن يكون له فم يتكلم، وأن يصعد إلى السماء وينزل إلى الأرض من غير أن يقف في سبيله عائق، وألا تسجن روحه، وأن يكون من المكرمين الممدوحين وأن يحرث أرضه في حقل «يارو» وأن يصل إلى حقل الطعام، وأن يأتيه الخدم بأنواع الخبز والشراب، وجميع المأكولات التي يأكل منها رب الأبدية، وأن يأكل من اللحم الذي على مائدة الإله الأعظم[2].

وليس أدل على ألف الإنسان لهذه الحياة وحبه لها، وتعلقه بها من هذا الشعور الذي يصحبه إلى الحياة الآخرة مشبعاً بكل ما عرف في حياته من ألوان الحياة، وبكل ما ملكت يداه منها يشرب كل يوم ماء بحيرة كانت له ويشم النسيم العليل تحت شجرة الجميز الذي زرعه ويحرث أرضه في حقل «يارو» في الجنة.

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٨، ٥٩.

(٢) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٨.

إنه مع ما يتمناه من اللحم الطيب الذي يناله من مائدة الإله الأعظم لا يرضى إلا بأن تكون له أرض في الجنة، وأن يحمل بين يديه محراثاً يحرثها به كما يفعل في الدنيا.

وكتب أقارب رجل يسمى «يا ـ هيري» وكان أميراً لمدينة «الكاب» يتمنون له في الحياة الأخرى أن تكون له يد طولى على الخبز والماء والهواء، وأن يتحول كما يريد. إلى عقاء أو قطاة أو باشق، أو ملك الحزين. وأن يتكلم فمه، وتمشي قدماه، وتتحرك يداه.. وأن يكون قلبه قريباً منه وأن يصعد إلى السماء[1].

هذا ونعيم الآخرة في العقيدة المصرية القديمة نعيم أبدي خالد ومن هنا كان استخفاف الفراعنة بالحياة الدنيا إلى جانب الحياة الآخرة التي أعطوها كل ما يملكون من ملكات عقلية، ومواهب نفسية، وقدرات جسدية، فكان هذا الفن الرائع الخالد الذي بزغت شموسه من أيديهم فأقاموا به ـ في مدائن الموتى ـ أعظم ما عرفت الإنسانية من آيات الفن العبقري في العمارة، والنحت، والزخرفة والألوان والطب.

وقد يعجب كثير من الناس ـ وحق لهم أن يعجبوا ـ لهذا السبق العظيم الذي أحرزه الفراعنة في العلم والفن، هذا السبق الذي لم تستطع المدنية الحديثة أن تصل إلى كثير من مخلفاته، والذي لا يزال بعضه سراً محجباً يقف منه العلم الحديث بكل قوته، وسطوته صاغراً مطاطىء الرأس أمام هذا الجلا المحجوب.

ولكن إذا أضيف هذا السبق إلى «الإيمان» الذي ملأ عقول الفراعنة وقلوبهم، الإيمان الوثيق بالحياة الآخرة، وبالخلود الذي يناله الإنسان إذا استقام على الطريق القويم ـ إذا أضيف هذا السبق إلى ذلك الإيمان، لم يكن لنا أن نعجب أن وصل الفراعنة إلى ما وصلوا إليه فإن ذلك يبدو أمراً طبيعياً ونتيجة حتمية.

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٩، مطابع الشعب ١٩٥٧م.

ولعل في هذا شاهداً لا يرد على ما للإيمان من سلطان على الوجود الإنساني ولعل فيه أيضاً تبصرة وذكرى لمن استخفوا بالدين الذي منه يولد الإيمان ومنه يغتذي وفي ظله يحيا.

وإيمان المصريين الفراعنة كان إيماناً عميقاً متمكناً من النفوس، مبسوط السلطان على المشاعر والعقول، وحسبنا شاهداً على هذا أنهم لم يقيموا للحياة الدنيا وزناً إلى جانب الحياة الآخرة التي آمنوا بها، فكان هذا الإيمان هو القوة المحركة لهم في كل اتجاه يتجهون إليه، وفي كل مبتغى يبتغونه.

فهذا ملك من ملوك الأسرة التاسعة اسمه «مري ـ كا ـ رع» يترك وصية رائعة، تحدث عن روح إنساني مفعم بالخير، وتكشف عن نفس قد استعلت على أهوائها وغلبت على شهواتها، وآثرت ما في الآجلة على العاجلة.

يقول في هذه الوصية المشرقة النيرة، لا تغتر بامتداد السنين، فإن حياة الإنسان على الأرض ليست في نظر القضاء المقدسين سوى لحظة قصيرة سنبشر الإنسان حين وصوله إلى الشاطىء الثاني[1] وستكون أعماله مجتمعه بجانبه إنها الأبدية هناك، لا شك فيها، فمجنون من يحتقرها، أما الذي يأتي بغير ذنوب فسيحيا فيها كما تحيا الآلهة.

إن الحياة على الأرض تمضي على عجل، وامتلاك الألوف من الرجال لا يميز مالكهم فمن اتقى وعاش عيشة الفضيلة كان نصيبه الخلود في الحياة الأخرى من جاز الحساب أمام «أوزريس» مضى إلى الحياة الأخرى، أما من تساهل مع نفسه في الحياة فلا مفر له من التدمير[2].

---

(١) الشاطىء الثاني: يراد به الحياة الآخرة، وكان قدماء المصريين ينقلون موتاهم إلى الشاطىء الغربي للنيل حيث تغرب الحياة كما تغرب الشمس ثم تعود فتشرق من جديد.

(٢) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٨ مطابع الشعب ١٩٥٧م.

هذا هو سلطان الشعور الديني عند ملك اجتمعت بين يديه أسباب الحياة كلها، فكيف يكون هذا الشعور عند عامة الناس وعند المحرومين والمكدودين؟

كما نلاحظ أنه لا تختلف الجنة التي عرفها الفراعنة اختلافاً كثيراً عن الجنة التي تحدثت عنها الديانات السماوية، وخاصة ما جاء في القرآن الكريم من أوصاف النعيم الذي يلقاه أهلها.

ولنا أن نسأل هنا: أكانت الديانة الفرعونية تنزع إلى أصل سماوي؟ وهل قام فيها رسول يحمل إليهم دعوة السماء؟

قد يكون... وإن كان ما كشف من تاريخ الفراعنة إلى الآن لم يحدث عن دين سماوي آمنوا به.

وليس لنا ـ والأمر كذلك ـ إلا أن نفترض أن العقيدة الدينية التي آمن بها الفراعنة، والتي صورت فيها الحياة الأخرى ونعيمها على تلك الصورة ـ ليس لنا أن نفترض إلا أن هذه العقيدة وليدة الفطرة السليمة هي التي جاءت الأديان السماوية على سمتها، تحفظ السليم على سلامته وتقوم المعوج منها، وتصلح الفاسد فلا عجب إذن أن تلتقي تصورات الناس المنبعثة عن الفطرة السليمة، مع كلمة السماء وأن يهتدي الناس بفطرتهم إلى الإيمان بالله، وبالبعث، وبالثواب، والعقاب، وأن تكون الصور التي يتصورونها لما تطيب به نفوسهم من نعيم في الآخرة، هي بعض النعيم الذي أعده الله لهم.

إن أهل الجنة يحملون معهم نفوساً بشرية لها رغباتها ومنازعها.. ومن شأن نعيم الجنة أن يشبع ـ في غير ملل ـ هذه الرغبات وتلك المنازع[1].

أما كتاب الموتى فيذكر من مظاهر الثواب أيضاً أن الميت يجلس في قاعة أمام «أوزريس» ويخرج إلى حقل يارو، ويأكل خبزاً وفطائر، ويكون له

---

(١) الأديان القديمة في الشرق مع ترجمة لكتاب البوذية عبد الرؤوف شلبي ص ٢٧١ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

حقل من القمح والشعير يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع، وخدام حوريس يحصدون له هذا الزرع ليأكل منه. وله أن يقيم في حقل يارو أو في حقل الطغام وفيهما يكون ممجداً يزرع ويحصد، وتكون له نساء يتمتع بهن، ويعمل كل ما كان يعمله على الأرض.

هذه بالاجمال هي الصورة أو الصور التي كان المصريون يتصورون بها دار الثواب، أي الجنة.

ويلاحظ أنها تميل في كثير من جوانبها إلى جعل الجنة على مثال السعادة التي يتمناها المصري لنفسه في الدنيا[1].

أما العقاب: فقد تقدم أن من صوره وحشاً له رأس تمساح وجسم أسد يلتهم المذنب، وناراً يلقي المذنب فيها.

وهناك صورة أخرى هي أن يبقى المذنب في قبره فريسة للجوع والعطش محروماً من رؤية الشمس. وفي بعض الأحيان يكون مع القضاة الاثنين والأربعين الذين يجلسون مع أوزريس في محكمته سيوف يضربون بها المذنبين وتدل قصة ساتني وولده التي أشرنا إليها من قبل على أنه كانت توجد صور غير هذه أيضاً للعذاب منها تعذيب الميت تعذيباً دائماً بتركيز محور باب في عينه، وهذا الباب يفتح ويقفل والميت يصيح من الألم كلما فتح أو أقفل. ومنها تعليق طعام فوق رؤوس المعذبين وهؤلاء المعذبون يقفزون ليحاولوا الوصول إليه، فكلما قفزوا بعد الطعام عنهم[2].

ويتضح لنا أن نصوص الأهرام ونصوص كتاب الموتى صريحة في أن النعيم الذي ينعم به المستحقون للثواب في الجنة هو نعيم أبدي خالد.

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٩ وكذا مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ٢٠.

(٢) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٥٩، ٦٠ وكذا مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ٢٠، ٢١.

وهنا يحق لنا أن نسأل سؤال: هل العذاب الذي يعذب به المذنبون خالد أبدي أيضاً؟

والجواب على هذا أن قصة «ساتني» وولده التي سبق أن عرضتها تقول أن الميت يصيح من الألم كلما أقفل الباب أو فتح على عينه. فمن البديهي أن استمرار الموت على إحساسه بالألم يجب أن يفرض معه أن عينه تتجدد بعد كل دورة للباب أو دورات.

واستمرار العذاب مفهوم بسهولة في حالة الميت الذي يأكله ويلتهمه الوحش، والميت الذي يلتهمه الوحش، والميت الذي يقذف في النار، والميت الذي يقتله القضاة بالسيوف.

وأغلب الظن أن العذاب في هذه الحالات يجب أن يكون متجدداً بعد الذي رأيناه في النص على خلود النعيم في الجنة ثم النص على تجدد العذاب في كثير من الحالات.

وهنا نقف لحظة لنشاهد هذا المجهود العظيم الذي بذله المصريون في القول بخلود الروح، وبالثواب والعقاب بعد الموت، فلا يسعنا إلا أن نعترف بأنه مجهود جبار استطاع أن يخطو بالإنسان خطوة واسعة في سبيل تهذيب النفس، ووضع المعاملات والأخلاق على أساس من التقوى والخوف من الله في الوقت الذي كان الإنسان فيه لا يزال قريباً من الحياة الوحشية.

وقد اعترف العلماء الأجانب جميعاً بهذا المجهود الجبار، وكانوا يقدرون فضل مصر فيه.

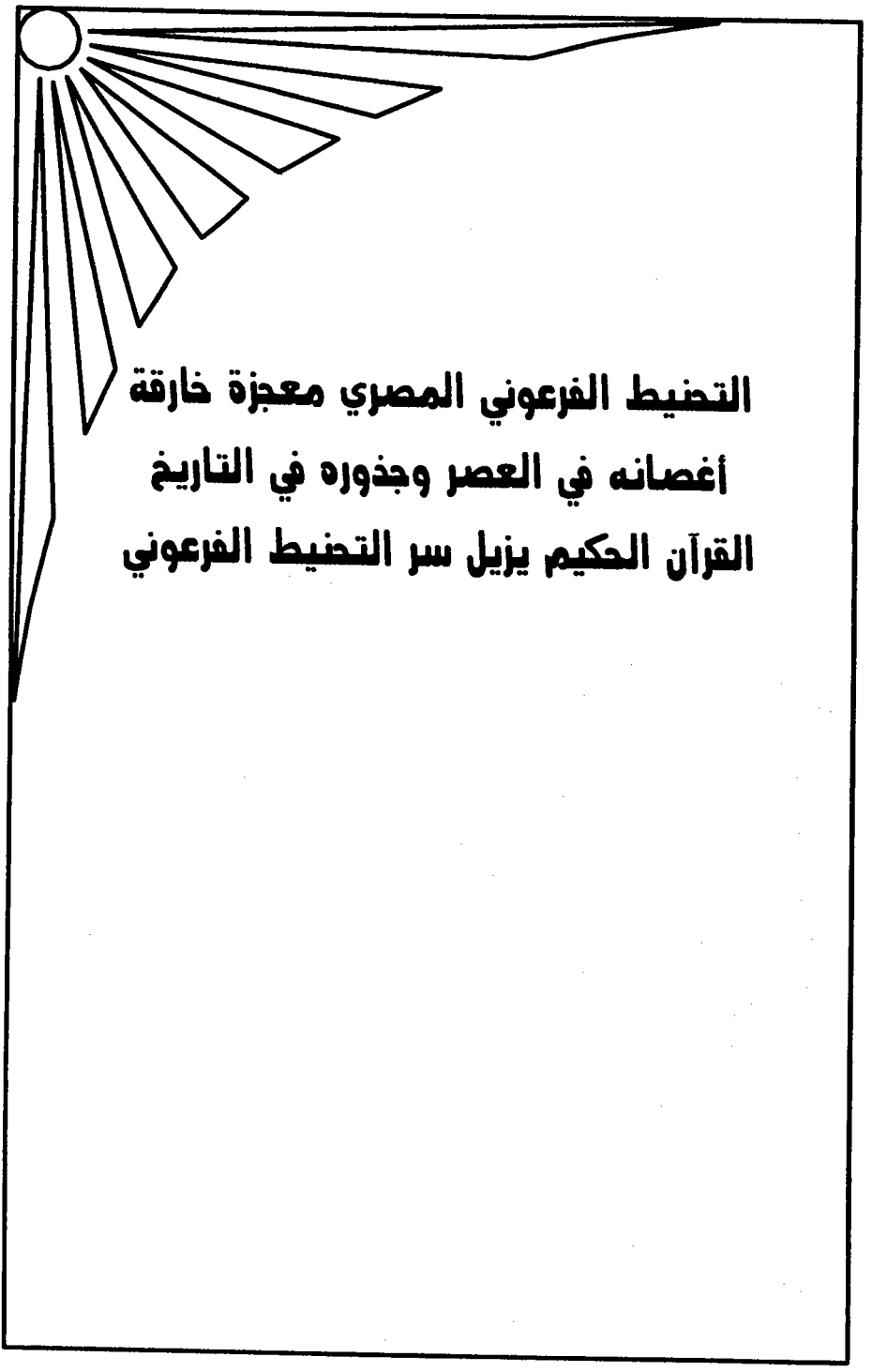
التحنيط الفرعوني المصري معجزة خارقة
أغصانه في العصر وجذوره في التاريخ
القرآن الحكيم يزيل سر التحنيط الفرعوني

من الانفعالات ما تنزو وتنزف وتجهض بالغلو الأخرق أو تتسرب مكتومة متحشرجة في بعض الأوصاف التي تستطرد وتتنامى في التشابيه والاستعارات المكرورة المتجددة بالتعقيد والتوليد والتجريد والذهنية أو الطافية كالغثاء في التقرير!!..

فالانفعال هو الباعث الأول لكنه شائع.. مبذول في الناس إلا أن يكون مبدعاً بصيراً يصل إلى المعجزة الخارقة فيرتد إلى الداخل بدلاً من أن يطفو إلى الخارج.. يفتح منافذ الروح ويهبها حريتها الأولى التي تخضع العالم وتسهم في بنائه من جديد عوضاً من أن تخضع لمعطياته وتذهن للأسوار التي أحاطه بها العقل الواضح والحس المستقل الجامع!!..

والتحنيط الفرعوني الذي لم يعرف أسراره العلمية العجيبة يتلامح عبره شعور باليأس من خلاص الإنسان ونجاته لأنه لم يقتصر على عصرنا بل تغور في التاريخ.. أعضاؤه في العصر وجذوره في تربته.. تألف فيه الإنسان والوجدان والفرد والمجموع والحاضر والماضي.. بل الزمن كله.. إذ بدت البشرية منذ تاريخها القديم منقادة تحت سوط فك أسراره ورموزه والقدرة على إبداعه ومعرفة ما يزيل المفاهيم الداجنة الأليفة والقوالب الذهنية التي أسرت الحقائق واستحالت إلى الإبداع الملازم لها!!..

فمنذ مئات السنين والإنسان يعيش مفتوناً بالتحنيط الذي أبدعه المصريون في العصر الفرعوني ولا يزال الناس يعيشون هكذا في زمننا هذا.. ولا يوجد حتى الآن ما يكشف المواد التي حنطت بها أجساد فراعنة

مصر مما يعتبره علماء الآثار وخبراء تاريخ ما قبل التاريخ فتحاً علمياً هو نسيج وحده ابتدع ولم يسبق إليه ولم يورث!.

شيء واحد يمكن الرجوع إليه وهو الكتب السماوية.. والقرآن الحكيم يعتبر امتداداً للكتب السماوية السابقة وصيغة جامعة لها.

والبارحة وأنا أتلو القرآن الحكيم تلوت آيات بينات تزيل سر التحنيط الفرعوني.. اللغز العلمي العجيب الذي يجمد الأحوال النفسية ويصنفها وينظمها ليستقر بها العقل المبهور إزاء ما حسبناه إبداعاً لحضارة الفراعنة فتتضح المعالم ونعثر على ما يفك رموزها وتهاويلها بما ينقل الحقيقة إلى من يريدها حية تخفق فيها الروح بكل ما تنطوي عليه أو يعلق بها من شوائب وما يلازمها من هذيان أو غموض أو تجاوز لما يقره العقل في أسلوبه المتباطيء.

إن الآيات الكريمة تروي قصة الصراع بين الحق والباطل.. طرف الحق فيه موسى بن عمران عليه السلام ومعه المؤمنون بالله وطرف الباطل فيه فرعون مصر وجنوده..

فعندما تبع فرعون وجنوده موسى عليه السلام ومعه المؤمنون بالله ضرب موسى عليه السلام بأمر ربه بعصاه البحر فانفلق فكان كالطود العظيم ليعبر وقومه إلى ضفاف البحر وينجون من نقمة فرعون وجنوده.. فكان أن عبروا ونجوا ومن ثم تبعهم فرعون وجنوده فأغرقهم الله عز وجل!..

فقال فرعون وهو يصارع الموع: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فيقول الله سبحانه تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

إن الفراعنة المحنطين في مصر ليسوا محنطين بصنع الإنسان أو بواسطة مواد علمية للتحنيط بل إن تحنيطهم إبقاء لأبدانهم ليكونوا آية بينة إلى أن تقوم الساعة تحكي للناس قدرة الله العلي العظيم على من تساعده قدرته على الإمعان في الباطل.

إنه فرعون مصر أبقاه الله ببدنه آية للعالمين. أما الأجساد الأخرى فهي ليست أجساد فراعنة آخرين كما تناقلت ذلك الأجيال وطرزتها أساطير، وإنما هم عتاة كافرون من جنود فرعون مصر وملئه ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وبذلك تتجلى الحقيقة الإلهية يكشفها القرآن ولم يفسرها المفسرون قبلي هذا التفسير بكل ما تنطوي عليه وتتبدى بما يطابق الواقع دون أن يعلق بها من شوائب وما يلازمها من هذيان أو غموض أو تجاوز لما يقره العقل في أسلوبه المتباطىء عبر مئات السنين وهناك من فسر المراد بالبدن في الآية الكريمة بدرع فرعون الذهبي الموثوق به فكيف عن له تفسير البدن بالدرع، هذا التفسير اللغوي الضعيف وفي القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وردت مسميات البدن في أكثر من موضع على أنه الجسم كماهو مجمع عليه أقربها ما ورد في حديث رسول الله ﷺ: «وإن لبدنك عليك حقاً».

وأنا لا أنكر فضل المفسرين السابقين رحمهم الله ولا أجحد اجتهادهم وجهادهم في سبيل الله ولكنني أقول إن المفسر القديم اجتهد وبقيت اجتهاداته ردحاً من زمن احترمت من خلاله فبات الاحترام للاجتهاد في الرأي رهبة وانقلب تقديساً فاض على التقدير.

وليس من شك أن وسائل المعرفة تطورت واكتساب العلم تجدد فباتت للإنسان في هذا العصر مقدرة الإطلاع على أي مرجع علمي أو بحث في أي مكان باختصار وقت ويسر وجهد وسهولة اتصال. وقد يكون السابقون بما صرفوه من وقت وكدوه من جهد اكتسبوا من الثواب والأجر عند الله ما هو أفيض وأكثر.

إلا أنه لا رهبانية ولا كهنوت في الإسلام. فالثقافة الإسلامية روح تأتلف فيها المدارك الإنسانية وتدفع بها عن النفس ويلات الحيرة والاضطراب وتنازع الأفكار والعواطف وحرب ما بين المعقولات والمنقولات والتقسم بين الروحانيات والماديات حتى يتمكن الاقتناع والإيمان من نفوس الناس الذين أنزل الله لهم القرآن شريعة ومنهاجاً يسيرون في دروب إشعاعاته

ويصحح الإنسجام بين مداركهم الدينية والإنسانية.

والقرآن الحكيم أنزله الله للبشر على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ليكون على مدى حياتهم وعلى أجيال متعاقبة مخضعاً إياهم لمعطياته ومحيطاً بلسان قويم العقول الواضحة والأحاسيس المستقلة وهو امتداد للكتب السماوية السابقة وصيغة جامعة لها.

وإذا كان علم أصول تفسير القرآن الكريم اشترط في تفسير آياته شروطاً فتلك الشروط قائمة بذاتها على مدى الأجيال. فالتكوين البشري والفكري لجيل ابن كثير والجلالين السيوطي والمحلى وغيرهم هو نفس التكوين البشري والفكري لجيل ابن حزم وابن تيمية وابن القيم وغيرهم وهو نفس التكوين البشري والفكري لجيل محمد عبده والأفغاني ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهم وهو نفس التكوين البشري والفكري لجيل طه حسين والعقاد ومحمد متولي الشعراوي وعلى الطنطاوي وأبو الأعلى المودودي وعبد الحليم محمود وسيد قطب وأبو الحسن الندوي والفاضل بن عاشور ومحمد بن إبراهيم آل الشيخ وعلوي مالكي وغيرهم وهو نفس التكوين البشري والفكري لجيل محمد حسن عواد وأحمد عبد الغفور عطار وشفيق يموت وحمد الجاسر ومحمد عبد المنعم خفاجي وبهجت الآثري وعبد العزيز بن باز وعبد العزيز بن صالح ومحمد بن إبراهيم بن جبير وغيرهم وهو نفس التكوين البشري والفكري لجيل أحمد محمد جمال وعبد العزيز الربيع ومصطفى محمود وحسن آل الشيخ وكامل الشريف وأمين العبد الله وحسن كتبي وصلاح الدين المنجد وعبد المحسن التركي وبن عبيد وعبد العزيز المسند ومصطفى الزرقاء وغيرهم وهو نفس التكوين البشري والفكري لجيل محمد عبده يماني ومحمد كامل الخجا ومحمد عبد الله مليباري ورجاء النقاش وعبد الله جفري وعزت نصر الله وغازي القصيبي ورمضان لاوند وعبد الله الشهيل وصالح اللحيدان وعبد الله الفوزان وعبد الله الحصين وغيرهم.

وأمتنا وبلادنا الإسلامية والحمد لله تبني حضارة مستمدة من حاضر

العالم اليوم ومؤتلفة مع تراثنا الإسلامي العريق المجيد فيعمد ويجتهد كل مخلص لرسالته في ميدانه إلى التعبير عن غنى التجربة بالشمائل.. بالفكر.. بتميز العمل. وإزاء هذه الإرادة كان الإنسان ليخلص من المحدود إلى المطلق!.

لقد رتل محمد ﷺ آيات القرآن الحكيم في صورة وفكرة ونغمة وحركة لترفع الواقع إلى حقيقة المثل.. والقرآن الحكيم شريعة هي أكمل ما أعطى الإنسان وفي آياته أجمل وحدة في أفق الائتلاف ومنه يستقى التاريخ لأنه من لدن خبير عليم جل جلاله.

والفراعنة كانوا في تاريخ ما قبل التاريخ ثم إن المواد المستعملة في تحنيط الفراعنة المزعوم غير معروفة حتى اليوم رغم الجهود والبحث والتنقيب لمعرفة كينونتها ومصادرها؟..

إذا فقد أبقى الله فرعون ببدنه هو والعتاة من جنوده وملئه البارزين آية وعبرة لمن خلفه من العالمين الغافلين عن آياته سبحانه.

كما هو نص الآيات الكريمة الواردة بهذا وليس هناك من يدلل ويثبت بالحيثيات والقرائن أنه من صنع البشر وبذلك تتجلى الحقيقة الإلهية التي يكتشفها القرآن الحكيم فإن أصبنا فلنا أجران وإن أخطانا كان لنا أجر وفوق كل ذي علم عليم.

# الفصل الثاني
# الديانات الفارسية

كانت البلاد الفارسية مسرحاً لكثير من الديانات شأنها شأن الأمم التي ساهمت وشاركت في بناء اللبنات الأولى في الحضارة الإنسانية، مثل الهند، ومصر، واليونان، وبابل وآشور، وغيرها.

ثم تمضي ألف سنة أخرى بعد معرفة البابليين فكرة العالم الآخر وتبرز عند الفرس في ديانة «زرادشت» وهي من أهم الديانات التي تأثر بها الفرس وتأثرت بها فنونهم وآدابهم.

ونجد أن قضية البعث في الديانة «الزرادشتية» قضية واضحة مكتملة البناء لأنها جوهر العقيدة الزرادشتية، ومركز الثقل فيها[1].

وتقوم هذه العقيدة على أساس أن الإنسان له رسالة على هذه الأرض وأنه إذا أدى هذه الرسالة على أكمل وجه كتب له الخلود، وانضم إلى عالم الظلام أبد الأبدين.

وهناك كانت معركة بين الخير والشر، بين النور والظلام، بين «اهورامزدا» و «اهرمان» وكانت مدة هذه المعركة اثنا عشر ألف عام - وهو عمر الإنسان على هذه الأرض والحرب سجال بين المتقاتلين ينتصر هذا

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ٢٢ وما بعدها الطبعة العاشرة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م دار الشروق.

مرة، وينتصر ذاك مرة في دورات متعاقبة، كل دورة تقدر مدتها بحوالي ثلاثة آلاف من الأعوام والدورة الأخيرة النهائية يكون النصر فيها للخير، للنور «لأهورامزدا». ومطلوب من الإنسان لكي يكون في الخالدين السعداء - أن ينضم إلى جند الخير، فإنه بهذا يشارك في هزيمة الشر، وينال نصيبه من الغنائم والأعمال الصالحة هي أسلحة الحرب ضد الشر، وضد الظلام.

وأفضل الفضائل الطهور والأمانة.

إن قوى الشر ستغلب آخر الأمر، ويكون مصيرها الفناء بعد أن يمر العالم بأربعة عهود، طول كل منها ثلاثة آلاف عام يسيطر عليه فيها على التوالي أهورامزدا، وأهرمان. وحينئذ ينتصر الحق في كل مكان، وينعدم الشر، فلا يكون له من بعد وجود!

ثم ينضم الصالحون إلى «أهورامزدا» في الجنة، ويسقط الخبيثون في هوة الظلمة يطعمون فيها أبد الدهر سما زعافاً[1].

ولم تكن العقيدة «الزرادشتية» تحمل سياسة معينة نحو الجسد بعد موته ولا تنظر إليه أية نظرة. لقد أدى دوره مع الروح الذي لبسته إن خيراً وإن شراً إنه لم يكن إلا «شبحاً» تجسدت فيه الروح، فإذا أدت الروح دورها فيه، فليعد إلى التراب لأنه من التراب.

وكان من تعاليم «زرادشت» ألا يدفن الموتى، أو يحرقوا، كما كان يفعل اليونان أو الهنود القذرون، بل يجب أن تلقى أجسامهم إلى الكلاب أو الطيور الجارحة[2].

ومن هنا فالديانة الزرادشتية تتصور مصير الروح على النحو التالي:

عندما يموت الميت تظل الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال معلقة إلى

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت الجزء الثالث ترجمة بدران ص ٤٣٠.

(٢) قصة الحضارة ول ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول - الشرق الأدنى محمد بدران ص ٤٢٨.

جانب الجسم منعمة بنعيمه أو معذبة بعذابه. وفي فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح، إما عطرة إذا كان الميت خيراً، وإما نتنة إذا كان شريراً، فتحملها إلى موضع يلتقي فيه إما بفتاة جميلة، وإما بعجوز مفزعة. وليست الأولى فتاة حقيقية ولا الثانية عجوزاً حقيقة. وإنما هي صورة أعمال الميت. وهي ضميره الذي يقوده إلى حيث معبر الحساب والحكم الأخير. وعلى باب هذا المعبر يوجد ثلاثة قضاة بينهم «مبهتهرا» وهناك ينصب ميزاناً توضع في إحدى كفتيه حسنات الميت وفي الأخرى سيئاته. وبناء على صعود إحدى الكفتين أو هبوطها يصدر الحكم على مصير هذا الميت. ويلاحظ أن الثواب والعقاب لم يكونا ينصبان على حسنة أو كل سيئة على حدة، بل على مجموع النوعين. فإذا رجحت الحسنات كفرت السيئات مهما كانت كل واحدة منها في ذاتها جسيمة، كما يلاحظ أن الندم والتوبة لم يكونا معتبرين، وأن الغفران في الحساب لا وجود له البتة، لأنه مؤسس على العدل لا على الرحمة.

وعلى إثر انتهاء الوزن وصدور الحكم يؤمر المحاسب بالمرور فوق هذا المعبر أو الصراط الممتد فوق الجحيم الذي يتسع أمام الأخيار، ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة وأحد من الشفرة أمام الأشرار.

فهؤلاء الأخيرون يهوون في جحيم مظلم ظلاماً كثيفاً إلى حد يستطاع معه لمسه باليد، فإذا هووا في الجحيم كانوا متزاحمين كأنهم كمية من الشعر في معرفة حصان. ومع ذلك فكل واحد منهم يشعر في وسط هذا الزحام بوحدة قاسية وعزلة ممضية.

أما الأخيار فيذهبون إلى النور حيث يستقبلهم «أهورامازدا»[1] بعد أن يمروا في وسط العمل الصالح والقول الخير والفكرة الطيبة.

وهناك يستمتعون في كنف «مازوا» بالسعادة الأبدية. هذا كله بالنسبة لمن ثقلت موازينهم أو خفت. أما من استوت حسناتهم وسيئاتهم، فهم

(١) الإله الخير خالق الكون وحافظه من الفساد الذي يحاوله إله الشر «أهريمان».

يوضعون في مكان فسيح بين السماء والأرض يقاسون فيه ألم الحر والبرد، ويحسون بجميع التغيرات الجوية، ويظلون ينتظرون في أمل ورهبة الحكم الأخير على مصيرهم الذي يظل مظلماً، ما داموا في هذا المكان. وأشهر أهل هذا الموضوع هو «كيريزاشبا» الذي قتل وحشاً مرعباً فحسب له ذلك حسنة، ثم دنس النار المقدسة فحسبت عليه سيئة مساوية للحسنة الأولى، فظل بين النعيم والجحيم[١].

ومن هنا يتضح لنا المشابهة الكثيرة بين هذه العقيدة الزرادشتية وعقيدة مصر القديمة في الحساب على الخير والشر، وفي صور النعيم والجحيم، وفي طريقة الحساب وطريقة الجزاء فهي واضحة لا تحتاج إلى بيان[٢].

وفي فارس ظهرت طائفة المانوية - من المجوس - وهم أصحاب «ماني»[٣] الذي ادعى النبوة وأشاع في الناس مذهباً شبيهاً بمذهب الوجودية في عصرنا هذا. لا حدود لحرية الفرد فيه ولا قيود والذي يعنينا ويهمنا هنا أن «ماني» قد صور لاتباعه قصة الوجود، والحياة والموت، وما بعد الحياة والموت وصور كل هذا في أسطورة بارعة الخيال.

وفي هذه الأسطورة يرى «ماني» أن القيامة ليست حياة بعد الموت وإنما هي انتصار للنور على الظلام في المعركة الفاصلة بينهما، على نحو ما يقول به «زرادشت» ولكن «ماني» يضع لهذه الفكرة ثياباً فضفاضة من نسيج الخيال ويخرج منها ملحمة عجيبة، يشترك فيها الوجود كله.

وتحكي أسطورة هذا الصراع بين النور والظلام، أن أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعد التشاغل، فنظرت الروح فرأت النور، فبعثت الأبدان على ممازجة النور، فأجابتها، لإسراعها إلى الشر.

---

(١) الفلسفة الشرقية محمد غلان ص ١٩٥/١٩٦/١٩٧ القاهرة ١٩٣٨.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ٢٣، ٢٤ الطبعة العاشرة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م دار الشروق.

(٣) ماني: هو ماني بن فنق بابك، صاحب مذهب النور والظلام ظهر أيام سابور بن أرد شير ملك الفرس.

«فلما رأى ذلك ملك النور وجه إليها ملكاً من ملائكته.. في خمسة أجزاء من أجناسها الخمسة فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية فخالط الدخان النسيم، وخالط الحريق النار.

وخالط النور الظلمة.

وخالط السموم، الريح

وخالط الضباب، الماء.

فما كان في العالم من منفعة وبركة، فمن أجناس النور، وما فيه من مضرة وفساد، فمن أجناس الظلمة. فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكاً من ملائكته، فخلق هذا العالم أي العالم الأرض على هذه الهيئة لتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة.

«وإنما سارت الشمس والقمر، وسائر النجوم، لاستصفاء أجزاء النور من أجزاء الظلمة.. فالشمس تستصفي النور الذي امتزج بشياطين الحر، والقمر يستصفى النور الذي امتزج بشياطين البرد والنسيم الذي في الأرض لا يزال يرتفع. وكذلك جميع أجزاء النور أبداً في الصعود والارتفاع إلى علالمها وأجزاء الظلمة أبداً في النزول والتسفل، حتى تتخلص الأجزاء ويبطل الامتزاج، وتنحل التراكيب ويصل كل إلى عالمه وذلك هو القيامة والمعاد[1].

ويرى «ماني» أن مما يعين على التخليص والتمييز ورفع أجزاء النور التسبيح والتقديس، والكلام الطيب، وأعمال البر، فترتفع بذلك الأجزاء النورية في عمود الصبح إلى فلك القمر، فلا يزال القمر يقبل ذلك من أول الشهر إلى النصف، فيمتلىء ويصير بدراً، ثم يؤدي ذلك النور إلى الشمس إلى آخر الشهر، فتدفعه الشمس إلى نور فوقها، فيسرى في ذلك العالم إلى أن يصل إلى النور الأعلى الخالص ولا يزال يقبل ذلك حتى لا يبقى من

---

(١) الملل والنحل أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨هـ) الجزء الثاني تحقيق سيد كيلاني ص ٧٧.

أجزاء النور شيء في هذا العالم إلا قدر يسير منعقد لا تقدر الشمس والقمر على استصفائه فعند ذلك يرتفع الملك الذي يحمل الأرض ويدع الملك الذي يجتذب السماء، فيسقط الأعلى على الأسفل، ولا تزال تضطرم حتى يتحلل ما فيها من النور، ويكون مدة الاضطرام ألفاً وأربعمائة وثمانين وستين سنة[1]!! فنجد أنها أسطورة رائعة الخيال، بارعة التصوير، محبوكة النسيج.

ومن المعروف أن الشعب الذي يسكن بلاد إيران في الوقت الحاضر هو أحد الشعوب المسماة بالشعوب الهندية الأوروبية أو الآرية.

ويسمى هذا الشعب بالشعب الإيراني. وهناك مشابهة لفظية قوية بين الإيرانيين والآريين، فليس من البعيد أن تكون الكلمة الأولى تحريفاً للثانية.

أما تسميتهم بالفرس فترجع إلى أن ملوك إيران حين اتجهت أنظار مؤرخي الإغريق إلى بلادهم كانوا يسكنون مقاطعة پارسي أو فارس أو فارستان التي يسميها الإغريق: بيرسيس persis[2]. وتدل بعض النقوش الأثرية التي عثر عليها في فارس على أن عصر الأدب الفارسي القديم بدأ في عهد دار الأول، واستمر في عهد خلفائه من بعده.

وتتضمن هذه النقوش أوامر وتعليمات، وبيانات ملكية ويلاحظ أنها مع كونها كثيرة متنوعة ـ تكاد تكون ذات طابع وأسلوب واحد، ولا تزيد مادتها اللغوية كثيراً على أربعمائة كلمة.

وتمثل لغة هذه النقوش اللغة الفارسية القديمة، وأهمها نقش تهستون وهي على ثلاثين ميلامين كرمانشاه، على الطريق الرئيسي إلى خراسان، ويبلغ ارتفاعها نحو ٤٥٦ متراً. وما عليها من نقوش قسمان، أحدهما:

---

(١) الملل والنحل أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ) الجزء الثاني تحقيق سيد كيلاني ص ٨١.

(٢) قصة الأدب الفارسي حامد عبد القادر الجزء الأول ويشمل تاريخ الأدب الفارسي من مبدئه إلى نهاية الدولة الفرنوية ص ٢٦ مكتبة نهضة مصر بالفجالة مطبعة البيان العربي يوم الثلاثاء سنة ١٣٧٠هـ الموافق ١٢ من يونية سنة ١٩٥١م.

صور تمثل انتصار الملك خضوع الملوك الآخرين وجنودهم له، وثانيهما: عبارات كتبت بالخط المسماري بثلاث لغات هي: الفارسية القديمة، والكلدانية أو الأشورية، والميدية.

## الديانة الزرادشتية:

يدل ورود اسم أهورامازدا في النقش السابق ذكره على أن بعض الملك وبعض الرعايا ـ على أقل تقدير ـ كانوا يدينون بالزرادشتية، ويؤمنون بها، وعلى أن هذه الديانة كانت في ذلك العصر منتشرة ثابتة الأركان وهي من أهم الديانات التي تأثر بها الفرس، وتأثرت بها فنونهم وآدابهم.

وقد اختلف المؤرخون في منشأ هذه الديانة ـ أي موطنها الأصلي، كما اختلفوا في تحديد العصر الذي ظهرت فيه في العالم، بل أن منهم من ينكر زرادشت نفسه الذي تنسب إليه هذه الديانة، ويعده شخصية وهمية أسطورية ومنهم من يقول بأن زرادشت شخصية تاريخية حقيقية.

اختلفوا في تحديد عصر ظهوره، فمنهم من جعله مبدأ القرن السادس من قبل الميلاد ومنهم من أوصله إلى مبدأ القرن الستين قبل الميلاد.

بيد أن جمهور المعاصرين من العلماء يرون أن زرادشت شخصية تاريخية، وأنه عاش وظهر أمره في النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد، وأن موطنه الأصلي كان بناحية قريبة من آذربيجان الحالية.

فقد وضحت فكرة العالم الآخر وبرزت قضية البعث بصورة واضحة متكاملة البناء في الديانة (الزرادشتية) فأساس الزرادشتية القول بوجود قوة عليا هي قوة الخير والنور وتسمى أهورامادا أي النور العظيم، وكان بجانب هذه القوة سبعة ملائكة قدسيون يمثلون الفضائل السبعة العليا وهي: «الحكمة، والشجاعة، والعفة والعدل والإخلاص والأمانة، والكرم.

وبما إنه لا سبيل إلى الخير إلا بمقاومة قوى الشر، ومواصلة التغلب

عليه فإن هذه الديانة تفرض وجود شخصية شريرة تسمى أهريمان ـ قوة الشر والظلام، ويعاونها أيضاً سبع من القوى الشيطانية الشريرة الخبيثة المتمردة، تمثل الرذائل الإنسانية الرئيسية وهي: النفاق والخديعة، والخيانة، والجبن، والبخل، وإزهاق الأرواح.

وبين هاتين الطائفتين من قوى الخير والشر صراع دائم، ونزاع مستمر، وحرب قائمة إذ أن كلاً منهما ترمي وتهدف إلى السيطرة على العالم الإنساني وفي وسط هذا النزاع الدائم وفي ميدان تلك الحرب المستعرة، ينهض زرادشت، ويذيع في الناس مبادىء ديانة ليست هادئة سلبية مستسلمة تخضع لقوى الشر والظلام، ولكنها ديانة عكس ذلك فهي إيجابية قوامها الجهاد والصراع في سبيل إخضاع قوى الشر.

وتعلن هذه الديانة أن على أي إنسان واجباً أبدياً هو أن يعلن حرباً لا هوادة فيها تخضع لقوى الخير، وأن يظل يدافع ويجاهد ويصارع قوى الشر، لكي يقضي عليها القضاء النهائي في نهاية الأمر.

ولا سبيل إلى هذا النصر النهائي إلا سبيل اليقظة المثمرة، والترقب والتحفز الدائم والجهاد والنضال الدائب.

ولذا يهيب زرادشت بأتباعه أن يعقدوا العزم على اختيار أحد الطريقين: طريق الانضمام إلى قوى الخير، وطريق الانتماء إلى شياطين الشر، وبين لهم أن كل تقصير في اختيار مناصرة النور، والإسراع إلى مقاومة قوى الشر مقاومة نشيطة جدية فعالة ـ يعد في نفسه انقياداً واستسلاماً لقوى الظلام الهدامة، ويجعل ذلك بمثابة إنذار صريح لكل من يتهاون في جهاده في سبيل الخير أو يقف موقفاً سلبياً من مقاومة قوى الشر.

وعلى من يختار طريق الخير أن يضع أمام عينيه الأمر المقدس الأسمى الذي يعتبر هو أول الأوامر وأولاها بالطاعة والولاء ذلك هو الخشوع التام لأهورامازدا إله النور الأعلى، والمبدأ الأبدي الخالدي الذي لا

يمكن أن يجد النقص إلى ذاته سبيلاً، فهو خالق جميع الكائنات وعلى رأسها الإنسان الذي يحتل بين المخلوقات أعلى الدرجات، ويمتاز عنها بما ركب فيه من روح خالدة مريدة حرة[1].

ولما كان من تعليم زرادشت وعقائده الإلهية أن أهورامازدا هو قوة روحانية عليا مجردة من جميع شوائب المادة، فنراه قد نزه عن جميع أدران النقص ومن هنا فلا يقوى على إدراكها على حقيقتها عقل بشري، ولا يستطيع استحضارها على صورتها الواقعية خيال إنساني، ولما كان يدرك أنه ليس في استطاعة كثير من الناس أن يصلوا إلى تلك المرتبة الراقية التي هي عبادة قوة روحانية محضة مجردة من شوائب المادة ـ فقد رمز إلى هذه القوة الغيبية ـ التي لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بكنهها العقول، ويعجز عن تصورها الخيال ـ برمزين معروفين مشاهدين تقوى عقول اتباعه على إدراكهما، ويستطيعون بالتفكير فيها تصور صفات أهورامازدا على وجه التقريب هذان الرمزان هما: الشمس، والنار، فالشمس تمثل روح أهورامازدا على صورة يستطيع الناس إدراكها، ذلك لما امتازت به صفات تشبه صفات هذا المبدأ الأول، فإنها كائن مشرق مضيء، يفيض الخير على جميع الكائنات وهي قوة لا يستطيع أحد مقاومتها كما أنه لا تقوى نزعات الشر على الاقتراب منها، والحط من قدرها، والنقص من طهرها.

هذا في السماء أما في الأرض فيمثل للناس تلك القوة العليا عنصر النار، إذ أنها ليست عنصراً أولياً ساذجاً أبدياً أزلياً فحسب، ولكنها أيضاً قوة مطهرة مهلكة.

ومن هنا يظهر لنا بوضوح أن الديانة الزرادشتية لا تقوم ـ كما يزعم البعض على عبادة النار باعتبارها كائناً حياً مزوداً بحياة أو روح، ولكنها تقوم على تقديس النار والشمس باعتبارهما رمزين عظيمين لتلك القوة الواحدة التي لا تفتأ تفيض بالنور والرحمة، والعطف والطهر، وتعمل على إنقاذ

---

(١) قصة الأدب الفارسي حامد عبد القادر الجزء الأول ويشمل تاريخ الأدب الفارسي من مبدئه إلى نهاية الدولة الفرنوية ص ٣٢.

الإنسان من البلاء، وإن الزرادشتية لتعد الوثنية والإشراك الجريمة الكبرى التي تتضمن إنكار مبدأ وحدة الواحد أهورامازدا.

ومن الملاحظ أن تعاليم زرادشت الدينية تدور حول تقديس النار، وقد حمل اتباعه تبعة الاحتفاظ بالشعلة النارية مضطرمة بالمعنيين: الرمزي الروحاني والحرفي المادي معاً، ولذا كان من الواجب عليهم أن يطيعوا هذا الأمر ويظلوا يوقدون النار الخالدة في صدورهم وفي معابدهم.

وقد كان زرادشت نفسه يجول في البلاد ليقيم معابد للنار، فكان يحمل الشعلة الموقدة من معبد إلى آخر، وبمجرد أن توقد النار في معبد يصبح من أهم الواجبات وأقدسها على رجال الكهنوت من المجوس أن يعملوا دائبين على أن تظل هذه النار مشتعلة، فيذهبوا إلى المعبد خمس مرات في اليوم، ليقدموا إلى النار وقوداً من قطعة من خشب الصندل وليتلوا كل مرة عبارات دينية يدعون بها الناس إلى التفكير في الخير، والكلام الطيب، والعمل الصالح وتسمى هذه النصائح بالجواهر الثلاثة التي تتضمن ـ على إيجازها ـ كثيراً من الفضائل والآداب.

وقد أسبغ المجوس على نار المعبد قدسية بالغة، لدرجة أنه كان على القسيس أن يتلثم عند اقترابه من النار، خشية أن يصل نفسه إليها فيلوثها وكان يتذكر حينما يدنو من هذه القوة الأرضية ـ التي ترمز لأهورامازدا ـ أن هذا النور الفياض ينبعث من النار، ويملأ الفضاء الأبدي، ويسير في طريقه حتى يصل إلى القوة العليا.

وكان من تعاليم زرادشت الخلقية أنه كان يرفع من شأن الجد والعمل، ويضفي عليه معنى قدسياً، إذ كان يعد أفضل وسيلة للتقرب إلى الخالق، والفوز برضاه، والنجاة من غضبه وسخطه، وكان ينوه بمنزلة القوة الفعالة المختارة في الإنسان، التي تحرره من الذل والاستعباد، وكان يلفت أنظار أتباعه إلى فضل حياة الاستقرار، وبناء مواقد النار لإنضاج الطعام، والعمل على استغلال الأرض، والانتفاع بخيراتها.

وكان يرى أن تفرغ الإنسان لواجباته، والتفاني في أدائها ـ بكل

إخلاص وأمانة ـ هو في الواقع تهذيب للنفس جدير بأن يجنبها ظلمة الرذيلة ودنس الشر، وأن فلح الأرض، والقلوب إصلاحها واستثمارها ـ يقرب العبد من ربه ـ أكثر من صوم أو صلوات تؤدي في خمول وكسل، وأكثر مما يتبعه بعض من يسرفون في الزهد، ويغلون في تعذيب أنفسهم.

وكان الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين هو «الإبستاق» ويسمى بالعربية أبستاق أو وستاق[1].

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ تدوين هذا الكتاب، وفي تعيين موطنه الأصلي وفي اللغة التي دون بها ـ إختلافهم في أمر زرادشت نفسه ويكاد يكون من المتفق عليه أنه لم يبق من أقسام الابستاق الواحد والعشرين الأصلية إلا جزء واحد هو «الكاثا» فهو القسم الوحيد الباقي، وهو الذي يعد من أقدم ما وصل إلينا من نصوص الأبستاق القديمة.

وليس ذلك فحسب ولكنه يعد أيضاً متضمناً تعاليم زرادشت، وخلاصة الصادر من لسانه بالفعل.

أما أقسام الأبستاق الأصلية الأخرى فقد انقرضت وقضى عليها هو والزرادشتية نفسها، ولم يبق لهما أثر في الفترة الممتدة من فتح الإسكندر لبلاد إيران سنة ٣٣٠ق.م ومن الملاحظ أن الأبستاق الموجود الآن يتضمن سفراً واحداً كاملاً من الأسفار الواحد والعشرين التي تم تدوينها في العهد الساساني ذلك هو الونديداد، في حين أن أربعة أسفار أخرى قد أوجدت في سفر اليسنا.

وتنحصر الأسفار الموجودة الآن المشتملة على التعاليم الأبستاقية الدينية وغيرها في خمسة أسفار هي:

١ ـ اليسنا Yasna وهو قسم الأدعية والصلوات ويشمل الأدعية والصلوات والترنيمات والأغاني التي كانت ترتل في مدح مختلف الملائكة، والكائنات الروحانية والكائنات المقدسة، ويتكون هذا القسم من اثنين

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٩ الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان.

وسبعين فصلاً تسمى (ها).

وقد أدمج فيه الكاثا الذي سبق الكلام عنه.

وإليك ترجمة بعض ما ورد في اليسنا:

النجاة لهذا الإنسان النجاة له مهما يكن ليتفضل عليه الخالق الأكبر والحاكم الأعظم، الرب الحي، القوتان الأبديتان.

نعم إني أتوسل إليك يا أهورا أن تحمي حمى الهداية، وعسى أن تتفضل فتمنحني إياها، أنت يا من يبث في النفوس التي لها من العظمة مالها، فهي النعمة المقدسة، وهي حياة العقول الطيبة الصالحة.

إن أتصورك ـ أيها المعطي الأكبر مازدا ـ جميلاً حينما شاهدت أنك القوة العليا (ذات الأثر الفعال) في تطور الحياة، وحينما رأيت أنك تكافيء الناس على الأعمال والأقوال.

لقد كتبت الشر (عقاباً) على الشر وجعلت السعادة جزاء لمن يعمل الخير، وذلك بفضلك (العظيم) الذي يظهر أثره حينما تتبدل الخليقة التبدل النهائي[1].

٢ ـ الويسيرت visperel ويتكون هذا السفر من ٢٣ ـ ٢٧ فصلاً تسمى كرده وليس سفراً مستقلاً قائماً بذاته، ولكنه يتألف من مجموعة من الترنيمات تشبه ما في اليسنا تمام الشبه وتعد مكملة لها وترتل هذه الترنيمات في مناسبات خاصة.

٣ ـ الونديداد vindidad أي القانون المضاد للشياطين، ويشبه سفر اللاويين في التوراة في أنه يبين التعاليم التي يخضع لها رجال الكهنوت من الزرادشتيين، ويتضمن وجهة النظر الزرادشتية نحو الموت والزواج عما خلق أرمزد (أهورامازدا) من الأراضي المباركة واحدة تلو الأخرى، وعما خلق

---

(١) نقلاً عن قصة الأدب الفارسي حامد عبد القادر الجزء الأول ويشمل تاريخ الأدب الفارسي من مبدئه إلى نهاية الدولة الفرنوية ص ٤٢، ٤٣.

أهريمان (أهرومينيوس) من الأراضي الخبيثة الشريرة معارضاً بذلك أرمزد. ومما يعرض له هذا السفر الأمور المتعلقة بالطهارة، والنسل والنجاسة ونظافة الموتى - وتطهير جثثهم، والتوبة، وتطهير الملابس والبدن وقص الأظافر والشعر.

٤ - اليشتات أو الترنيمات yashts وهي إحدى وعشرون ترنيمة منظومة، تتلى في مدح الملائكة المختلفة والكائنات الروحانية، التي يسمى كل منها أنشاسيبد Anshaspand أو إيزد، ويشرف كل منها على يوم من أيام الشهر الثلاثين ويسبغ عليها اسمه، ولقد كان لكل كائن روحاني من هؤلاء ترنيمة تتلى باسمه.

٥ - الخوردة أوستا، أي الابستاق الصغير، وهو سفر في الأدعية والصلوات يتلوها عامة الشعب وقد دونها في عصر متأخر الكاهن الزرادشتي آذرياد مهرسيند Adharadh mahraspand ويتكون معظمها من مختارات من الأبستاق كلها وبلغتها، ويتكون الباقي من عبارات كتبت بلغة (اليازند، ولهجة آرامية كانت تستعمل في شرح الزند).

وتشمل الخوردة:

(أ) الأدعية الخمسة نيايشي Nyayish وهي أدعية موجهة للشمس والقمر ومثرا Mithra وعبقرية الماء ونار بهرام.

(ب) الكائات الخمس.

(ج) أدعية الأيام الثلاثين (سيروزه الأكبر والأصغر منها).

(د) التربيكات الأربع (افرينكان) Afringan ونجد بالخوردة الآداب والرسوم الدينية، كالدعاء، والصلاة، والطاعة والعادات التي كانت تتبع في الأعياد الدينية، وفي العصر المتوسط وهو العصر الثاني من عصور الأدب الفارسي.

ويسمى أيضاً بالعصر الساساني، ويمتد من قيام الدولة الساسانية على يد أوشير ابن بابك سنة ٢٢٦ إلى سقوط هذه الدولة على يد العرب في

عهد يزدجرد الثالث سنة ٦٥٢م.

وكان على يد هذه الدولة إعادة الديانة الزرادشتية إلى مجدها الأول، وإحياء ما درس من كتابها المقدس كتاب الأبستاق وفي عهد سابور بن أردشير ظهر ماني الزنديق بإيران سنة ٢٤٢م وادعى النبوة وأغوى الناس، فتبعه منهم خلق كثير، وهم الذين يسمون المانوية أو المنائية، ويروي ابن النديم أنه بان فتق بن أبي برزام، وأن أمه السماء ميس كانت من نسل الأشكانيين، وأن أصل أبيه من همدان، ثم انتقل إلى بابل، وكان ينزل المدائن (طيسقون) وبها بيت للأصنام فيتنسك هناك كما كان يفعل غيره[١].

ومذهب ماني يقول بوجود كائن ثنائي الطبيعة، وبوجود مبدأين يسيطران على العالم هما: مبدأ النور، ومبدأ الظلام، فالنور منشأ الخير، والظلام منشأ الشر.

ولكل منها قدرة على إدراك اللون، والطعم، والرائحة، والصوت، والملامسة[٢] ويستطيع كل منهما بهذه القدرة أن يرى ويدرك الأشياء وكل ما هو خير ونافع في الأشياء فهو صادر عن النور، وكل ما هو ضار ومفسد فيها فهو ناشىء عن الظلام.

وكان هذان المبدآن في أول الأمر منفصلين مستقلين متلاصقين ملاصقة الضوء للظل، وما داما منفصلين لم تحدث في الكون حوادث، فلم تنشأ عن امتزاجهما الكون بما فيه من ظواهر وحوادث وأجسام كثيفة، وكائنات حية وكان الظلام هو البادىء بالامتزاج، لأن النور خير بطبيعته، فلا يبدأ الاعتداء، وإنما قال ماني بوجود هذين البدأين لأن الخير والشر ضدان لا يصدران عن شيء واحد.

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٥٦، ٤٥٧ الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.

(٢) أساطير العالم القديم أحمد عبد الحميد يوسف مراجعة دكتور عبد المنعم أبو بكر ص ٣٠٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وهذان البدآن نشيطان فعالان إلى الأبد، بدليل دوام صدور الخير عن أحدهما والشر عن الآخر.

ولا يتسع المقام هنا لعرض تفصيلاً مذهب ماني، وبيان رأيه في الأسباب التي دعت إلى اختلاط الظلام بالنور، ولا لشرح نظرياته في ملك جنات النور، وفي الإنسان الأول، والشيطان، وفي اعتبار حركات العالم المادي الآلية وسيلة لتخليص النور من سجنه، ولا لبيان عقائده المتعلقة بآدم وحواء وقابيل وهابيل وشيت، وبما يسمى بحكمة الدهر، وبابنه الحرص فهذه مسائل تفصيلية يستطيع من يريد الإلمام بها أن يرجع إلى الكتب المختصة بشرحها وفي مقدمتها الفهرست لابن النديم، والملل والنحل للشهرستاني، وقد فرض ماني على أتباعه أربع صلوات أو سبعاً وصوم سبعة أيام كل شهر كما فرض عليهم عشر فرائض أخرى هي[1]:

١ ـ الإيمان بالعظائم الأربعة وهي: الله ونوره، وقوته، وحكمته، فالله جل رسمه هو ملك جنات النور، ونوره هو الشمس والقمر، وقوته الأملاك الخمسة وهي النسيم، والريح، والضوء، والماء، والنار وحكمته هي الدين المقدس.

٢ ـ ترك عبادة الأصنام.

٣ ـ ترك الكذب.

٤ ـ ترك البخل.

٥ ـ ترك القتل.

٦ ـ ترك الزنا.

٧ ـ ترك السرقة.

٨ ـ ترك العلل والسحر.

---

(١) تجد تفصيل هذه الفرائض في الفهرست لابن النديم ص ٤٦٥، ٤٦٦.

٩ ـ الشك في الدين.

١٠ ـ التواني في العمل.

ونجد أن ماني لا يعترف بأنبياء بني إسرائيل، ولكنه يعترف بأن بوذا وزرادشت كانا نبيين مرسلين، ونراه يعترف بنبوة المسيح عليه السلام، ويقول إنه جزء الفضل من عالم النور، وتجسد تجسداً ظاهرياً، أما الذي صلبه اليهود فهو عيسى الزائف ابن الأرملة وليس هو عيسى الحقيقي.

وكان المانويون خمس طبقات هم:

١ ـ المعلمون وهم أبناء الحلم.

٢ ـ المنسون وهم أبناء العلم.

٣ ـ القسيسون وهم أبناء العقل.

٤ ـ الصديقون وهم أبناء الغيب.

٥ ـ الساعون وهم أبناء الفطنة.

وكانوا يعنون بتجويد الخط، وقد ابتكروا لهم أبجدية خاصة، ومن ثم شاع عن ماني في إيران أنه كان نقاشاً ماهراً، ويعزى إليه أنه وضع كتاب صور سماه أرزهنك أو ارتنك وادعى أن هذا الكتاب هو معجزته التي تدل على مقدرته الخارقة للعادة وعلى أنه مرسل من عند الله.

وألف ماني ستة كتب رئيسية شرح فيها مذهبه الثنائي، وبين فيها تعاليمه وهذه الكتب هي:

١ ـ كتاب بشابرقان، وهو الوحيد الذي ألفه بالفارسية الفهلوية، وفيه يشرح حال النفس الناجية، وحال النفس الشريرة التي تسيطر عليها الشياطين فتفسدها وترمها بالرذائل.

٢ ـ كتاب كنز الإحياء، وفيه يشرح ما يصدر عن النور من صلاح للنفس، وما ينشأ عن الظلام من فسادها، وفيه يقرر أن السماء جرم مسطح، وأن العالم كجبل يدور حول الفلك الأعلى.

٣ ـ كتاب الهدى والتدبير.

٤ ـ كتاب الفرائض الاثني عشر الآنف ذكرها، وفيه يعد حروف الهجاء واحداً واحداً ويبين خصائص كل منها، ويصف الأدعية والصلوات ويذكر مايجب أن يعمل لتحرير النفس.

٥ ـ سفر الأسرار، وفيه يطعن في معجزات الأنبياء.

٦ ـ سفر الجبابرة. وله عدا هذه الكتب، كتب ورسائل أخرى ذكرها ابن النديم[١].

## الأدب الفهلـوي:

يراد بالأدب الفهلوي الأدب الفارسي الذي ظهر بوجه خاص في عهد الدولة الساسانية (٢٢٦ ـ ٦٥٢) ويكاد هذا الأدب يساوي في كمه ما احتوى عليه العهد القديم، أما موضوعاته فلا تكاد تخرج عن تعاليم دينية وأدعية وصلوات كهنوتية، وبعض أساطير تاريخية، ونظم اجتماعية كما سنرى مفصلاً فيما بعد.

ويمكن أن يقال إن عصر الأدب الفهلوي يمتد من القرن الثالث إلى القرن التاسع أو العاشر الميلادي، وذلك حين انقرض هذا الأدب ولم يبق له أثر إلا بين الزرادشتيين الذين ما زالوا يستخدمون لغة فهلوية لا تخلو من التحريف.

وأقدم ما بقي حتى الآن من النصوص الأدبية الفهلوية ما دون على بعض صفحات من ورق البردى وجدت بالفيوم المصرية، ويقال إنها دونت في القرن الثامن الميلادي تم تدوينها في ١٣٢٣/١/٢٥م، وقد استمر نسخ المؤلفات الفهلوية بأيدي النساخ إلى أن اخترعت الطباعة الفهلوية، فطبعت أهم الكتب الفهلوية، وأخذت صناعة النسخ في التدهور ـ كما هي الحال

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٠، ٤٧١.

بالنسبة لما ألف باللغات الشرقية الأخرى، وقد وجد قسم لنصوص فهلوية دينية تمثلها خمس وخمسون رسالة، ويشمل هذا القسم أدعية، ونصائح ومواعظ، وكلمات دينية مأثورة، كما يشمل كتابين هامين هما:

١ ـ دينكارت: أي الأعمال أو الشرائع الدينية، ويتضمن مجموعة عظيمة من المعلومات المتعلقة بالأصول والعادات والتقاليد الدينية التي يعتنقها من يعبدون مزدا أو بتاريخ ديانة زرادشت وآدابها.

٢ ـ بندهش(بن + دهش) = وضع الأساس أو التأسيس، وهو كتاب ديني ضخم تتكون نسخته الكاملة المسماة بالنسخة الإيرانية من ٤٦ فصلاً.

كما وجد قسم آخر لنصوص فهلوية ويشمل:

١ ـ داتستان إيذيك (المذاهب الدينية) ألفه منوس جهر بن يودان يم، ويشمل اثنين وتسعين مبحثاً من المباحث الدينية.

٢ ـ شكند لومانك ويجار (البيان المزيل للشكوك) وهو كتاب ديني مدني ألفه صاحبه في الدفاع عن آراء الزرادشتيين في طبيعة الشر وأصله وبطلان آراء اليهود والنصارى والمانيين والمسلمين في ذلك.

٣ ـ دينا مينيوي خر (آراء روح الحكمة) ويتضمن إجابات هذه الروح عن اثنين وستين سؤالاً عن العقيدة الزرادشتية.

٤ ـ أرد ويراف ناقك: وهو كتاب يمكن أن يوصف على سبيل الإيجاز بأنه رسالة نثرية زرادشتية تشبه رواية الفردوس والجحيم لدانتي ويمتاز بأنه يشرح الفوضى المادية والدينية التي حلت بفارس على أثر غزو الإسكندر اللعين لها، وبين النهضة الوطنية والدينية التي تمت في العهد الساساني في القرن الثالث الميلادي، ويوضح آراء الزرادشتيين في اليوم الآخر وعند الكلام على اليوم الآخر يتحدث الكتاب عن الصراط وعن الحوراء التي تمثل أحد الأبرار وتقول حين تسأل عن شخصيتها إنها تمثل الأعمال الصالحة، والكلمات الطيبة، والأفكار الحسنة التي صدرت عن ذلك

البر في حياته في الدنيا[1].

كما وجدت نصوص فهلوية في موضوعات غير دينية وهي لا تهم البحث الذي نحن بصدده.

(١) قصة الأدب الفارسي حامد عبد القادر الجزء الأول، ويشمل تاريخ الأدب الفارسي من مبدئه إلى نهاية الدولة الفرنوية ص ٦٢ وما بعدها ـ مكتبة نهضة مصر بالفجالة مطبعة لجنة البيان العربي يوم الثلاثاء ٨ رمضان سنة ١٣٧٠هـ ـ الموافق ١٢ من يونيه سنة ١٩٥١م.

# الفصل الثالث
# الأساطير الإغريقية

في الأساطير الإغريقية يرد ذكر العالم الآخر، وبخاصة في أوذية هوميروس الذي عاش هو إلى القرن التاسع، قبل الميلاد. والغالب أن تكون الأسطورة الخاصة بالعالم السفلي (هيدز) سابقة على هوميروس، وأن يكون هو قد انتفع بها في ملحمته[1].

وتذكر الأسطورة أن هذه (الـ (هيدز) تحت الأرض وهي مظلمة تهبط إليها أرواح الموتى بعد موتهم مباشرة، ويقوم عليها الإله «بلوتو» وقد خطف «برسفونية» وبه الربيع لتقاسمه ظلامها بعد أن أبت الإلهات جميعاً مشاركته ويستطيع بعض الأحياء أن يهبطوا إليها بطرق خاصة كما هبط «عوليس» بطل الأوذيسة. ونستطيع أن نفهم عن «هوميروس» أن هذه الأرواح تتراءى أشباحاً في «هيدز» لا تقبل اللمس لأنها مجرد أشباح تركت أجسادها على الأرض ولا تعود إليها هذه الأجساد. ذلك أن «عوليس» لم يستطع أن يضم إليه شبح أمه على شدة رغبته ولهفته لأنها عادت شبحاً لا يلمس، كما نفهم أن هذه الأرواح تحتفظ بذكرياتها الدنيوية وعواطفها وانفعالاتها، فإن البطل «أجاكس» كان عاتباً على (عوليس) لأنه استأثر دونه بدروع «إخيل» بعد موته، مع رغبة إجاكس فيها، وقد قتل هذا الأخير في معركة «طروادة»

---

(١) الأدب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي على عبد الواحد وافي ص ٩١ دار نهضة مصر للطبع والنشر.

بسبب حرمانه تلك الدروع، فلما لقيه في العالم السفلي لم يسلم عليه على الرغم من استرضائه الطويل له.

وكذلك نرى إخيل يزهي وينتشي حينما يسمع ثناء «عوليس» على ابنه «نيوبتلموس» الذي لا يزال حياً في الدنيا.

ويذكر «هوميروس» على لسان «عوليس» أنه رأى في «هيدز» الإله «مينوس» جالساً على عرشه والصولجان الذهبي في يده، والموتى يعرضون عليه قضاياهم، وقد تجمعت جموعهم عند البوابات الكبيرة ينتظرون دورهم في عرض قضاياهم.

ومن ألوان العذاب التي رآها أنه شاهد «تينوس» الجبار منبطحاً على الأرض بحيث يشغل فضاء تسعة أفدنة، وعلى كل من جنبيه أفعوان هائل أرقم يتغذى بمضغ من كبده الكبير الدامي، ومن أحشائه الغلاط (وذلك جزاء على أنه حاول اجتذاب «لاتوتا» عشيقة كبير الآلهة. لا لأنه صنع شراً في العالم الدنيوي!).

وشاهد «سيفوس» يدفع أمامه صخرة عظيمة ليصل بها إلى قمة جبل، حتى إذا كاد ينتهي من عمله المضني تدحرجت الصخرة مرة أخرى فاستوت في أرض الجحيم والعرق ينحدر من جسمه وقد أضناه التعب الفظيع.

ورأى «هرقل» الجبار محكوماً عليه بأن يطيع ويخدم ابن عمه «يوريذوس» وذلك لمجرد تنفيذ شهوة لحيرا زوجة كبيرة الآلهة.

وهرقل هو ابنه من إحدى الإنسيات، رآه يحاول صرع الكلب «سيربيروس» وهو كلب إله الهيدز «بلوتو» وله ثلاثة رؤوس، وهو أداة تعذيب ينشب أظفاره في أرواح المجرمين.

وإذا رجعنا إلى كتاب على هامش التاريخ المصري القديم نجد أن المرحوم عبد القادر حمزة لاحظ أن هناك شبهاً كبيراً بين قصة سانتي وولده، وقصة عوليس في الأذية، فنذكر بعض ملاحظاته هنا ولي زيادة عليها، أولها أن «عوليس» ينزل إلى الجحيم في قصة هومير، «سانتي» وولده

ينزلان إلى الجحيم في القصة المصرية، وثانيها أن «مينوس» يقبض بيده على صولجان من الذهب في جحيم هومير، و «أوزريس» يقبض بيده على صولجان في العقيدة المصرية.

وثالثها أن الأموات يعرضون قضاياهم على «مينوس» في جحيم «هومير» والأموات يناديهم المنادون لعرض قضاياهم على «أوزريس» في القصة المصرية ورابعها أن الأموات واقفون أو جالسون في دور «الهاديس» ذات الأبواب الواسعة، والأموات واقفون أو جالسون في سبع قاعات في القصة المصرية[1].

ونزيد هنا أن المجرم في القصة المصرية يلقى إلى الوحش «إمابيت» وفي جحيم «هومير» يلقى الأفعوان ينهش كبد المجرم، أو الكلب ذو الرؤوس الثلاثة المخيف، وكذلك في الجحيم المصرية الطعام الذي فوق رأس المجرم يبعد كلما حاول الوصول إليه، وأشجار الفاكهة تبعد كلما مد المجرم يده إليها في جحيم الإغريق.

وكذلك يلاحظ عبد القادر حمزة أن هناك فارقاً جوهرياً بين الجحيمين. ذلك أن «هومير» يقول: إن «مينوس» يقضي بين الأموات وإن هؤلاء الأموات يعرضون عليه قضاياهم. وهذا معناه في رأي (موري) وهو مصيب فيه ـ أن القضايا منازعات بين الأموات بعد الموت كالمنازعات التي تكون بين الأحياء وليست حساباً يؤديه الأموات عن أعمالهم في الحياة.

«إذن ليست جحيم «هومير» دار حساب عن أعمال الناس في الحياة بل هي دار حساب عن مشاجرات ومنازعات بعد الموت».

وإذن تفقد جحيم «هومير» كل القيمة التهذيبية التي للجحيم المصرية.

وإذن يحق لنا أن نقرر هنا أن «هومير» أراد أن يقتبس قصة «سانتي» وولده المصرية ومحكمة «أوزريس» فقصر، لأنه اقتبس بعض الشكل وفاته

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٦٤ وما بعدها.

كل الجوهر[1].

وهذه ملاحظات نافذة يؤيدها ما رأيناه في جحيم «هومير» من أن بعض المعذبين هناك لا ذنب لهم إلا أنهم وقفوا في طريق شهوات كبير الآلهة أو زوجته حيراً أو غيرهما من الآلهة. والأساطير الإغريقية حافلة بما يؤيد أن الشهوات والنزوات هي التي محكمة، وأن الضمير والعدالة لا حساب لهما في الحياة الدنيا، ولا في العالم الثاني كذلك.

وهنا تنفرد العقيدة المصرية، وتتجلى آفاقها العالية في وسط هذه الوثنيات التي جاءت بعدها بحوالي ألفين من السنين.

وقد شغلت المعتقدات الدينية لقدماء اليونان حيزاً غير يسير من آدابهم، وتأثرت بها أدباؤهم أيما تأثر في مختلف عصورهم وفي جميع ما جاءت به قرائحهم، كما تأثرت بها حياتهم الاجتماعية في مختلف فروعها.

تدلنا أساطير اليونان وآدابهم أنهم كانوا يعتقدون أن وراء البيعة أربع قوى تسيطر على العالم وتشرف على شؤونه: القضاء، والآلهة، وأنصاف الآلهة، وأوراح أبطالهم الأولين.

### ١ ـ القضـاء:

فقد كان شعب اليونان يعتقد أن القضاء هو القوة العليا المسيطرة على الآلهة والأناسي وعلى كل ما في السموات والأرض، وأنه هو الذي يرسم كل شيء فيجري كل شيء وفق ما رسم، وأنه لا بد لمخلوق ولا لإله على نقص ما أراده أو تغيير ما قضى به.

### ٢ ـ الآلهـة:

فقد كانوا يرون أن الآلهة يشبهون البشر في معظم صفاتهم، فهم في نظرهم يأكلون ويشربون، ويتناسلون، وينامون، ويمشون في الأسواق،

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ـ مطابع الشعب ١٩٥٧م.

ويشغلون حيزاً من الفراغ، وتمر بهم الأزمنة، وتنتابهم الأمراض، ويرتكبون أحياناً الجرائم وينقادون لشهواتهم، ويغرر بهم، ويتزوج ذكورهم بإناثهم، وقد يتصل ذكورهم بإناث البشر وإناثهم بذكور الآدميين.

هذا إلى أن الجسمي لا يختلف في جملته عن تكوين بني الإنسان، وكل ما كانوا يمتازون به في نظرهم لا يتعدى صفتين: إحداهما البقاء، فهم على الرغم من حدوثهم أي نشأتهم بعد العدم ـ مخلدون لا نهاية لوجودهم، وثانيهما القدرة، ففي استطاعتهم أن يأتوا بما يعجز عن القيام به بنو الإنسان، ولذلك عهد إليهم بالإشراف على شؤون الكون، فاختص كل منهم بمظهر أو بطائفة من مظاهره وكانت تنقسم آلهة اليونان إلى طبقتين: إحداهما طبقة «كرونوس» أو «ساتورن» وثانيهما سبق؛ «زوس» أو «جوبيتير».

أما الطبقة الأولى فهم الأولاد المباشرون للسماء والأرض، فقد نشؤوا عن اتصال أبيهم «إيرانوس uranus» بأمهم الأرض «جوا Goea»، ومن أشهر أفرادهم:

١ ـ كرونوس Cronos أو ساتورن Saturne وهو رئيس هذه الأسرة وابن السماء والأرض، وتروى عنه الأساطير أنه قد أوصى إليه أن أحد أبنائه سيفتك به أو سيخلعه عن العرش، فأخذ على نفسه أن يأكل كل ذكر يولد له وقد وفى بعهده ولم ينج من أنيابه إلا ابنه جوبيتير.

٢ ـ ريا Rhea وهي زوج ساتورن أخته.

٣ ـ المحيط Ocean وهو ابن الأرض والسماء وأخو ساتورن.

٤ ـ جابيت Japet وهو ابن الأرض والسماء وأخو ساتورن وأبو بروميتيه وأطلس.

٥ ـ زوس Zeus أصغر أولاد ساتورن ورئيس الأسرة الثانية من الآلهة وأشهر آلهة اليونان على الإطلاق.

٦ ـ هادس Hedes ابن ساتورن وأخو جوبيتير وهو إله جهنم والموت

وكان تحت أمره زبانية كثيرون ووجد غيرهم كثير من الآلهة[1].

## ـ أبطـال اليونـان:

وأما أبطال اليونان الأول فهم الذين ترجع إليهم الأساطير الفضل في تأسيس مدينة اليونان، ونهضتهم في مختلف شؤون الحياة، وتفوقهم على ما عداهم من الشعوب، وتنسب إليهم تأسيس المدينة اليونانية ورد الغارات عنها.

ومعظمهم من الآلهة أو ممن يمتون إليهم بصلة قريبة، وقد حرص اليونان على تمجيدهم وتخليد ذكراهم، فنصبوا لهم التماثيل والهياكل والمعابد، وأقاموا لتكريمهم أعياداً دينية، وتقربوا إلى أرواحهم بتقديم القرابين، وخصوهم بأشكال من العبادات، وأنزلوهم منزلة من التقديس لا تقل كثيراً عن منزلة الآلهة، وملؤوا بذكرهم الأقاصيص والأساطير، وألفوا في الإشادة بهم والترجمة لهم وتفصيل حروبهم وانتصاراتهم وآثارهم وما كان لهم من فضل على البلاد وما امتازوا به على سائر الخلق من صفات مكتسبة وموهوبة.

وألفوا في هذا كله قصائد طويلة ممتعة تكون منا فرع هام من فروع آدابهم وهو الأدب الحماسي واستأثرت بقسط كبير من نشاطهم العقلي والاجتماعي.

ومن أشهر هؤلاء الأبطال جمهرة جاء ذكر أفرادها بالإلياذة والأديسا لاشتراكهم في حرب طروادة[2].

فمن الواضح أن أقدم وثيقة يعتد بها من الوثائق التي حفظتها الآثار

---

(١) الأدب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي على عبد الواحد وافي ص ١١ بعدها دار نهضة مصر للطبع والنشر.

(٢) أساطير العالم القديم ترجمة دكتور أحمد عبد الحميد يوسف مراجعة دكتور عبد المنعم أبو بكر ص ٢٠٦ وما بعدها الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

التاريخية عن الأدب اليوناني القديم هي إلياذة هوميروس ومهما يكن من خلاف في أمر إلياذة، فإن تاريخ تأليفها أو تأليف أقدم قطعة فيها لا يعدو القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد، ولما كان من المعروف أن نشأة الأمة اليونانية أقدم من هذا العهد بعدة قرون ومن غير المعقول أن تكون قرائح هذا الشعب قد ضرب عليها العقم طوال هذه الفترة السابقة لهوميروس فلم تنتج شيئاً في أية ناحية من نواحي الآداب لأن هذا يتعارض مع نواميس الحياة ولا يمكن تصوره في أي مجتمع إنساني، فلا بد إذن أن تكون الإلياذة، قد سبقت بمنتجات أدبية اندثرت وعفى عليها الزمان فلم يصلنا منها شيء يعتد به.

على أن الإلياذة نفسها تعتبر أصدق دليل على ذلك إذ أنها قد بلغت في ألفاظها وتراكيبها وأساليبها ومعانيها ومناهج دراستها للحوادث التاريخية شأواً راقياً لا يمكن أن تبلغه أمة في مبدأ عهودها، ولا يعقل أن تصل إلى مثله آداب إنسانية إلا بعد أن تكون قد سارت شوطاً طويلاً وبعيداً في سبيل النمو والارتقاء وقد جاءت بحوث علماء الآثار مصدقة لذلك، فقد عثر في مختلف بلاد اليونان على آثار سحيقة في القدم لحصون وقصور وقلاع وآنية من الذهب والنحاس والزجاج الملون وما إلى ذلك من أشياء تدل على ازدهار حضارة كبيرة في هذه البلاد وغني عن التوضيح والبيان أن مدينة وحياة هذا شأنهما يفتقان القرائح، ويجريان الألسنة ببليغ القول، وينبثق من ثناياهما الشعر، ويلازمها الفناء.

غير أن عدم وصول شيء يقيني بين أيدينا عن الأدب في المرحلة السابقة لهوميروس يحول بيننا وبين تكوين رأي صحيح بصدده فكل ما يسعنا أن نذكره بشأنه لا يخرج عن التخمين وفروض وآراء ظنية واستنتاجات، ولا يمكن أن يسمو إلى مرتبة العلم الصحيح - وإليك أمثلة من ذلك:

- ورد في بعض الأساطير اليونانية أنه قد ظهر في أقدم العصور التاريخية عدد من الشعراء الغنائيين الدينيين، أي الذين تدور قصائدهم حول الشؤون الدينية كتمجيد الآلهة والتوسل إليها وما إلى ذلك، وإن هؤلاء

الشعراء كانوا أبناء الآلهة أو مقربين لربات الفنون المتسعة «الموز Muses» وهن بنات جوبيتير جاء بهن سفاحاً من ميموزين Mnenosyne بنت السماء والأرض وآلهة الذاكرة وعددهن تسعة كعدد الفنون اليونانية وقد اختصت كل منهن بفن من هذه الفنون وأنهم قد ظهروا بالقسم الشمالي من بلاد اليونان وخاصة بمدينتي تراس وبيريه Thrace, pierie.

ولكن كل ما ورد بشأن هؤلاء الشعراء وتاريخهم لا يختلف في شيء عن الأساطير. أما ما نسب إليهم من قطع غنائية دينية Hymnes فيظهر من تحليله أنه من تأليف عصور لاحقة للعصر الهوميري.

غير أن هذه الأساطير ـ على ما بها من اختلاق وتلفيق ـ تلقي بعض الضوء على الموضوع الذي نحن بصدده، فهي تحمل على الظن أنه قد ظهر في عصور سحيقة في القسم الشمالي من بلاد اليونان بعض الطقوس الدينية التي تشتمل على قطع غنائية مقدسة، وأن هذا النوع من الغناء كان من أقدم المنتجات الأدبية اليونانية.

ويؤيد هذا الفرض ما ورد في الأساطير بصدد ربات الفنون الأبية (الموز Muses) فقد جاء أن بلدة بيرية Pierie الواقعة في القسم الشمالي من بلاد اليونان كانت مسقط رؤوس هذه الآلهة[1].

وورد في أساطير أخرى ذكر لشعراء آخرين من هذا النوع تزعم الأساطير أنهم ظهروا في القسم الشرقي من بلاد اليونان في جزر بحر إيجه Mer Egee وبخاصة في مدينتي ديلوس Delos وقريط Crete وأنهم كانوا يخصون الإله أبولون Apollon بن جوبيتير بمقطوعاتهم الغنائية ويستلهمونه الشعر. وقد أقاموا له في مختلف مدنهم، وبخاصة في دلف، معابد كثيرة كان يحج إليها اليونان وغيرهم ليؤدوا مناسكهم ويشهدوا منافع لهم ويسألوا الكهنة عما يضمر الغيب.

---

(١) الأدب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي علي عبد الواحد وافي ص ٥٦ دار نهضة مصر للطبع والنشر.

وقد ظلت القطع التي تنسبها إليه الأساطير يتغنى بها في مختلف المناسبات حتى القرن الخامس قبل الميلاد.

ولا يختلف رأينا في هؤلاء الشعراء وما ينسب إليهم عن رأينا في الشعراء السابقين. غير أن الأساطير المتعلقة بهم تحمل على الظن والتخمين أن أقدم المنتجات الأدبية لم تظهر في الشمال فحسب، بل ظهر أنواع منها في الشرق كذلك.

وأغلب الظن أن آداب هذا العصر كانت تشتمل كذلك على شيء من «الشعر الحماسي» ووجدت أيضاً مقطوعات من «الشعر الوجداني» ترمي إلى التعبير عما يساور النفوس من عواطف وأن هذه المقطوعات كانت متنوعة المناحي مختلفة الموضوعات.

وخلاصة القول: إن العصر الهوميري قد وجد بين يديه تراثاً أدبياً جليلاً من العصور السابقة فاستغله ونقحه وأظهره في الصورة التي عليها الإلياذة والأوديسيا من منتجات هذا العصر ولعل الأوديسيا هي التي يظهر فيها بوضوح ذكر العالم الآخر.

وسميت بالأوديسيا نسبة إلى بطلها الأساسي أوديسيوس أويوليس Odusseus - ulysse وهو أحد أبطال اليونان في حرب طروادة.

وقد قسمها علماء العصر الإسكندري إلى أربع وعشرين أنشودة، لتسهيل دراستها، وتدور حوادثها الأساسية حول مرحلة واحدة من سفر أو ديسيوس، ولكن يفهم منهم استطراد مجمل ما حدث في المراحل الأخرى.

وقد عرضت الأوديسيا لقصص كثيرة مختلفة في نوعها اختلافاً غير يسير فبعضها يشبه الخرافات التي تقص لصغار الأطفال، وبعضها من نوع قصص الرعاة، وبعضها يمثل روايات المأساة وهلم جرا.

ولكن هذه الأقاصيص على اختلاف نوعها، قد ألف بينها رباط وثيق وجمع شتاتها مد قوي، فدارت حول بطل واحد وهو أوديسيوس واتجهت كلها نحو غاية واحدة، هي تصوير مبلغ حيلته في التغلب على ما اعترضه

ووصف ما قاساه من شتى ألوان العذاب وما كان يدفعه من عزم قوي، ويساوره من حنين إلى وطنه وأهله وملكه، فتماسكت بذلك أجزاؤها، واختفى تنوع أقاصيصها أمام وحدة غرضها وموضوعها، وتمتاز الأوديسيا بما تشتمل عليه من مناظر ممتعة، وحوادث غريبة، وأقاصيص جذابة تأسر اللب وتأخذ بمجامع القلوب فينتقل فيها النظر من بحر خضم يجري على سطحه فلك صغير تتقاذفه الأمواج وتلعب به العواطف إلى جزيرة مجهولة لم تطأها قدم إنسان قبل أوديسيوس، وفي هذه الجزيرة يرى القارىد طائفة كبيرة من المناظر الغريبة فيمر به منظر الجهارين أكلة لحوم البشر، وبنات البحر الفاتنات، والجزيرة الطافية على وجه الماء، وأنواع كثيرة من عجائب المخلوقات، ومناطق شاسعة تسكنها الآلهة، وإقليم الموتى، حيث تتجمع أرواحهم، وتتناجى أشباحهم.

ثم يتغير المنظر، فإذا بنا في جنة أرضية تجري من تحتها الأنهار، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، يعيش أهلها في نعيم مقيم وسعادة أبدية، أعمالهم رقص وغناء، وحياتهم مرح وأعياد، وهذه الجزئية هي التي تهمنا في البحث وقد سبق أن ذكرت جزءاً من نصها عندما تحدثت عن الديانة الإغريقية.

وتعتمد الأديسيا على العقائد الدينية نفسها التي تعتمد عليها الإلياذة فأفراد الآلهة يظهرون في الأوديسيا بنفس الوظائف والاتجاهات والصفات التي يظهرون بها في الإلياذة، غير أنهم يبدون في الأوديسيا في صورة أدنى إلى الكمال من الصورة التي يبدون بها في الإلياذة.

فمن الواضح أنه لا يوجد في الأديسيا أثر لتلك المشاحنات والخصومات العنيفة التي تصورها الإلياذة أنها قائمة بين ثلاثة من إناث الآلهة[1].

---

(١) الأدب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي علي عبد الواحد وافي، ص ٦٦.

حقاً إن نيتون يظهر في الأوديسيا عدد للآلهة أثينا حامية بوليس وزوجه وولده، ولكن هذه العداوة لم تؤد إلى نزاع شديد، أو خصومة سافرة، أو اشتباك بين الإلهين، بل حرصت الأوديسيا على أن يبدأ عمل كل منها عندما ينتهي عمل الآخر وأن لا يظهر أحدهما على مسرح الحوادث إلا بعد أن يتوارى زميله ـ هذا إلى أن أعضاء المجمع الأولمبي[1]، وعلى رأسهم جوبيتير، يظهرون في الأوديسيا بمظهر العدل والحرص على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وتلك صفات لا تكاد نجدها عند آلهة الإلياذة فالديانة التي تصورها الأديسيا أرقى كثيراً من الديانة التي تنبىء عنها الإلياذة، على الرغم من اتفاقهما في جوهر العقائد.

فالإلياذة تدلنا على الديانة العامة والديانات المحلية الخاصة للشعب اليوناني.

ولعل هذا يرجع إلى أن المعتقدات اليونانية كان قد نالها شيء من التهذيب في الفترة الفاصلة التي كانت بين تأليف القصيدتين وزن هوميروس قد تأثر في كلتيهما بما كان عليه الشعب اليوناني من أديان في عصر تأليفها.

---

(١) كان اليونانيون يعتقدون أن آلهة الأسرة الثانية يعقدون جلساتهم بجبال أوليمبيا ولذلك سمي مجمعهم بالمجمع الأولمبي.

# الفصل الرابع
# البابليون

نبدأ بالمدينة الكلدانية فقد تقدم برستيد عوض لمركزها ومركز مصر من عقيدة الحساب بعد الموت فقال:

إن هذا الفهم (أي فهم المصريين) لقواعد السلوك يبلغ من السمو حداً بعيداً وهو أول إبراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا في الحياة الأخرى متوقف كله على أعمالنا في الحياة الدنيا ومجموع هذا النظام القادم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به، لأنه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عن أية أمة من الأمم الأخرى. فقد كان البابليون (أي الكلدانيون) والإسرائيليون في الوقت الذي اهتدى فيه المصريون إلى هذه العقيدة، ينزلون جميع الأموات في مكان مظلم لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساؤوا[1].

وهذا بصحيح فحينما عرف البابليون (الكلدانيون) شيئاً عن هذا العالم بعد ألف سنة كاملة قد انقضت وبعد اهتداء الضمير المصري إلى عقيدة الحساب وقبل أن تعرف أية أمة أخرى شيئاً عن العالم الآخر - فلم تكن العدالة المطلقة عند البابليين هي التي تتحكم في مصائر الموتى، ولم يكن الجزاء على الخير والشر في العالم الآخر، بل كان الموتى ينتقلون إلى مكان مظلم يسمى «أرالو» تحت الأرض في رأي البعض منهم، أو في الركن الشرقي منها في رأي البعض الآخر حيث تتولى الآلهة (آلات)

(١) على هامش التاريخ المصري القديم عبد القادر حمزة ص ٦٢.

محاكمتهم[1].

وفي هذا يقول مسبيرو:

لم يكن للخير أو الشر الذي فعله الميت في حياته قيمة كبيرة في تقدير أعماله وإنما كان التقدير كله لما أظهره الإنسان على الأرض من التعلق بالآلهة عامة وبالإلهة (آلات) خاصة بتقديم قرابين الذبائح والهدايا وتقديم أسباب الغنى للمعابد[2].

ومن هنا لا يكون هذا الحساب حساب على أعمال الإنسان في الدنيا، بل يكون على تقديم الهدايا للمعبودات والمعابد، أي للكهنة الذين هم أنفسهم الذين وضعوا هذه العقيدة في نفوس الناس من أجل منفعتهم.

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن، ص ٢١ و ٢٢ ـ دار الشروق.

(٢) على هامش التاريخ المصري القديم ـ ص ٦٦، عبد القادر حمزة.

# الفصل الخامس
# الديانات الهندية

البعث أو القيامة في الديانات الهندية، لا يمكن أن تضبط له صورة واحدة إذ كان للقوم مئات من الديانات، وألوف لا حصر لها من المذاهب. وذلك أن الذي في الهند نشأ في ظل فلسفة تقوم على الاستبطان والتأمل العميقين فلسفة أساسها تجويع الجسد، وإرهاقه بالرياضات العنيفة الصارمة ومن ثم فقد كانت نتائج هذه الفلسفة مختلفة أشد الاختلاف، حسب استعداد النفوس لها وتفاعلها معها. فكان لكل إنسان مفهومه الخاص لهذه الفلسفة على حسب معطياتها له، وآثارها فيه، فلو أخذنا مذهباً أو ديناً من الديانات الواسعة الانتشار، والقوية السلطان هناك ـ كمذهب أو ديانة «بوذا» مثلاً نجد هذا المذهب قد تشعبت مذاهبه، واختلفت طرائقه، وأصبحت مقولاته في الأمر الواحد إيجاباً عند بعض الأتباع وسلباً عند البعض الآخر.

التناسخ: والذي يغلب على الديانات الهندية جميعها في أمر البعث هو إنكار البعث الشخصي على الصورة المعروفة في الديانات السماوية فلم يكن في ديانات الهند القديمة كلها نظر إلى البعث الجسدي ومن هنا نشأت عقيدة حرق الأجساد بعد موتها.

على أن الإنسان إذا مات فلن تطوى صفحته إلى الأبد بل إن روحه تنتقل في حيوانات أخرى، وتلبس صوراً وأجساداً لا تنتهي متى بلى جسد، ليست جسداً! والعقاب والثواب ليسا جنة ولا ناراً، وإنما هما في الجسد الذي تنتقل إليه الروح بعد مفارقتها الجسد الذي كانت تلبسه فإن كانت

أعمالها رديئة في الجسد الذي فارقته، لبست جسداً لحيوان خسيس، وإذا تم عقابها بقدر جرمها طهرت وانتقلت من جسم ذلك الحيوان إلى حيوان أرقى وهكذا تتقلب في دورات لا تنتهي.

وأصحاب مذهب التناسخ فرق: فرقة يجوزون كرور النفس في جميع الأجساد البالية، نباتية كانت أو حيوانية.

وفرقة يقصرون ذلك على الأبدان الحيوانية.

وفرقة لا يجوزون دخول نفس إنسانية في نوع غير الإنسان أصلاً ثم هم بعد ذلك فرقتان:

فرقة توجب التناسخ للنفس الشقية وحدها حتى تستكمل وتسعد فتخلص من المادة وفرقة توجب ذلك للنفسين جميعاً: الشقية، والسعيدة، الشقية في أبدان تعبة، والسعيدة في أبدان نعمة وراحة[1].

وقد وجد الهندي في عقيدة التناسخ شيئاً من العزاء أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن فزع منها، لأنها ربطته بعجلة الموت والحياة من جديد ودارت به في حركات سريعة أبدية ووجد في الفناء الأبدي المطلق الراحة الكبرى، والخلاص المطلق من هذا الوثاق العتيد الذي لا ينفصم، لقد طلب الهندي الخلود عن طريق التناسخ فوجده عذاباً فوق عذاب إن الحياة في ذاتها - في نظر الهندي - محنة وبلاء والهرب منها إلى حيوانات أخرى معناه مضاعفة المحنة، وتغليظ البلاء.

ومع أن الديانة البوذية حديثة النشأة فقد نشأت قبل الميلاد بحوالي ٥٠٠ عام فهي لا تؤمن بهذا التناسخ، ولا ترى تعذيب البدن لتطهير الروح، وترفع عن الروح الإنسانية عبء المخاوف وتطمعه في رحمة الله، وتبشر الفرد بالوصول إلى درجة «النيرڤانا» متى صفت روحه وتخلصت من حب الذات ولذائذ الجسد واتجهت إلى الروح الأعظم بكل قواها ومن كلمات

---

(١) رسالة أضحوية في أمر الميعاد لابن سيناء تحقيق سليمان دنيا ص ٤١ دار الفكر ١٩٤٩م.

بوذا عند احتضاره لتلميذة «أناندا» نفهم هذه النزعة:

«أشار إلى جسده قائلاً: هذا المزيج يجب أن يتحلل إلى عناصره ويتلاشى لا يحولك شأن من الشؤون عن مواصلة جهادك الروحي يا أناندا وسوف نخلص من سوأة الخزعبلات والجهالة».

«يا أيها الرهبان، تلكم هي الحقيقة السامية عن الآلام: الميلاد عذاب، الشيخوخة عذاب، المرض عذاب، الموت عذاب، فراق ما نحب عذاب، فوات ما نتوق إليه عذاب، وقصارى القول التعلق بالحياة عذاب».

«تكلم أيها الرهبان، الحقيقة السامية عن وقوف الآلام: تقف الآلام بوقوف هذا الظمأ، وهو وقوف لا يتأتى إلا في غياب العواطف تقف بالتخلي عن الظمأ بالاستغناء عنه بالتخلص منه بالقضاء على شهوات النفس».

«تكلم ـ أيها الرهبان ـ الحقيقة السامية عن السبيل إلى وضع حد للآلام هو السبيل ذو المسالك الثمانية: صدق الإيمان، وصدق الحديث، وصدق السلوك، وصدق الكسب، وصدق الاجتهاد، وصدق التفكير، وصدق التأمل[1] ألا سبيل إلى موت بلا رجعة؟».

لقد فكر الهندي في هذا طويلاً.. وبحث في كل أفق رجاء العثور على الجواب الذي يحقق له هذا الرجاء لقد أفنى «الهندي» أجيالاً طويلة حتى وقع على الجواب المطلوب لهذا السؤال:

إنه «النرڤانا» ولا شيء غير: «النرڤانا» غاية ينتهي إليها الإنسان، ويحمد عندها السرى كما يقولون النرڤانا:

قلنا إن الهندي بعد أن فتح عليه وهداه التفكير في الموت باباً للخروج من العدم الأبدي، وقع على فكرة التناسخ وقلنا إن هذه الفكرة قد استراح لها الهندي زمناً، ثم وجدها بعد ذلك قيداً ثقيلاً يقيده بالحياة في دورة

---

(١) سندباد عصري حسين فوزي: يلاحظ أنها سبعة لا ثمانية ص ٢٨.

الموت والولادة لا تنتهي، تسلطت على «الهندي» عقيدة التناسخ فكانت سبباً لهمومه وضجره بالحياة وفزعه من الموت لأنه لا يعلم ولا يدري المهوى الذي يهوى إليه بعد موته ولا يعلم الكائن الذي تحل فيه قد يكون حماراً أو كلباً أو دودة.

فالتمس «الهندي» وسيلة للهروب من هذا المصير المشؤوم وكان أن وجد بعد تفكير عميق وجهد وعناء، وتأملات عميقة وجد، «النرڤانا» وهي: عودة روحه إلى «المطلق»حيث السكون والجمود. فإذا اقتلع الإنسان بالتزهيد كل شهوات نفسه لم يعد هذا الإنسان فرداً جزئياً قائماً بذاته، إنه يمكن بهذا أن يتحد في نعيم أسمى مع روح العالم، وبهذا الاتحاد يخلص من العودة إلى الولادة من جديدة[1].

ويعلق «ول ديورانت» على هذه العقيدة، وأثرها في الواقع الإنساني فيقول:

«إنها جنة صارمة تلك التي يهرب إليها الهاربون من التناسخ لأن الفرد هناك لن يشعر بفرديته، بل كل ما سيتم هناك هو امتصاص الفرد في «الوجود» هو عودة الجزء إلى الاتحاد بالكل الذي انفصل عنه حيناً من الدهر فكما تتلاشى الأنهار المتدفقة في البحر، وتفقد أسماءها وأشكالها، فكذا الرجل الحكيم إذا ما تحرر اسمه وشكله يفنى في الشخص الكلي الذي فوق الجميع.

وينتهي «ول ديورانت» إلى القول بأن مثل هذا الرأي في الحياة والموت لن يصادف قبولاً عند الغربي الذي تتغلغل الفردية في عقيدته الدينية كما تتغلغل في أنظمته السياسية والاقتصادية نجد مثل هذه الفلسفة سائدة في التفكير الهندي من «بوذا» إلى «غاندي» ومن «ياجنافالكيا» إلى «طاغور»[2].

إن فلسفة الهند الدينية في شأن البعث هو الفناء في «المطلق» الفناء الذي لا ينال إلا بالمجاهدة والرياضة التي لا يقدر عليها إلا من ملك زمام نفسه وبعد بها عن مطالب الجسد وشهواته.

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت الجزء الثالث ترجمة محمد بدران ص ٥١.

(٢) المرجع نفسه.

هذا ولم يكن الاتصال المطلق بالوجود، هو المدلول الوحيد الذي كان يفهمه الهنود من كلمة «النرڤانا» فإن هذه العقيدة بعد أن عاشت في واقع التجربة مع المؤمنين بها، تشكلت في صور متعددة، ووقعت من نفوسهم مواقع مختلفة فخرجت منها مذاهب شتى، وتولدت عنها ديانات لها طقوس ومراسم كثيرة.

الهند من الأمم ذات التاريخ المجيد، بها مدينة قديمة، وحضارة توغل في القدم إلى أبعد أغوار التاريخ، غير أن تلك الحضارة قد أنبتت الصلة بيننا وبين جزء كبير منها، ولذا صار كنزاً مدفوناً في بطون القدم، لم يكشف عنه التاريخ بعد، والآثار الباقية التي اتصل تاريخها هي الجزء من تاريخهم التي ابتدأ بالغزو الآري غير أن الكشف والبحث والنقوش، وما تنطق به الأحجار التي لم يؤثر فيها شيء، وكل ذلك يشير إلى أن طيات ذلك الدفين الذي لم ينشر من قبره بعد حضارة زاهية، ومدنية سامية لسكان تلك الأصقاع المترامية الأطراف الكثيرة الخيرات بيد أن تلك الإشارات لا تزال مبهمة تشير إلى وجود حضارة سامية ولم تبين كنهها وحقيقتها وكل ضاحيها وحال السكان من غني أو فقير ونظم الحكم ومقدار العلوم، وفروعها، وغير ذلك من مقومات الحضارة وعناصر تكوينها فكل هذه الأمور لا يزال البحث جارياً في كشفها وإعلانها.

أما بعد الغزو الآري فقد تكونت حضارة اتصلت سلسلتها وأحاط بها التاريخ، وهي متماسكة الحلقات، فإن التاريخ يذكر لنا أن قبيلة آرية غزت الهند حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد وفرضت على الهنود مدنيتها وحضارتها وديانتها وطمسوا حضارة الهند التي كانت لهم قبل الغزو ولم يتركوهم أحراراً في ديانتهم القديمة، بل فرضوا عليهم ديانتهم هم ونسخوا آلهتهم واستبدلوا بها آلهتهم التي يعبدونها هم.

وجملة القول إن أولئك الغزاة كانوا يحملون معهم ديانة أخرى غير ديانة الهند القديمة.

والديانة القديمة فإن التاريخ لا يشير إليها إشارة واضحة ولكن جملة ما

يقال فيها، وتشير إليه الآثار أن قوام هذه الديانة عبادة النيران، فإنها كانت المعبود المقدس الذي تقدم إليه القرابين، من خبز وأعشاب وخمر ويتولى الكهنة، وهم سدنة معابد النيران، القيام بما يقتضيه التقديم طقوس ورسوم في تلك الديانات، ولم تكن النار الإله المنفرد بالألوهية، بل كان يشاركها في التقديس آلهة أخرى منها الشمس، ومنها حيوانات مخيفة، وكانوا يعتقدون أن هناك عالم آخر وهو عالم الأموات وأن الأخيار إذا ماتوا وقد رضيت عنهم آلهتهم تمنح أرواحهم معرفة الغيب، وقدرة على التأثير في الكون، والمشاركة في تصريفه بمجرد مغادرتها الأجسام وقد استمرت تلك الديانة هي السائدة في الهند حتى جاءت ديانة الفاتحين.

ولعل أقدم كتبهم الفيدا، ولم يعرف المؤخون عصر كتابتها على وجه التحقيق والضبط، وأقصى ما تأكد لديهم أن الفيدا كانت موجودة قبل خمسة عشر قرناً فقد كانت مع الفاتحين الأولين على أنها من أصول ديانتهم والفيدا مجموعة الأشعار ليس في كلام الناس ما يشابهها، في زعمهم، ويقول جماهيرهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بأمثالها.

والفيدا أربع مجموعات لكل واحدة منها نهج خاص في القراءة وتلخيص خاص في الإلقاء ومواضع لا يتلى فيها غيرها، ولا يرتل فيها سوى نوع خاص من بينها وأولها نوع يقال له:

«الرجفيدا» وله ثلاثة مناهج للتلاوة، ويرتل عند تقديم قرابين النار.

**وثانيها**: ويقال له:

«الهاجورفيدا» والفرق بينه وبين الأول في النغم والتلحين، وإن كان مثله يقال عند تقديم القرابين.

**وثالثها**: «السامافيدا» وله نغم أيضاً خاص به ويرتل عند صنع الشراب المقدس وتناوله.

**ورابعها**: «الآثارفيدا» ويتلى عند السحر والتعاويذ وله لحن خاص به.

ويتكون لكل مجموعة من هذه الأشعار أسطورة كانت سبباً لتنزيله كما يزعمون، فمثلاً:

أسطورة «ريج هيدا» تتألف من ١٠٢٨ أنشودة لطائفة من المؤلفين الكهان لاستعمالها في التضحية الفيدية العامة، حيث كانت الآلهة الآرية تستضيء وتقوى بها، فتساعد لقاء ذلك المشرف على الأضحية على تحقيق أهدافه المشروعة.

وبهذه الوسيلة تعاون الناس والآلهة على إبقاء الكون عاملاً في سهولة ويسر ويرفضون تسخير المردة وحلفائهم من البشر المضللين.

كما أن لهم كتباً غير هذه تسمى البرهميات وهي كتب من منثور القول لا من منظومة كالفيدا وهي أقسام كثيرة، وموضوعاتها مختلفة فمنها ما فيه أحكام شريعتهم وفقه ملتهم من حث على الخلاص، وترغيب في فداء الروح بالجسم وغير ذلك ومنها ما هو خاص بالمطالعات التي يطالعها النساك الذين ينسابون في الأحراض ويرغبون في التخلص بالفعل من المادة لينعموا بحرية الروح، فيطالعون تلك الكتب لتقوى عزائمهم ويستحفظونها ليغطوا العالم الباطني بالروح الأكبر وترتبط نفوسهم بالموجود الأعظم.

ومنها كتب في أصول عقائدهم قد ذكرت فيها نشأة العالم وكيف نشأ ثم كيف ظهرت آلهتهم التي يزعمونها، وكيف وجدت المخلوقات وكيف وجد الإنسان وكيف كانت خواصه وكيف تكون المعرفة وغير ذلك من المعلومات التي تتصل بآلهتهم وبالإنسان ونفسه وعلاقته بالآلهة والكون[١].

أما كتب المذهب أو الديانة البوذية فهي كتب ليست منزلة ولا يدعون ذلك هم، بل هم لا ينسبون ما فيها إلى جانب إلٰهي، بل هي عبارات منسوبة إلى بوذا أو حكاية لأفعال أو نقل لما أقره من أعمال اتباعه ونصوص تلك الكتب مختلفة بسبب انقسام البوذيين في نحلهم. فبوذيو الشمال لديهم نصوص ليست عند أهل الجنوب، وأكثرها قد اشتمل على أوهام كثيرة، تتعلق ببوذا، أو حلول الإله فيه، ونصوص بوذيو الجنوب هي الأصح نسباً،

---

(١) أساطير العالم القديم: أحمد عبد الحميد يوسف مراجعة عبد المنعم أبو بكر ص ٢٤٨ وما بعدها.

والأصدق قولاً والأبعد عن الأوهام، وهي التي نذكرها.

تنقسم تلك الكتب إلى ثلاثة أنواع:

**أولها**: يشتمل على مجموعة قوانين البوذية ومسالكها وقد جمعت تلك المجموعة سنة **٣٥٠**ق.م، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

وقسم يحوي التعاليم التي يجب اتباعها لتربية النفس على ما يدعو إليه البوذيون، وفيه قرارات المجالس البوذية التي انعقدت فيما بين سنتي **٣٨٠**، **٣٢٠**م وفيه أيضاً بيان بما يتبع لقبول طالبي البوذية واجتمعات البوذية، وتفاصيل حياة البوذي.

وقسم فيه خلاصة القسمين الماضيين، ليكون في متناول الجماهير، وفيه خلاصة للسلوك القويم الذي يدعوا إليه البوذيون.

**ثانيها**: مجموعة الخطب التي ألقاها بوذا ووصاياه وهي مجموعة مختلفة تضم كل مجموعة طائفة من المسائل المتقاربة في الفكر وفي هذه الخطب وصايا بوذا ودعواته التي وجهها إلى الناس وكثير من الأحكام التي تتصل بالبوذية مما يجب على البوذي سلوكه وكل هذه الخطب والوصايا تنسب لبوذا.

**ثالثها**: الكتاب الذي فيه الفلسفة التي قامت عليها الديانة البوذية، والأصل الذي استنبطت منه تعاليمها، وفيه بحوث تدور حول الخير والشر، واللذة والألم، وفي الجملة نرى في كتب البوذية وآدابها كل ما خصبا فيما فيه بيان للأخلاق والسلوك المستقيم.

# الفصل السادس
# ديانات العرب الجاهليين

من المعروف أن العرب الجاهليين كانت لهم أديان متعددة:

١ ـ فمنهم من عبد الشمس والقمر والكواكب والنجوم.

٢ ـ ومنهم من عبد الأصنام والأوثان.

٣ ـ ومنهم من عبد الله على دين الحنيفية، دين إبراهيم وإسماعيل.

٤ ـ ومنهم من دخل في النصرانية.

٥ ـ ومنهم من اعتنق اليهودية.

وهكذا تعددت ملتهم ومذاهبهم.

وقد اعتبر العرب القدامى الموت مظهراً طبيعياً كما رأوه وهو فناء الجسد والنفس معاً.

والموت يرصد دوماً الإنسان وهو قريب منه أينما كان ولا يعلم أحد متى يحين أجله، ويشد رسنه، وفي ذلك يقول طرفة بن العبد[1]:

---

(١) طرفة بن العبد: هو طرفة بن العبد بن سنان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة الشاعر الجاهلي المشهور وضعه ابن سلام في الطبعة الرابعة انظر معجم الشعراء للمرزباني، والمؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم للأمدي ج ١ ص ١٤٦ طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ج ٢ ط ٣ ص ١٤، ١٩٨٢م.

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي[1]
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي
أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوي في البطالة مفسد[2]
ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صمم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد[3]
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخي وثناياه باليد[4]

لقد أحس طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي بالحياة والموت والوجود والعدم إحساساً عميقاً فحاول أن يتغلب على الإحساس بالموت الذي هو يعني الفناء والتناهي بالانغماس في اللهو ومتع الحياة ويرى أن ذلك هو أفضل الطرق لمواجهة هذه الحياة وفنائها المحقق ويظهر هذا بوضوح من استفهامه الإنكاري في البيت الأول:

«هل أنت مخلدي» ومن الشرط وجوابه المقترن بالفاء الذي يدل على السرعة وفعل الأمر «فدعني أبادرها» ومن هنا أخذت فكرة الموت زمام عقل طرفة، فإذا هو يفكر ليل نهار ويفكر في الحياة والإنسان فيجد أن الموت ملازم له، ويظهر ذلك بوضوح في تكريره لفظ «أرى» أرى قبر نحام أرى الموت يعتام الكرام، أرى العيش كنزاً ناقصاً، صارخاً مفزوعاً لما توصل إليه من استغراقه في التفكير في الموت إلى أن الكل تحت وطأة الموت واقع

---

(١) الوفي: أصله صوت الأبطال في الحرب ثم جعل اسماً للحرب. الخلود: البقاء والفعل خلد يخلد.

(٢) النحام: الحريص على الجمع والمنع. الغوى: الغاوي الضال.

(٣) الاعتيام: الاختيار العقائل: كرائم المال والنساء والواحدة عقيلة، الفاحش: البخيل.

(٤) الطول: الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه، الأرخاء: الإرسال، أثنى: الطرف، والجمع الأثناء، انظر ديوان طرفة بن العبد حققه وقدم له فوزي عطوي ص ٤٦، ٤٨، دار صعب بيروت ١٩٨٠م وكذا شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٦٠، ٦٢، ٦٣.

ولسطوته وجبروته خاضع، فالموت عنده وراءه قوة قادرة وإرادة قاهرة لا يستطيع أن يفلت منها أحد[1].

ولعل هذا هو ما جعل بعض النقاد يقول عنه:

هذه صرخات إنسان حائر أو من التفكير في الموت ومزقته الحيرة في بحث أسرار الوجود والعدم والبدء والنهاية.

وحاول أن يروي ظمأه من متاهات الوجود ولغز العدم فلم يظفر ولو بقطرات قليلة من ضوء اليقين، فكان تخبطه في ممارسات الحياة اليومية الثائرة على قيم المجتمع وانهماكه في مغامرات اللذة المتمردة على التقاليد المألوفة وكأنه يتعدى لغز الموت الساخر وأسرار الوجود المحجبة وغوض المصير الرهيب باستنفاد كل طاقة للحياة[2].

ومن أبيات طرفة بن العبد التي يتحدث فيها عن الموت أيضاً قوله:

من كان في سفر فالموت صاحبه  أو كان في حضر فالموت يأتيه
وإن مضى خمسة فالموت سادسهم  وإن مضى واحد فالموت ثانيه[3]

ونجد أن طرفة بن العبد يتوصل من خلال تفكيره لما فعله الدهر بالأمم السالفة إلى حتمية الموت فيقول:

فكيف يرجي المرء دهرا مخلدا
وأعماله عما قليل تحاسبه
ألم تر لقمان بن عاد تتابعت

---

(١)(٢) القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه حتى منتصف القرن العشرين ١٩٥٠م د. ثريا عبد الفتاح ملحس ص ١٥٣ دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.

وكذا أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حياتهم. آثارهم ـ نقد ـ آثارهم بطرس البستاني ص ٥٨، الطبعة الخامسة مكتبة صادر بيروت وكذا مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق ص ٩٤ العدد الثامن ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٣) تيارات معاصرة في التراث العربي سعد دعبيس ج ١ ص ١١٠ طبعة دار الثقافة سنة ١٩٧٨م.

عليه النسور ثم غابت كواكبه[1]

ولعدي بن زيد العابدي[2] أشعار في الموت والفناء وزوال الحياة فنجده يتحدث على لسان حال المقابر متحدثاً عن الموت والحياة ذاكراً أن الدنيا غير باقية فيقول:

من رآنا فليحدث نفسه ... أنه موف على قرن زوال
وصروف الدهر لا يبقى لها ... ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا عندنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا دهراً بعيش حسن ... آمني دهرهم غير عجال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم ... وكذاك الدهر يودي بالرجال
وكذاك الدهر يرمي بالفتى ... في طلاب العيش حالاً بعد حال
من رآنا فليوطن نفسه ... إنما الدنيا على قرب زوال[3]

فهو يرى أن الدنيا مآلها إلى الزوال وكل من عليها لا بد له من الانتقال والترحال، وأن الفناء يأتي على كل شيء ولم يسلم منه صم الجبال، وأنه ينبغي على الإنسان أن يتعقل في بعض الأمور ولا يغرنه ما ينعم به بعض بني الإنسان من ترف ونعيم وعيش رغيد فعما قريب يعصف

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، حققه وقدم له فوزي عطوي ص ٦١ دار صعب بيروت ١٩٨٠م.

(٢) عدي بن زيد العبادي: هو عدي بن زيد بن حمار بن زيد بن أيوب بن محرف عامر بن عصبة بن امرىء القيس بن زيد مناه بن تميم يكن أبا عمير نصراني عبادي سكن الحيرة، فلان شعره وسهل منطقه انظر معجم الشعراء والمؤتلف والمختلف ص ٢٤٩.

(٣) في الفكر الديني الجاهلي محمد إبراهيم الفيومي ص ٣٧٣ دار المعارف وكذا العمدة، لابن رشيق، تحقيق محمد فميحة ج ١ ص ٣٢، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٤م، وكذا مجلة اللغة العربية الزقازيق ص ٨٩، ٩٠ العدد الثامن، وكذا العصر الجاهلي شوقي ضيق ص ٨٧، ٨٨، دار المعارف الطبعة العاشرة ١٩٨٢م، وكذا اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري محمد مصطفى هدارة ص ٣٠٠ الطبعة الأولى ١٤٠٠ ـ ١٩٨١م المكتب الإسلامي.

الدهر بهم كما عصف بمن سبقهم من الأمم والشعوب، وقدمهم المحن والخطوب وينبغي على الإنسان أن يوطن نفسه على أن بقاء الحال من المحال[1].

ويتخذ عدي بن زيد العبادي من التاريخ وهلاك الممالك وعظماء الملوك وسيلة إلى العظة والاعتبار مدللاً بذلك على أن الليل مهما طال فلا بد له من أن يعقبه النهار وأن الموت لا بد منه فيقول:

أيها الشامت المعير بالدهر ... أنت المبرأ الموفور؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيام ... بل أنت جاهل مغرور؟
أم لديك المنون خلدن أم من ... ذا عليه أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر ... وإن أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم ... لم يبق منهم مذكور

ونجده يستمر في ذكر بعض الملوك الذين شيدوا القصور العالية والمباني الشاهقة الضخمة ولم يلبثوا أن امتدت إليهم يد المنون وطوتهم الحفر والقبور كأن لم يكونوا قبل شيئاً مذكوراً فنراه يقول:

أخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة ... تجبي إليه الخابور[2]
شاده مرمراً وجلله كلسا ... فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الملك ... عنه فبابه مهجور
وتفكر رب الخورنق إذ أصبح ... يوماً وللهدى تفكير[3]

---

(١) رسالة ماجستير التأمل في الكون، وظواهر الحياة في شعر أبي الطيب المتنبي، دراسة تحليلية نقدية موازنة إعداد حفيظة إسماعيل رمضان ص ٢٥ سنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، وكذا الكامل في اللغة والأدب للعلامة أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد اللغوي ج ١ ص ٢٩٤ مكتبة المعارف ببيروت.

(٢) الخابور: نهر كبير.

(٣) الخورنق: قصر بناه النعمان.

سرة حاله وكثرة ما تملك ... والبحر معرضاً والسدير[1]
فارعوء قلبه فقال وما غبطة ... حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والنعمة ... وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف ... فالموت به الصبا والدبور[2]

وإذا نظرنا في شعر هؤلاء الشعراء الذين تحدثوا عن الموت والحساب والجنة والنار والبعث كان لا بد لنا أن نسأل سؤالاً: هل كان هؤلاء الشعراء يؤمنون بالآخرة، وأن هناك حياة أخرى غير هذه الحياة؟ وأن هناك بعثاً؟ الجواب نعم بعضهم كان يؤمن بهذا والبعض الآخر لا يؤمن وأنا لا أتحدث عن الشعراء المشركين ولكن أتحدث عن الشعراء الحنفاء.

وهؤلاء الشعراء الحنفاء كان لهم لون فكري مختلف عما نجده في الأشعار الجاهلية، فقد عبر هؤلاء الأحناف عن موقفهم من رفض المعتقدات التي كانت سائدة في مجتمعهم عن طريق إنكار عبادة الأصنام، وتحريم الخمر، والنهي عن الذبح لغير الله، والابتعاد عن أكل ما ذبح للأصنام، مع قيام بعضهم بشيء من الشعائر كالصلاة أو الصيام، بالصورة التي تخيلها كل منهم[3].

ومن هؤلاء الشعراء الحنفاء أمية بن أبي الصلت فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر التوحيد والحساب والقيامة وذكر الأنبياء والرسل، ولفت النظر إلى الطبيعة وما فيها من مخلوقات ودلالة ذلك على حكمة الله وقدرته.

---

(١) السدير: قصر بظهر الحيرة.

(٢) العقيد الفريد تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربه تحقيق عبد المجيد الترحين ج ٣ ص ١٤١ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. وكذا تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات ص ٤٣، وكذا اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري محمد مصطفى هدارة ص ٣٠١ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٨١م المكتب الإسلامي.

(٣) الشعر العربي في العصر الجاهلي محمد مصطفى هدارة ص ٤٧ الدار الأندلسية عصافرة كلية البنات ١٩٨٨م.

ونجد أيضاً أن فكرة «الموت» تسيطر على «أمية بن أبي الصلت»[1] فنراه يتأمل فيرى أنه يجب على الإنسان أن يأخذ حذره من الدنيا لأنها إلى الزوال ولا يبقى إلا وجه الله ذو الجلال فيقول:

فكل معمر لا بد يوماً وذي دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدته ويبلس سوى الباقي المقدس ذي الجلال[2]

وينظر أمية بن أبي الصلت متأملاً مصير الإنسان الذي من التراب وإلى التراب يعود فيقول:

الأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نواد[3]

وهناك قصيدة يبرز لنا أمية بن أبي الصلت فيها مفهومه للحياة والموت والجنة والنار كما يوجد بها أحكم بيت قالته العرب في وصف الموت وهو:

يوشك من فر من منيته في بعض غراته يوافقها
من لم يمت غبطة يمت هرما الموت كأس والمرء ذائقها[4]

ومطلع هذه القصيدة يقول فيها:

اقترب الوعد والقلوب إلى الهو وحب الحياة سائقها[5]

---

(١) أمية بن أبي الصلت: هو أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة وجعله ابن سلام أشعر شعراء الطائف وقال عنه أنه قد تشام أهل الكتاب، أي قرب منهم انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي السفر الأول تحقيق محمود محمد شاكر طبعة المدني وكذا الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج ٤ ص ١٢٠ دار إحياء التراث العربي (طبعة مصورة عن دار الكتب).

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٤٩ طبعة شوليترج بألمانيا سنة ١٩١١م.

(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٣٠ طبعة شوليترج بألمانيا سنة ١٩١١م.

(٤) مات غبطة: مات شاباً سليماً لم تصبه علة، راجع العقد الفريد محمد بن عبد ربه تحقيق عبد المجيد الترحيني ص ١٣٧.

(٥) الوعد: يوم القيامة «وإلى اللهو» متعلقاً بخبر محذوف والتقدير والقلوب ماضية إلى اللهو.

باتت همومي تسري طوارقها ... أكف عيني والدمع سابقها[1]
مما أتاني من اليقين ولم ... أوت براءة يقص ناطقها[2]
ما رغبة النفس في الحياة وإن ... عاشت طويلاً فالموت لاحقها
يقودها قائد إليه ويحدوها ... حثيثاً إليه قائدها
قد أنبئت أنها تعود كما ... كان بديا بالأمس خالفها[3]
وأن ما جمعت وأعجبها ... من عيشها مرة مفارقها[4]
يوشك من فر من منيته ... في بعض غراته يوافقها[5]
من لم يمت غبطة يمت هرماً ... الموت كأس والمرء ذائقها[6]
تعاهدت هذه القلوب إذا ... همت بخير عاقت عوائقها[7]
وصدها للشقاء عن طلب ... الجنة دنيا الإله ما حقها[8]
عبد دعا نفسه فعاتبها ... يعلم أن البصير رامقها[9]
أم من تلظى عليه واقدة ... النار محيط بهم سرادقها[10]
أم أسكن الجنة التي وعد ... الأبرار مصفوفة نمارقها[11]

---

(١) الطوارق: مفردها طارقة، وهي التي تأتي ليلاً.
(٢) اليقين: المراد به العلم بالبعث والحساب. البراءة: المراد بها البراءة أي لم يعط براءة تخفف من همومه، لأنه واحد من الناس وعليه يوم الحساب.
(٣) قوله: «كما كان بدياً بالأمس خالقها أي كما كان قد خلقها الله من قبل الموت.
(٤) الروائع من الأدب العربي الجزء الأول العصر الجاهلي يوسف خليف ص ٥٧٤ الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٣م.
(٥) في بعض غراته: أي في بعض غفلاته عنها.
(٦) مات غبطة: مات شاباً سليماً لم تصبه علة.
(٧) تعاهدت: تحالفت وتعاقدت، يريد أن ذلك أصبح عادة لها وعاقت عوائقها: أي وقفت العقبات في طريقها.
(٨) محق الشيء أبطله ومحاه.
(٩) الرامق: فاعل من رمقه ببصره إذا ما أتبعه بصره ينظر إليه ويراقبه.
(١٠) السرادق: ما أحاط بالبناء ونحوه «من» محذوف والتقدير: أم من يحترق من النار ويحيط به العذاب كمن يسكن الجنة.
(١١) النمرقة: الوسادة والجمع نمارق.

لا يستوي المنزلان ثم ولا الأعمال لا تستوي طرائقها[1]

فقد انصرفت قريحة أمية بن أبي الصلت إلى المعاني الدينية فاشتهر بها أمره، واصطبغ بها شعره فوصف الله وجلاله وذكر الحشر وأهواله ونعت الجنة والنار والملائكة وتحدث في أخريات أيامه عن الموت فقال:

كل عيش وإن تطاول دهراً منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوعولا
اجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا[2]

وكان من بين ما قاله أمية بن أبي الصلت في خلق العالم وفنائه وأحوال الآخرة وصفات الخالق والخشوع له ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء قبله ويتخلل ذلك شيء من الأمثال والحكم يقول:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالحمد صبحنا ربي ومسانا
رب الحنيفية لم تنفد خزائنه مملوءة طابق الآفاق سلطانا
ألا نبي لنا منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس محيانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف يلحق أخرانا بأولانا[3]

وكان رسول الله ﷺ إذا سمع شعره في التوحيد والإيمان والثناء على الله يقول: آمن لسانه وكفر قلبه.

---

(١) المنزلان: الجنة والنار، والطرائق: الطرق، مفردها طريقة.
الروائع من الأدب العربي الجزء الأول العصر الجاهلي يوسف خليف ص ٥٧٥، ٥٧٦، وكذا الكامل في اللغة العربية والأدب للعلامة أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي المتوفي سنة ١٢٨٥هـ ج ١ ص ٤٤ مكتبة المعارف بيروت.

(٢) تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات ص ٧٦ وكذا مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق ص ٩١، ٩٢، العدد الثامن.

(٣) تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات ص ٧٧ وكذا الشعر العربي في العصر الجاهلي محمد مصطفى هدارة ص ٤٧ و ٤٨ الدار الأندلسية عصافرة كلية البنات ١٩٨٨م.

ونلاحظ أن أغلب تفكير الشاعر الجاهلي يدور حول فكرة الوجود ومصير ذلك الوجود الذي يشغل الإنسان في كل زمان ومكان خاصة الشاعر الجاهلي الذي لم يكن صاحب دين يلتمس خلاله حلولاً لمشكلاته الكبرى أو علاجاً للحيرة والشك والقلق فملأه التفكير في الوجود والمصير والقلق على حياته وطغى ذلك على تأملاته الشعرية.

فصورة الحياة بالنسبة للشاعر الجاهلي كانت تطوي في نفسه عناصر خفيفة أحسها الشاعر إحساساً مبهماً وقدر موقفه منها، وربما كان من أبرز هذه العناصر الخفية التي اصطدم بها من ذلك إحساسه بالتناقض والتناهي والفناء[1]. فنجد أن «امرأ القيس»[2] يرى أن قوة الإنسان لا تدوم وإنما سريعاً ما يدب إليه المرض والهرم وما هي إلا لحظات وينتهي أجله فكأنه لم يقم في هذه الدنيا فيقول:

أرى المرء ذا الأذواد يصبح محرضاً  كإحراض بكر في الديار مريض[3]
كأن الفتى لم يغن في الناس ساعة  إذا اختلف اللحيان عند الجريض[4]

وهذا عبيد بن الأبرص[5] تشغله هو الآخر فكرة الموت ومصير

---

(١) مقال د. عز الدين إسماعيل من مجلة الشعر ص ٤٢٣ عدد فبراير ١٩٦٤م وكذا مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي حسين عطوان ص ٢١٨ طبعة دار المعارف ١٩٧٠م.

(٢) امرؤ القيس هو امرؤ القيس بن حجر الحارث بن عمرو بن حجر الشاعر الجاهلي الذي ينتهي نسبة إلى كنزة ووضعه ابن سلام أول شعراء الطبعة الأولى مع النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى والأعشى راجع طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي السفر الأول تحقيق محمود شاكر ص ٥١ مطبعة المدني.

(٣) المحرض: الذي أمرض أي نحل جسمه وأذهب قوته المرض والكنز الحريض بالعصص بالريق وارد غص الموت.

(٤) اللحيان العظمان ينبت عليها شعر اللحية انظر شرح ديوان امرىء القيس حسن السندوبي ص ١٢٩ المكتبة الثقافية بيروت لبنان الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٥) عبيد بن الأبرص: هو عبيد بن الأبرص بن جشم بن عامر بن أسد بن خزيمة الشاعر الجاهلي المشهور وضعه ابن سلام في الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية بعد (طرفة بن العبد) انظر طبقات فحول الشعراء ابن سلام تحقيق محمود محمد شاكر السفر الأول ص ١٣٧.

الإنسان فيرى أن الحياة والأرض لا تدوم وتنتهي ذهاباً بلا عودة فيقول:

أرض تـوارثـهـا شـعـوب ... وكـل مـن حـلـهـا مـحـروب[1]
إمـا قـتـيـلاً وإمـا هـالـكـاً ... والـشـيـب شـيـن لـمـن يـشـيـب
عـيـنـاك دمـعـهـمـا سـروب ... كـأن شـأنـيـهـا شـعـيـب
فـكـل ذي نـعـمـة مـخـلـوس ... وكـل ذي أمـل مـكـذوب
وكـل ذي إبـل مـوروث ... وكـل ذي سـلـب مـسـلـوب
وكـل ذي غـيـبـة يـؤوب ... وغـائـب الـمـوت لا يـؤوب[2]

ويفكر «حسان السعدي»[3] هو الآخر في الموت والحياة فيرى أن الموت منتهاها مهما طال حبلها وهو يشرك في هذا مجرى الماء فيقول:

أرى الموت ممن شارك الماء غاية ... له أثر يجرى إليه ومنتهى[4]

ويؤكد المهلهل بن ربيعة التغلبي[5] حتمية الموت فيرى أن الموت نهاية كل حي مهما طال به حبل الحياة فيقول:

أرى طـول الـحـيـاة وقـد تـولـى ... كـمـا قـد يـسـلـب الـشـيء الـمـعـار[6]

---

(١) شعوب: المنية، المحروب: فعول من حربه سلبه ماله ولم يترك له شيئاً.

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٤، ٢٥، ٢٦، طبعة دار صادر بيروت سنة ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

(٣) حسان السعدي: شاعر من شعراء الجاهلية وقيل إن شعره من أقدم ما قيل في الجاهلية انظر النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري تحقيق محمد عبد القادر أحمد ص ٢٥٧ طبعة دار الشروق بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م ـ ١٤١١هـ.

(٤) النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري تحقيق سعيد الخوري الشرتوني ص ١١١ مطبعة الكاثوليكية لبنان سنة ١٨٩٤م.

(٥) المهلهل بن ربيعة هو امرؤ القيس بن ربيعة بن الحارث بن زهيرة بن حسن بن بكر بن حبيب بن ثعلب وهو مهلهل الشاعر الجاهلي المشهور ويقال اسمه، انظر معجم الشعراء والمؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم للأمدي ص ١١ تحقيق فكرانكو دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٢هـ.

(٦) شعراء النصرانية لويس شيخو ص ١٦٤ المطبعة النموذجية بالقاهرة.

وتتحدث الخنساء[1] عن مصير الإنسان فترى أن الكل صائر إلى الهلاك والزوال فتقول:

إنيك هذا الدهر أودى به ... وصار مسحاً لمحاري القطار
فكل حي صائر للبلى ... وكل حبل مرة لانثار[2]

ويرى زهير بنت أبي سلمى[3] حتمية الموت وأنه مسوق إلى حفرة تتم إقامته فيها ولن يحول تلك النهاية مال، ولا يبقى باق على ظهر الأرض سوى الله والجبال والبلاد فلكل أيام معدودات يقضيها فينا له تيار الموت ويجرفه معه ثم يمضي[4] فيقول:

بدا لي أن الله حق فزادني ... إلى الحق تقوى الله ما كان باديا
أراني إذا ما بت بت على هوى ... وأني إذا أصبحت أصبحت عاديا
إلى حفرة أهدى إليها قيمة ... يحث إليها سائق من ورائيا

---

(١) الخنساء: هي الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن شديد بن رباح بن يقظة بن عصية بن خفاف بن امرىء القيس من بهثة، رثت أخويها صخراً ومعاوية ووضعها ابن سلام في طبقة أصحاب المراثي وهي الطبقة التي تلي الطبقات العشر، انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٢٠٣.

(٢) أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء، جمع لويس شيخو ص ٤٠ الكاثوليكية، بيروت سنة ١٨٨٨ وكذا شرح ديوان الخنساء تحقيق عبد السلام الحوفي ص ٥٣ طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

(٣) زهير بن أبي سلمى: هو زهير بن أبي سلمى ـ ربيعة بن رباح بن قحط بن الحارث بن ثور بن هذمة بن لاظم بن عثمان بن مزينة وضعه ابن سلام في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية مع امرؤ القيس والنابغة الذبياني والأعشى، راجع طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي تحقيق محمود شاكر ص ٥١.

(٤) القيم الروحية في الشعر العربي، قديمه وحديثه حتى منتصف القرن العشرين ١٩٥٠م ثريا عبد الفتاح ملحس ص ١٥٤ وكذا الزمان والمكان وأثرهما في الحياة، الشاعر الجاهلي وشعره دراسة نقدية نصية، الجزء الأول الموقف الشعري من القضية واتجاهاتها صلاح عبد الحافظ ص ٧ دار المعارف وكذا التأمل في الكون وظواهر الحياة في شعر أبي الطيب المتنبي دراسة تحليلية نقدية موازنة رسالة ماجستير حفيظة إسماعيل رمضان ص ٢٥ و ٢٦.

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائيا
وما أن أرى نفسي تقيها كريهتي وما أنا تقي نفي كرائم ماليا
ألا لا أرى الحوادث باقيا ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا
وإلا لسماء والبلاد وربنا وأيامنا معدودة والليالي

ثم غلبت عليه نزعة الإنسانية وطبيعته الفلسفية فوقف موقف الحكيم يتبرم بالحياة ويفكر في الموت، فالموت يأتي بغتة ومن مات فلن يعود، ومن عاش فإلى حين وإن عمر وهرم فالمنايا في صفوفهم تخبط خبط عشواء لا تبصر ولا تميز، والناس أبداً سائرون وهم لا يكادون يألهون فيقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن يخطىء يعمر فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السماء بسلم[1]

كما يرى «عنترة»[2] أن الموت أمر قدره الله فلا يستطيع إنسان كائن ما كان أن يفلت أو يدفع الموت عنه فالموت أمر لا بد منه فيقول:

إذا كان أمر الله أمراً يقدر فكيف يفر المرء منه ويحذر
ومن ذا يرى الموت أو يدفع القضا وضربته محتومة ليس تعثر[3]

وحينما نتأمل في الشعر الجاهلي نجد أن شعراء الجاهلية قد وقفوا كثيراً عند فكرة الحياة والموت وكانوا يرون أنه لا مفر عن الموت ولا محيد

---

(١) الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه الفنية بهي الدين زيان ص ٨١، دار المعارف وكذا تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات ص ٥٥ وكذا القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه حتى منتصف القرن العشرين ١٩٥٠م ثريا عبد الفتاح ملحس ص ١٥٤ وكذا فنون الأدب العربي الفن التعليمي الحكم والأمثال حنا الفاخوري ص ٢١ الطبعة الرابعة دار المعارف.

(٢) هو عنترة بن شداد بن معاوية بن قراد ابن مخزوم بن مالك غالب بن قطيعة بن عبس الشاعر والفارس الجاهلي المشهور ووضعه ابن سلام في الطبقة السادسة مع عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وسويد بن أبي كهل راجع الطبقات ص ١٥٢.

(٣) شرح ديوان عنترة بن شداد ص ٦٧ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

عنه ولا حيلة منه، فلا ينفع إزاءه شباب ولا قوة ولا صحة ولا فتوة، وكثيراً ما كانوا يذكرون من سبقهم إليه وورد عليه متخذين من ذلك العظة والعبرة.

ولم يكن من عادة الشعراء الجاهليين أن يقفوا في أناة وتأمل أمام ظاهرة الموت والتعمق فيها والكشف عما وراءها لأن ذلك لم يكن في مقدورهم بحكم وثنيتهم وأميتهم وظروفهم وعدم اشتغالهم بعلوم فلسفية وعقلية تدفعهم إلى تفكير عميق وأحكام صائبة في هذا المجال ولكننا مع ذلك نجد أن الأدب العربي القديم كان غنياً بهذا اللون من الأدب مع أنه قد جاء في أبيات متفرقة هنا وهناك تحتاج إلى جمع شتاتها[1].

وقد كان من عادة شعراء الجاهلية أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والأسود الخادرة في الفياض، وبحمر الوحش المنصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير جداً لا يكاد يخلو منه شعر[2].

والقدماء عندما يسلكون هذا المنهج في الرثاء كانوا يلتمسون العزاء والسلوى في هذه المخلوقات والكائنات التي كانوا يشاهدونها في بيئتهم تأوي برؤوس الجبال وتنطلق في الوهاد وتعمر ما شاء الله لها أن تعمر ثم حتماً يدركها الموت لا محالة وتمضي كأن لم تكن شيئاً موجوداً في يوم من الأيام وهكذا كانت تصاريف الأقدار مع الأمم السابقة، والشعوب والأقوام، والملوك العظام، الكل حتماً إلى زوال.

وقد يظهر هذا المعنى بوضوح في الأبيات التي أوردها «قس بن

---

(١) القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه (حتى منتصف القرن العشرين ١٩٥٠م ثريا عبد الفتاح ملحس ص ١٦٤ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت.

(٢) مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية بحث للدكتور عبد الله حسين علي سليمان ص ١٧٤م.

ساعدة الإيادي»[1] أسقف نجران في خطبة له بسوق عكاظ يقول:

في الذهبيين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إلي ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القوم صائر[2]

وهناك الرثاء الذي يغلب عليه التفجع والتحسر ويصاحبه التعزي والتأسي ولعل أبا لم يبلغ من التعبير عن لوعته بفقد أبنائه ما بغله «أبو ذؤيب الهذلي»[3] في بكائه لبنيه الخمسة الذين هلكوا بمصر في عام واحد بالطاعون وكانوا رجالاً ذوي بأس ونجدة فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحس رضاه بقضاء الله يقول:

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع[4]
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً! ... منذ ابتذلت ومثل ما لك ينفع[5]

---

(١) انظر في ترجمته تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات ص ٢٠ وكذا جواهر الأدب السيد أحمد الهاشمي ص ١٩ مؤسسة المعارف بيروت.

(٢) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حياتهم آثارهم ـ نقد آثارهم بطرس البستاني ص ٢١٧ وكذا مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الثامن محمد عبد السلام إبراهيم صقر ص ٨٧، ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨م وكذا الروائع من الأدب العربي الجزء الأول العصر الجاهلي يوسف خليف ص ٥٩٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م وكذا التأمل في الكون وظواهر الحياة في شعر أبي الطيب المتنبي دراسة تحليلية نقدية موازنة حفيظة إسماعيل رمضان ص ٢٠، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

(٣) «أبو ذؤيب الهذلي» اسمه خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم بن باهلة بن كاهل بن مازن بن معاوية بم تميم بن سعد بن هزيل الشاعر المشهور ووضعه ابن سلام في الطبقة الثالثة ص ١٢٣ وكذا معجم الشعراء والمؤتلف والمختلف ص ١١٩.

(٤) المنون: الموت والدهر أيضاً، ريبها: حوادث الدهر وصروفه، بمعتب: أي ليس الدهر لا يترضى من نالته المصيبة ولا يرجع إليه ما يحبه.

(٥) منذ ابتذلت: أي أهنت نفسك ومات من كان يكفيك صنيعتك من بنيك، ومثل مالك ينفع: مالك يسد حاجتك.

أم لجنبك لا يلائم مضجعاً ... إلا أقض عليك ذاك المضجع[1]

فأجبتها: أما لجسمي أنه ... أودى بني من البلاد فودعوا[2]

أودى بني وأعقبوني غصة ... بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم ... فتخرما ولكل جنب مصرع[3]

فغيرت بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أني لاحق مستتبع[4]

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... فإذا المنية أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

فالعين بعدهم كأن حداقها ... سلمت بشوك فهي عور تدمع[5]

حتى كأني للحوادث مروة ... بصفا المشرق كل يوم تقرع[6]

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا اتضعضع

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

ولئن بهم فجع الزمان وريبه ... إني بأهل مودتي لمفجع

كم من جميع الشمل ملتئم القوى ... كانوا يعيش قبلنا فتصدعوا

والدهر لا يبقى على حدثانه ... جون السراءة له جدائد أربع[7]

---

(١) أقضى عليك المضجع: خشن المضجع وصار تحت جنبك مثل قضيض الحجارة أي الحجارة الصغيرة.

(٢) أما لجسمي: أصلها إن ما، وما موصولة أي أن الذي لجسمي أنه أودي بني أي هلكوا ـ ودعوا: ماتوا أي ما أصاب جسمي بسبب موت أبنائي وفراقهم لي.

(٣) هوى: هواي بلغة هذيل أي ماتوا قبلي وكنت أحب أن أموت قبلهم.
أعنقوا: أسرعوا، تخرموا: أخذوا واحداً، فغبرت: أي بقيت، والغابر: الباقي.

(٤) ناصب: يعيش ناصب ذي نصب جهد ومشقة يقال نصب الرجل ينصب إذا اشتد عليه الأمر.

(٥) الحداق: جمع حدقة ـ سملت: فقئت.

(٦) المروة: واحد المرو: وهي حجارة بيض يقدح منها النار، المشرق المصلي، يقول: أنا من كثرة المصائب كمروة يقرعها مرور الناس بها، وإنما خص المشرق لكثرة مرور الناس به والتورية جميلة.

(٧) السراة: عنى حماراً، والسراة: أعلى الظهر، الجون: الأسودة إلى حمرة. الجدائد: =

وهي قصيدة رائعة تحفل بالتعبير والتصوير والمعاني والحكم وهي صيحة حسرة وألم صاحها أب من أحشائه وسويداء قلبه، وصف فيها شحوبه وسهاده ودموعه التي لم تجف، على أبنائه الخمسة الذين كانوا ملء العين والقلب إذا طواهم الموت وعدت عليهم المنية في عام واحد فانقلبت عيشته مرا من بعدهم فانطلقت شاعريته بهذه القصيدة الرائعة التي تصور جانباً إنسانياً مأساوياً خالداً في حياة البشر جميعاً، وقد جعل الشاعر مطلع قصيدته حديثاً بينه وبين امرأة تسائله عن سبب شحوبه وأرقه فيروي لها أحزانه وآلامه، ويصور ما أصابه من جزع وهم لفقد أبنائه لقد رآهم والموت يتلقفهم واحداً بعد واحد فلم يستطع له دفعاً ولا رداً فالموت لا يغلب وأمره لا يرد ولا بد من الاستسلام لقضاء الله فليتحد وليصبر حتى لا يشمت به الشامتون وليعز نفسه بأن المنية إذا حانت فلا مفر منها ولا منجاة[1].

ومما يستدعي الانتباه في هذه القصيدة أن الشاعر بدأ ثلاثة أبيات منها

---

= الأتن اللواتي خفت البانهن، واحدتهن جدود، انظر ديوان الهذليين أبو ذؤيب الهذلي ج ١ ص ١ نشر يوسف هل الألماني طبعة هاتوفر لها نيس لافاير سنة ١٩٣٩م وكذا المفضليات المفضل بن محمد بن يعلى الضبي تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون ص ٤٢١ و ٤٢٢، الطبعة السابعة دار المعارف وكذا تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات ص ١٣٩ وكذا مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية العدد السابع أ. د عبد الله حسين ص ١١٧/١٧٨ سنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م وكذا القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه (حتى منتصف القرن العشرين ١٩٥٠م) ثريا عبد الفتاح ملحس ص ١٥٥ مكتبة المدرسة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر وكذا الموسوعة الأدبية الميسرة أبو العتاهية من الرفض إلى القبول خليل شرف الدين ص ٧٤ منشورات دار الهلال بيروت ١٩٨٣م.

(١) فنون الأدب العربي الفن الغنائي شوقي ضيف ص ١٨ و ١٩، الطبعة الثالثة دار المعارف وكذا العقد الفريد أحمد بن محمد بن عبد ربه تحقيق عبد المجيد الترحيني ج ٣ ص ٢١٠ وكذا مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية عبد الله حسين ص ١٧٩ العدد السابع ١٤١١هـ - ١٩٩٠م وكذا الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره صلاح عبد الحافظ ج ١ ص ٥٨ و ٥٩، دار المعارف وكذا تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي شوقي ضيف ص ٧٣ الطبعة الثامنة، دار المعارف.

بمطلع واحد هو «الدهر لا يبقى على حثانه» ففي الموضوع الأول دخل مباشرة في التحدث عن هلك الحمار الوحشي ووصفه وصفاً عجيباً، ثم هو في الثاني يتحدث عن هلك الثور الوحش وينعته ثم يتعرض الصائد له ومعه كلابه، وفي الموضوع الثالث يتحدث عن مصرع البطل الفارس ويصف هذا البطل وموقفه إزاء بطل آخر يصطرعان فإذابه قد خر صريعاً قتيلاً وهناً تشارك قصائد الرثاء قصائد الرحلة في تلك الاستطرادات التي تعرفها في الشعر الجاهلي ولكن مع اختلاف النهاية.

وأبو ذؤيب يتخذ من هذه الأشكال الثلاث عزاء لنفسه الحزينة وتسليه بها وحضها على الصبر وهذه الأنماط الثلاثة من مظاهر القوى ولكنها لا تجدى شيئاً أمام الموت فهو أقوى وأقدر من كل شيء ولهذا المنهج الجاهلي أوردت هذا النموذج من شعر الرثاء مع أنه من شعر أبي ذؤيب الإسلامي ولكنه اتبع في قصيدته المنهج الجاهلي.

ومن ذلك أيضاً ما قاله لبيد بن ربيعة[1] في رثاء أخيه أربد يقول:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع
وقد كنت في أكناف جار مضنة ... ففارقني جار بأربد نافع[2]
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا ... فكل امرىء يوماً به الدهر فاجع[3]
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع[4]
وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوماً أن ترد الودائع
وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبني وآخر رافع[5]

---

(١) لبيد بن ربيعة: هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن جعفر بن كلاب الشاعر المشهور المحسن راجع معجم الشعراء والمؤتلف والمختلف ص ١٧٤ ووضعه ابن سلام في الطبقة الثالثة انظر طبقات فحول الشعراء ص ١٢٣.

(٢) الأكناف: الجوانب، دار مضنة: دار يضن بها.

(٣) الجزع: ضد الصبر، فاجع: موجع.

(٤) الشهاب: هنا شعلة من النار ساطعة. يحور: يصير.

(٥) يبتر: يهلك ويهدم.

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانع
أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع[1]
أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كأني كلما قمت راكع[2]
فأصبحت مثل السيف أخلق جفنه تقادم عبد القين والفصل قاطع[3]
فلا تبعدن إن المنية موعد علينا فدان للطلوع مطالع[4]
أعاذل ما يدرك إلا تظنياً إذا رحل السفار من هو راجع[5]
أأجزع مما أحدث الدهر بالفتى وأي كريم لم تصبه القوارع[6]
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولازاجرات الطير ما الله صانع[7]

إن أكثر حكمة لبيد في شعره الذي رثى به أخاه أربد وقد انقضت عليه صاعقة فأودت بحياته فأنت ترى في هذه القصيدة نفثة من قلب جريح ونفس حزينة لم تجد ملجأ تتعزى فيه غير التأمل والتفكر في حقيقة الحياة، والعقل الذي لم يتجرد من العاطفة ولم يسلك مسلك الجمود النظري في ما ينثر من آراء، ومجمل آراء لبيد أن حياة الإنسان صائرة إلى الزوال، وأن كل ما

---

(١) تراخت: أبطأت أو تباعدت.

(٢) الراكع: المنحني الخافض الرأس، ومنه ركع المصلي في الصلاة خفض رأسه بعد قومة القراءة حتى تنال راحتاه ركبتيه.

(٣) أخلق: أبلى، جفنه: عمده، القين: الحداد.

(٤) فلا تبعدن: خطاباً لأخيه أي لا تموتن. دان: قريب. الطلوع: الغياب وهي من الأضداد. طالع: غائب.

(٥) أعاذل: يا عاذلتي أي يا لائمتي. التظني: الاعتماد على الظن. السفارة: المسافرون ومفرده سافر.

(٦) القوارع: المصائب التي تقرع الإنسان مفردها قارعة.

(٧) الضوارب بالحصى: الضاربات الطيور بصغار الحجارة. زاجرات الطير: اللواتي يصحن به فإن طار إلى يمين الضاربة أو الزاجرة فيمن وإن طار إلى شمالها فشؤم وهو ضرب من العرافة، ديوان لبيد العامري، رواية الطوسي ص ٢١، ٢٢، وكذا عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ٣٢٣ الطبعة الأولى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م، وكذا تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات ص ٧١.

يملكه الإنسان هو وديعة لا بد من ردها إن آجلاً أو عاجلاً ويشبه لبيد الإنسان بالشهاب الذي يضيء ثم ينطفى وأن الناس اثنان: بان وهادم، وأن السعادة نصيب قسم من البشر، والشقاء نصيب القسم الآخر لهذا كله وجب على الإنسان أن لا يجزع إذا ألمت به مصيبة، وأن يلزم جانب الصبر والجلد، ولماذا يجزع وكل امرىء في هذه الحياة الدنيا سيموت.

ونجد أن حكمة لبيد ذات نزعة كئيبة هي نتيجة نظرة جريئة وصادقة إلى الحياة، ونظرة إلى الفقيد وقد ترك فراغاً في نفس أخيه، ونحن نقرأ أبيات هذه القصيدة نشعر بجو من الوجوم والخوف ورهبة الموت، ونشعر بأن الشاعر يستخف بالحياة مهما طالت، فهو يزج بنا في هوة الموت لنرى ونقنع، وهكذا يسير بنا الشاعر من قبر إلى قبر، ومن لحد إلى رماد، ومن رماد إلى لا شيء مادي وإلى نفس تخلد في رحمة الله كما نلاحظ أنه لا يؤمن بخرافات الجاهليين من زجر الطير وما إلى ذلك اعتقاداً منه أن ما يصنع الله لا يعرفه بشر[1].

ونجد أن لبيد يمضي في طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ من حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوفاً من الموت ويوم الحساب، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح، ومهوناً من الدنيا ومتاعها الزائل ونعيمها الفاني على نحو ما نرى في «لاميته» التي نؤمن بأنه نظمها في الإسلام وفيها يقول:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... بلى: كل ذي لب إلى الله واصل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل[2]
وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه ... إذا كشفت عند الإله المحاصل[3]

---

(١) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حياتهم ـ آثارهم ـ نقد آثارهم بطرس البستاني ص ٩٠ و ٩١، الطبعة الخامسة، مكتبة صادر بيروت وكذا القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه حتى منتصف القرن العشرين، ١٩٥٠م ثريا عبد الفتاح ملحس ص ١٥٤ مكتبة المدرسة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.

(٢) الباطل: هنا بمعنى الهالك. لا محالة: لا بد.

(٣) سعيه: نتيجة عمله، ومنه في سورة النجم ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي ما عمل=

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم خلال وباطل[1]
حبائله مبثوثة في سبيله ويغنى إذا ما أخطأ له الحبائل[2]
إذا المرء أسرى ليلة حال أنه قضى عملاً والمرء ما عاش عامل[3]
فقولا له إن كان يقسم أمره ألماً يعظك الدهر أمك هابل[4]

ولقد أحس الجاهلون إحساساً قوياً بالموت وحتم وقوعه، ورأوا رأي العين تلاعب القدر بهم وتقلب صرفه عليهم في هذه الحياة المحدودة الفانية. صحيح أن غيرهم من الشعوب في مختلف الأزمان والبيئات أدركوا ذلك، لكن إحساس الجاهليين كان زائد الحدة يبلغ درجة العنف. وذلك لقسوة الطبيعة عليهم، قسوة نادرة النظير، واضطراب نظامهم الاقتصادي الذي يعتمد على المطر القليل.

النزول في مناخهم الصحراوي، وقيام مجتمعهم على وحدة القبيلة المنفصلة وتناحر القبائل في سبيل الاستيلاء على الماء النزر والمرعى السريع الفناء.

لذلك كان إحساسهم لقصر الحياة وتهددها الدائم حاداً عنيفاً وكان إدراكهم لتقلب الدهر قوياً بليغاً[5].

وأبيات طرفة بن العبد مشهورة ذائعة، معجبة رائعة، في تصور نظرتهم

---

= أو نوى، الحصائل: جمع حصيلة وهي ما يحصله الإنسان من شيء وهي هنا بمعنى نتائج الأعمال.

(١) ألا تسألان: خطاب لصاحبيه. النحب: الوقت والمدة ومنه قضى نحبه أي مات.

(٢) حبائله: أي أشراك الموت. مبثوثة: منتشرة، يفنى: يهرم.

(٣) أسرى: ذهب ليلاً.

(٤) يقسم أمه: ينظر فيه كيف يفعل أي أنه حائر في أمره. الما: الهمزة للتوبيخ ولما نافية جازمة. هابل: ثاكل، يقال هبلته أي ثكلته وتستعمل (أمه هابل) للدعاء على الشخص وللإعجاب به.

(٥) الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه محمد النوبهي ج ١ ص ٤١٩ وما بعدها الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة.

البائسة نحو حتم الموت، وكيف يأتى فيسوي بين الناس جميعاً كراماً ولئاماً مسرفين وبخلاء بل لعله يؤثر الكرام فيعجل إليهم يقول:

كريم يروى نفسه في حياته ستعلم إن متنا غدا أينا الصدى
أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وماتنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخي وثنياه باليد[1]

وبيته الأخير يروعنا بما في تصويره البدوي من بساطة وصدق لكن بيته الأول يلفتنا إلى السر وراء هذا التشاؤم إنهم لم تكن لديهم عقيدة دينية تخفف من مرارة فكرة الموت، وتؤملهم في حياة أخرى تعقب الحياة الدنيا وهنا تكمن قيمة وأهمية أدب الآخرة والحق أن الشعر الجاهلي ما عدا أبيات قليلة لا يصور إلا فلسفة دنيوية محضة، خالية من اليقين الديني الذي يفعل فعله العظيم في مداواة جروح الإنسان وشفاء نفسه وتصبيره على كرب الحياة وتقبلها وعلى رهبة الموت وذعره، ومهما تقرأ في كتب التاريخ عن وجود بعض العقائد الدينية من سماوية وغير سماوية، فإن الشعر الجاهلي نفسه يثبت أن هذه العقائد كانت ضعيفة التأثير في كثرتهم الغالبة، ولم يكن في ديانتهم الوثنية السائدة ما يغني الإنسان في ذعره من الموت لأن سلطة آلهتهم وآبائهم كانت مقصورة على الحياة لا تتعداها لا إلى الخلق ولا إلى المعاد.

بل تلاحظ أن زهير بن أبي سلمى نفسه وهو الشاعر الذي تقبل بلا شك طائفة من العقائد الدينية وآمن بالإله والبعث والحساب لكن هل نجح هذا في أن يخفف كثيراً من حزنه وتشاؤمه حيث تأمل في اضطراب الحياة

---

(١) شر المعلقات السبع للذوزني ص ٦٢، ٦٣ وكذا ديوان طرفة بن العبد تحقيق فوزي عطوي ص ٤٧ و ٤٨، دار صعب بيروت ١٩٨٠م.

الجاهلية وظلمها وانتهائها بالموت الأكيد يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يعض أطراف الزجاج فإنه ... بطبع العوالي ركبت كل تهدف
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[1]

فإذا كان هذا موقف الإنسان الجاهلي الحساس من الكون والحياة حين حرم نعمة الإيمان الديني وشفاءه، فالشعراء الجاهليين أعظمهم به إحساساً، وأقواهم له تصويراً. فشعرهم هو متنفس موقفهم الدنيوي، وشعرهم نفسه كان تحدياً آخر عظيماً تحدوا به الموت والفناء فيه يقهرون الموت والفناء القهر الوحيد المتاح للإنسان في هذه الدنيا. إذ به خلقوا شيئاً جديداً من ذات أنفسهم وصميم أحشائهم وأعصابهم وأنسجة عقلهم لكنه منفصل بوجوده الذاتي، فهو يبقى بعد أن يفنوا هم وهذا من أعظم الدوافع التي تدفع الإنسان مؤمناً وملحداً، إلى الخلق الفني إذا كان قد كتب عليه الزوال بجسمه وشخصيته من هذه الدنيا.

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٨٦ وما بعدها.

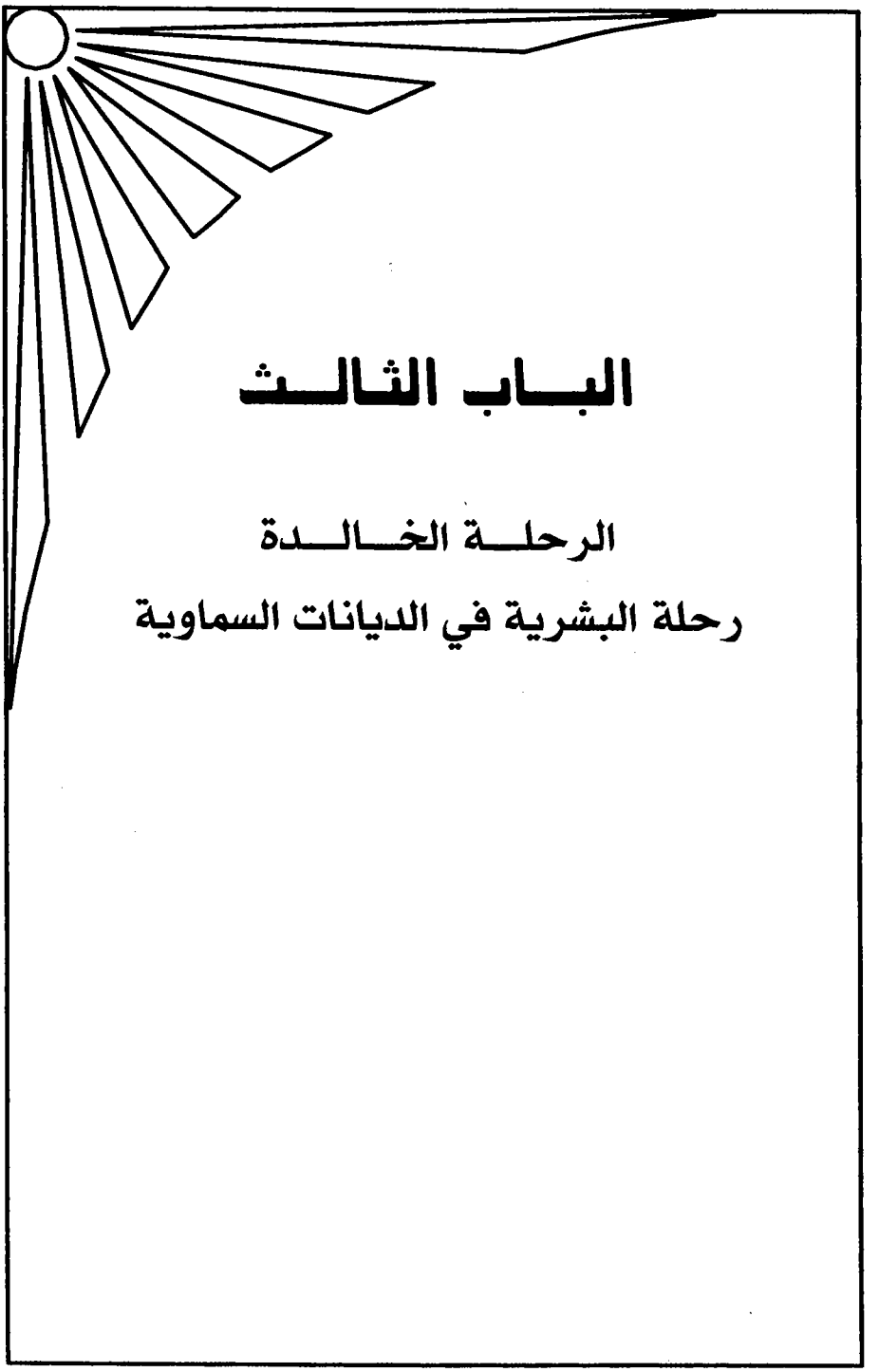

# البـــاب الثالـــث

## الرحلـــة الخـــالـــدة

## رحلة البشرية في الديانات السماوية

# الفصل الأول
# الديانة اليهودية

وننتقل الآن إلى بني إسرائيل، لنبحث في عقائدهم عن العالم الآخر، فلا نجد في العهد القديم ـ كتاب اليهود الأول ـ ذكراً للعالم الآخر أبداً ومن السياق كله تفهم أن الجزاء على الشركان يتحقق في الدنيا بالقياس إلى الأفراد وإلى الجماعات، فإله بني إسرائيل لم يكن يغفل عن أخذ المسيء منهم بإساءته فرداً كان منهم أو جيلاً من أجيالهم.

ولكن هذه العقيدة لم تستطع أن تقاوم المشهود في واقع الحياة، وهو أن الشر قد يذهب بعافية، والخير قد يعكس. وعندئذ أخذ الصراع يبرز في الضمير الإسرائيلي بين العقيدة الساذجة وهذا الواقع في الحياة، ويبدو هذا الصراع على أتمه في «سفر أيوب» أحد أسفار العهد القديم.

ونجد أن الأستاذ «علي أدهم» في كتابه نظرات في الحياة والمجتمع يعقد فصلاً جيداً عن هذا السفر فيقول: «في الإصحاح الثالث عشر من سفر أيوب يقول أيوب في رده على أصحابه وتحدثه عن الذات العلية: إنه ولو قتلني أبقى آملاً له، غير أني احتج عن طرقي أمامه، وهذه الكلمة التي يجتمع فيها الإيمان التام بطائف من الإنكار والمروق، وتمتزج فيها الثقة المطلقة بظل من الشك والارتياب، تختصر تلك الحجج والبينات التي يقدمها أيوب دفاعاً عن نفسه، وتعزيزاً لموقفه، بعد أن حاول كتم بثه، وقمع عواطفه، والصبر على ما ابتلاه به الله من فادح الخطب ومبرح الألم في ذلك السفر القيم البعيد المغزى المنسوب إليه، وهو من أروع أسفار

العهد القديم، وأحفلها باللمحات الكاشفة والنظرات النافذة، والخواطر الجزئية، وقد تناول بصراحة قليلة النظير موقف الإنسان «مولود المرأة، قليل الأيام كثير الشقاء» من الله صانع عظائم تفوت البحث، وعجائب تفوق العد[1] والتماس الإنسان العدالة، وبحثه عن الحكمة في حوادث الحياة، وحقائق الوجود. وهو يصور أبدع تصوير وأدقه وأصدقه الصراع الشديد بين الشكوك التي تساور الإنسان من ناحية وجود عدالة إلهية متجلية في تجارب البشر، ومصاير الأمم، والإيمان القوي الذي يحاول أن يدرأ عن نفسه غوالب الشكوك وتبقى هجماتها، وتمكنه في النهاية من مطادرتها وقهرها.

وهذا السفر يكشف عن مرحلة هامة من مراحل تفكير بني إسرائيل الديني عندما بدأت الشكوك تتسرب إلى الاعتقاد القائل بأن الرجل الصالح المستقيم يلقى في حياته العاجلة، لاستقامة طرقه، وسلامة طويته، وأن من يجانب الصلاح ويقترف الآثام، يحل به العقاب، وينال الجزاء الوفاق. فقد لوحظ أن حقائق الحياة اليومية وحوادثها المتواترة المألوفة لا تؤيد هذا الاعتقاد الساذج ولا تؤكد أن الشرير يلقى جزاء شره، وأن الخير يثاب على ما قدمت يداه، بل قد يغلب على أمره وتجني عليه استقامته. وقد أخذت هذه المسألة تشغل العقول، وتغلق النفوس، وتثير الخواطر، فهل يشك في العدالة الإلهية، أو أن هناك في وقائع الحياة وحركات الكون عدالة تخفى على العين وتدق عن الفكر متوارية في هذا الظلم البادي، وبذلك تتسع آفاق فكرة العدالة، وتسمو وتكتسح ما في طريقها من الاعتراضات التي تنم عن النظر الكليل والفهم القاصر؟ وكان يزيد الأمر خطورة أن فكرة الحياة الأخرى لم تكن بعد قد استبانت ظلالها واتجهت إليها الأفكار[2].

على أن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت، ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود، وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا ولم تدر فكرة البعث في خلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن

---

(١) نظرات في الحياة والمجتمع علي أدهم ص ٩٥ دار المعارف بمصر.

(٢) نظرات في الحياة والمجتمع علي أدهم ص ٩٦ دار المعارف بمصر.

يكون لهم سلطان في هذه الأرض، ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس، أو لعلهم أخذوا شيئاً منها عن المصريين. ومن هذه الخاتمة الروحية ولدت المسيحية[1].

إذن فكل ما عند اليهود من الحياة الآخرة لم يكن إلا وليد بأسهم من مكان كريم في هذه الدنيا ولو وجدوا هذاك المكان لكان لهم في الحياة الآخرة نظر آخر.

ومن هنا يتضح لنا أنه عندما جاءت شريعة موسى فلا شك أنها قد حملت إلى بني إسرائيل صورة واضحة عن البعث، والحساب والجنة والنار وإن يكن بنو إسرائيل قد عبثوا بهذه الصورة في عهد من عهودهم لأنهم حين حددوا العهد، والتمسوا الحياة الآخرة فيه، كان أقرب شيء إليهم هو ما في شريعة موسى المكتوبة في الصحف والمحفوظة في بعض الصدور. فذلك أقرب إليهم بلا شك من أن يلتمسوا هذه الصورة عن الحياة الآخرة من الأمم الأخرى التي تعد ذات ديانات وثنية بالنسبة لما جاء به موسى عليه السلام.

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثاني من المجلد الأول الشرق الأدنى ص ٣٤٥.

# الفصل الثاني
# الديانة المسيحية

لم يواجه الإنجيل قضية البعث والحساب والجزاء مواجهة صريحة، كما لم يجعلها قضية للحوار، إذ لم يكن من همه ووظيفته أن يقرر عقيدة، أو يحدد مذهباً ويشرحه فالمسيح إنما أرسل إلى اليهود بني إسرائيل الذين سبقه إليهم أنبياء كثيرون، وتركوا فيهم كتابين سماويين التوراة والزبور - وفي التوراة - مهما يكن دخل عليها من تحريف - شروح مطولة وفصول كاملة عن البعث، والجزاء، والجنة والنار فلم يكن - والأمر كذلك - أن يعيد المسيح ما جاء في التوراة عن هذه الأمور، خاصة وأن بني إسرائيل لم يكونوا ينكرون شيئاً منها. وإنما كانوا في أشد الحاجة إلى رسالة تنزع تلك القسوة التي تمكنت من قلوبهم، فانتزعت منها عواطف الرحمة والحب، وملأتها ضغينة وحقداً وأنانية - وذلك لما نزل بهم من المصائب ولما أصابهم من تشتت وتشريد على يد أعدائهم من الأشوريين والبابليين وغيرهم.

فكانت مهمة المسيح إذن حيال هذه القلوب المتحجرة أو خراف إسرائيل كما كان يدعوهم - كانت مهمته أن يبعث إلى هذه القلوب قطرات من عواطف الإخاء والحب والتراحم، أما الإله فإنهم يعرفونه، وإن كانوا لا يتعاملون معه وأما القضية التي تعنينا وهي البعث والجزاء والجنة، والنار فإنهم على علم بها ولكن بلا عمل لها ولا إحساس بها، من أجل هذا، كان ما يذكر في الإنجيل عن البعث والجزاء تذكيراً بهما، وإعداداً لهما

وتخويفاً من المصير البائس لمن لا يعلمون الصالحات والحق أن الكلمات التي ألقى بها السيد المسيح على أسماع بني إسرائيل والأمثال التي ضربها لهم في شأن الحياة الآخرة، وما يلقى المحسنون والمسيئون فيها وكانت مشحونة بقوى روحية تبعث في الجماد الحس والحياة ولكنها مع ذلك لم تنل من هذه القلوب المتحجرة منالاً، ولم تثر فيها أي عاطفة خير أبداً.

ونجد أن ملكوت السموات هو الجزاء الموعود في دعوة السيد المسيح للطيبين الصالحين من الناس إنه لا يدخله إلا من عمل له في هذه الحياة الدنيا وآثر صلاح روحه على مطالب جسده.

فنجد أنه لم يرد في تعاليم السيد المسيح شيء عن البعث وعن الفترة الفاصلة بين الموت والبعث. والبعث الجماعي الذي يقوم الناس فيه من قبورهم مرة واحدة. وإنما هي نقلة واحدة من موت إلى ملكوت السموات أو إلى خارج هذا الملكوت.

يقول المسيح في بعض عظاته: طوبى للمساكين بالروح، لأنه لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى فإنهم يتعزون طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء لأنهم يرحمون، طوبى للأتقياء لأنهم يعاينون الله[1].

كما يقول أيضاً: لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوا بل خافوا بالحرى من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم[2].

وفهم من هذا النص أن المسيح يرى أن الروح والجسد متلازمان في الثواب والعقاب في الحياة الآخرة وهذا يخالف ما ذهب إليه «ابن سينا».

من أن العقيدة المسيحية ترى الحياة الآخرة للروح وحدها، وليس

---

(١) الإنجيل كتاب الحياة ترجمة تفسيرية للعهد الجديد، إنجيل متى - الإصحاح الخامس ص ١٥، ١٩٨٢م.

(٢) إنجيل متى - الإصحاح العاشر ص ١٥.

للجسد فيها نصيب بمعنى أن البعث وإن شمل الكيان الإنساني من روح وجسد، فإن الجسد لا يناله شيء هناك من مطالبه، من مطعم ومشرب - طيب أو رديء وإنما الذي يتوجه إليه الثواب والعقاب هو الروح.

يقول «ابن سينا» وأما الذي عند النصارى من أمر بعث الأبدان ثم خلوها من الدار الآخرة عن المطعم والملبس والمنكح، فهو أرك ما تذهب إليه الأوهام في أمر الميعاد.

وذلك أنه إن كان السبب في البعث هو أن الإنسان هو البدن، أو أن البدن شريك النفس في الأعمال الحسنة والسيئة. فينبغي أن يبعث. وهذا القول يعنيه إن أوجب ذلك فإنه يوجب أن يثاب البدن ويعاقب بالثواب والعقاب البدني المفهوم عند العالم.

وإن كان الثواب والعقاب روحانياً الغرض في بعث الجسد من أجل هذا[1] فإن «ابن سينا» كان من القائلين ببعث الروح وحده، دون الجسد.

ونجد أن السيد المسيح قد أكثر من ضرب الأمثال لملكوت السموات، كي يحرك لهذه الأمثال الحياة نفوس اليهود إلى هذا الملكوت، ويربط قلوبهم به ولكن أبى الحجر الصلد أن يقبل الماء، أو ينبت زرعاً.

يقول السيد المسيح في تصوير ملكوت السموات:

يشبه ملكوت السموات، إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله، وحينما الناس نيام جاء عدوه وزرع زواناً[2] في وسط الحنطة ومضى فلما طلع النبات وضع ثمراً حينئذ ظهر الزوان أيضاً فجاء عبيد رب البيت، وقالوا له: يا سيد أليس زرعاً جيداً زرعت في حقلك، فمن أين له زوان؟ فقال لهم: إنسان عدو فعل هذا فقال له العبيد: أتريد أن نذهب ونجمعه فقال لا لئلا تقطعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه دعوهما ينموان كلاهما معاً، إلى

---

(١) رسالة أضحوية في أمر الميعاد لابن سينا تحقيق سليمان دنيا ص ٦١ دار الفكر العربي ١٩٤٩م.

(٢) الزوان: نبت قصير رديء.

الحصاد وفي وقت الحصاد أقول للحصادين أجمعوا أولاً الزوان وأحزموا حزماً ليحرق، أما القمح فأجمعوه إلى مخزني[1].

في هذا المثل يشرح السيد المسيح قضية الحياة الإنسانية، وما وراء هذه الحياة، وما يلقى الأخيار والأشرار من جزاء في الدار الآخرة.

لقد سأل تلاميذ المسيح عن حقيقة هذا المثل، فقالوا: «فسر لنا مثل زوان الحقل» فأجابهم: «الزراع الزرع الجيد هو ابن الإنسان. والحقل هو العالم والزرع الجيد هو بنو الملكوت والزوان هو بنو الشرير. أما العدو الذي زرع الزوان فهو إبليس. والحصاد هو نهاية الزمان. والحصادون هم الملائكة. وكما يجمع الزوان ويحرق بالنار، هكذا يحدث في نهاية الزمان يرسل ابن الإنسان ملائكته فيخرجون من ملكوته جميع المفسدين ومرتكبي الإثم ويطرحونهم في أتون النار، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. عندئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم. من له أذنان فليسمع[2].

فمن هو ابن الإنسان هذا الذي يجعل إليه السيد المسيح التصرف في هذا الوجود، ويضيف إليه أمر البعث والجزاء؟ أهو الله؟ وكيف يصف الإله بأنه ابن الإنسان؟ وهل لابن الإنسان ملكوت؟ وهل له ملائكة يعملون في ملكوته؟ إن ذلك لن يكون إلا لله يصفه السيد المسيح بأنه الأب السماوي! والحق أن هذه الكلمة قد تلبست بكثير من الغموض الذي يحجب النظر عن كشف ما وراءها فلقد اختلطت هذه الكلمة «ابن الإنسان» بكلمة «الله» في كثير من آيات «الإنجيل» بحيث أصبح المدلول لأي منهما في مكان، نجده للآخر في مكان آخر.

ففي كثير من الآيات نجد الملكوت مضافاً إلى الله كقول السيد المسيح:

«الحق أقول لكم إنه من الصعب على الغني أن يدخل ملكوت

---

(١) الإنجيل كتاب الحياة ترجمة تفسيرية للعهد الجديد ١٩٨٢م إنجيل متى الإصحاح الثالث عشر ص ٢٠ و ٢١.

إنجيل متى الإصحاح الثالث عشر ص ٢١.

السماوات وأيضاً أقول: إنه الأسهل أن يدخل الجمل في ثقب إبرة من أن يدخل ملكوت الله[١].

فالملكوت هنا مضاف إلى الله على حين نجد الملائكة تضاف إلى ابن الإنسان «يرسل ابن الإنسان ملائكته...[٢]» متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم الذين تبعتموني على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر[٣].

فنجد أن المسيحية عندها «ملكوت الرب» و «الحياة الأبدية للنعيم وغدها» جهنم و «النار» و «الظلمة للعذاب» وهناك «يوم الدين» يوم يأتي ابن الإنسان «المسيح» مع ملائكة الله. وقد أشرت إلى هذا النص ولكننا لا نستطيع أن نجزم متى؟ أيوم القيامة أم يوم قيامته بعد دفنه بثلاثة أيام كما ورد في الأناجيل: جاء في الإصحاح السادس عشر من إنجيل متى: «فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله. «الحق أقول لكم: إن بعضاً من الواقفين هنا لن يذوقوا الموت قبل أن يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته»[٤].

وجاء في الإصحاح الثاني عشر من الإنجيل نفسه: أقول لكم: إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين[٥].

كما ورد في الإصحاح السادس عشر من هذا الإنجيل: «وأن أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابن كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح السموات[٦].

---

(١) إنجيل متى الإصحاح التاسع عشر ص ٣٠ الإنجيل كتاب الحياة ترجمة تفسيرية للعهد الجديد ١٩٨٢م.

(٢) إنجيل متى الإصحاح الثالث عشر ص ٢١.

(٣) إنجيل متى الإصحاح التاسع عشر ص ٣٠.

(٤) إنجيل متى الإصحاح السادس عشر ص ٢٦.

(٥) إنجيل متى الإصحاح الثاني عشر ص ١٨.

(٦) إنجيل متى الإصحاح السادس عشر ص ٢٦.

كما ورد في الإصحاح الثامن عشر: «فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك، خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان. وإن اغترت عينك فاقلعها وألقها عنك، خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تلقى في جهنم النار ولك عينان[1].

كما نجد في الإصحاح التاسع من إنجيل مرقس زيادة على ما جاء في إنجيل متى في هذا الموضع: «من أن تلقى في جهنم النار التي لا تطفأ حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ»[2].

وجاء في الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى: «وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا، إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي»[3].

وهكذا لا نعثر إلا على هذه الإشارات المختصرة للنعيم في ملكوت السموات وللعذاب في جهنم النار أو في الظلمة الخارجية.

ولكننا نجد بعض التفصيل في الإصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متى: «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده، وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده، ويجمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه، والجداء عن اليسار، ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسس العالم، لأني جعت فأطعموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريباً فآويتوني، عرياناً فكسوتموني، مريضاً فزرتموني، محبوساً فأتيتم إلى نجيبة الأبرار حينئذ قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك، أو عطشاناً فسقيناك ومتى رأيناك غريباً فأويناك،

---

(١) إنجيل متى الإصحاح الثامن عشر ص ٢٨.

(٢) إنجيل مرقس الإصحاح التاسع ص ٦٦.

(٣) إنجيل متى الإصحاح السادس والعشرين ص ٤٣.

أو عرياناً فكسوناك، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك، فيجيب الملك ويقول: الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتوه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم.

«ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته. لأني جعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقنوني كنت غريباً فلم تؤوني، عرياناً فلم تكسوني، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني. حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك؟ قائلاً: الحق أقول لكم: بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر لم تفعلوا في هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية[1].

هذه هي الصورة الوحيدة التي جاءت مفصلة تتحدث عن القيامة والحساب والنعيم والعذاب في الأناجيل والتي عليها الديانة المسيحية إلى يومنا هذا ومع وجود بعض اليهود والمسيحيين في الجزيرة العربية فنجد أن عقيدة العالم الآخر لم تستطع أن تنتشر في عرب الجزيرة كما ظلت فكرة البعث والإيمان باليوم الآخر فكرة غريبة تقابل بأشد استنكار.

(١) إنجيل متى الإصحاح ٢٥ ص ٤١.

# الباب الرابع

## الرحلة الخالدة في العقيدة الإسلامية

الإسلام ديننا العظيم فرض الإيمان بالغيب كركن من أركان العقيدة، فالإيمان بالغيب من كل ما أخبر به القرآن الكريم من جن وملائكة، ومن بعث ونشور وحساب وجزاء هو جزء لا يتجزأ من العقيدة في الإسلام.

ولا بد بعد الحياة الدنيا من فناء، ولا بد بعد الفناء من بعث ونشور وحساب وجزاء، فإما إلى جنة وإما إلى نار.

والإيمان بذلك كله إيمان بالقرآن وبما قرره كتاب الله العلي العظيم من أمور لا ندركها بحواسنا ولا بغير حواسنا، وإنما نؤمن بها إيماناً صادقاً جازماً لأنها من الأمور التي أنبأنا بها العليم الحكيم في القرآن الحكيم المنزل من السماء على محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

# الفصل الأول

# الرحلة كما جاء بها القرآن الكريم

هي رحلة الحياة الدنيا حسب الآجال التي قدرها الله وهي رحلة الموت، ثم رحلة الحياة بعد الموت من بعث ونشور وحساب وجزاء.

وقد فصل القرآن الكريم حديثها، وأنبأنا بكل تفاصيلها، وأعلمنا أن الإيمان بكل ذلك من باب الإيمان بالغيب الذي جعل الله عز وجل ركناً من أركان العقيدة.

وعلى الناس أن يقولوا سمعنا وآمنا وصدقنا بكل ما أخبرتنا به يا مولى الناس وإلٰههم وخالقهم يا ذا الجلال والإكرام.

## البعث والنشور

تدل آيات القرآن الكريم على أنه أذن الله بانتهاء عمر هذه الدنيا أمر ملكاً من ملائكته هو إسرافيل عليه السلام أن ينفخ في الصور نفخة أولى تضطرب عندها نواميس هذا الكون، وتنقلب صورته عما هي عليه الآن، ويموت من شاء الله له من الخلائق جميعاً، ويوقفهم للحساب بين يديه، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾[1].

وقد أورد القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي تتحدث عن هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك قال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾[3].

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[4].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وجميعها ينصب على إثبات أن البعث يوم القيامة لا مرد له، ولا مناص من وقوعه ليتم الجزاء العادل على الأعمال.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[5].

ولقد تحدث القرآن الكريم عن قضية البعث، وساق الأدلة المشاهدة ما يكفي لإقناع المرء بها ومن هذه الأدلة الاستدلال على النشأة الثانية بالنشأة الأولى يقول الله تعالى في سورة الروم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

---

(١) سورة الزمر: الآيات ٦٨، ٦٩، ٧٠.
(٢) سورة ق: الآيات ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤.
(٣) سورة القمر: الآيات ٦، ٧، ٨.
(٤) سورة يس: الآيات ٥١، ٥٢، ٥٣.
(٥) سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨.

ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة يلفت المولى عز وجل نظر عباده إلى أنه أوجدهم في الأصل من العدم، فإعادته لأجسامهم بعد فنائها أهون وأيسر من باب أولى وإن كان لا يوجد سهل ولا صعب على المولى جل جلاله، لأنه يقول للشيء كن فيكون فالكل أمام قدرة الله واحد[2] وقد علم الله نبيه أن يرد على الكفار المعاندين بهذا الدليل إذا استبعدوا أمر البعث بعد الموت، فقد ذكر ابن كثير وغيره في تفسير سورة يس أن أبي بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال عليه الصلاة والسلام: «نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار[3].

ونزلت الآيات من آخر سورة يس:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[4]. والآيات ـ إلى جانب لفتها نظر المخلوقين إلى أن الله الذي علم خلقكم أول مرة وبهذا العلم خلق يستطيع أن يردكم مرة أخرى

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٢) الحياة والموت محمد متولي الشعراوي ص ١١٠ مؤسسة أخبار اليوم وكذا مجلة منبر الإسلام العدد ١٢ ص ٦٧، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م بقلم طلعت محمد عفيفي. وكذا محاضرات في مادة التوحيد النبوات والسمعيات ثريا محمد حسن المرغني ص ١٢٠.

(٣) تفسير ابن كثير؛ وكذا عندما تقوم القيامة مصطفى اللمعي ص ٧٣ الناشر المختار الإسلامي ص ١٠، ١٩٨٨م.

(٤) سورة يس: الآيات ٧٧ ـ ٨٣.

إلى الحياة وهو أهون عليه ـ تعطيهم أيضاً مؤشرات أخرى لتحقيق الإيمان بهذه القضية، فهي تبرز ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ليوقنوا بإمكانية سريان الحياة مرة أخرى في الجسد المتحلل، وهي تبرز أن الله قد خلق العالم الأكبر من لا شيء، ليوقنوا بأن القادر على الأكبر قادر على ما هو أقل منه لا محالة، ويلفت نظرهم كذلك إلى أن فعل الله ليس كفعلهم يحتاج إلى زمن، ويحتاج إلى مادة تكون موضوعاً للفعل، بل إنه ـ سبحانه ـ يتصرف بالقدرة المطلقة والإرادة الخالقة لا يحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زماني[1] إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون[2]. كما يستدل على البعث بإحياء الأرض الميتة فقد تكرر في القرآن الكريم مراراً لفت الأنظار إلى الأرض الهامدة يأتيها المطر فتحيا بعد موات ثم يهيج زرعها فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وبعد ذلك يذكر الله الإنسان ببعثه يوم القيامة.

ومن أمثلة ذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[3].

إن انشقاق البذرة في بطن الأرض، وظهورها بصورة شجرة عظيمة باسقة تكبر جرمها الابتدائي بمئات الآلاف من المرات، وخروج الآلاف المؤلفة من البذور مثلها، إن هذه الصورة ـ وإن بدت عادية لكثرة مشاهدة وقوعها فإنها تنبىء عن أن وراءها فكرة عظيمة هي التي هيأت لها هذا النور والازدهار فالله الذي أحيا هذه الشجرة من موات قادر على أن يحيي أجسادنا

---

(١) مجلة منبر الإسلام العدد ١٢ بقلم الدكتور طلعت محمد عفيفي ص ٦٧، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، وكذا معجزات القرآن الجزء الحادي عشر مشاهد يوم القيامة محمد متولي الشعراوي ص ٧٩ كتاب اليوم يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم العدد ٢٩٣ أبريل ١٩٨٩م.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

(٣) سورة فصلت: الآية ٣٩.

بعد الموت وإن تناثرت أجزاؤنا، وتفرقت أعضاؤنا. ولهذا ندرك السر في التعبير عن خلق الآدميين أول مرة بالإنبات لقرب الشبه بين الإنسان والنبات من هذه الجهة، حيث يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[1].

فكما ينبت الزرع من الأرض إذا بللها المطر أو سقاها، فإن الله مخرج منها الإنسان بعد فنائه[2]، وقد ضرب الله المثل في القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[3].

وقال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾[4].

كما يستدل على البعث بالاستيقاظ بعد النوم وقد استعمل القرآن الكريم لفظة الوفاة عند الحديث عن الموت فقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾[5].

واستعملها كذلك عند الحديث عن النوم فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾[6].

وفي هذا الاستعمال القرآني مايشعر بأن ثمت شبه بين النوم والموت، وبين الاستيقاظ والبعث، مما يجعل العاقل يبني ما يشاهد على ما هو غائب.

---

(١) سورة نوح: الآيتان ١٧، ١٨.

(٢) يوم الفزع الأكبر مشاهد يوم القيامة وأهوالها للإمام القرطبي تحقيق وتعليق وتقديم محمد إبراهيم سليم ص ٤٥ مكتبة القرآن.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٧.

(٤) سورة فاطر: الآية ٩.

(٥) سورة السجدة: الآية ١١.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٦٠.

ويبقى بعد أن يؤمن المرء بالبعث أن يعد له عدته.

إن القرآن الكريم ينقل لنا أحداث يوم القيامة كأنها كتاب مفتوح، ونتملى مضمون الكلمات من واقع ما يمر بنا من أحداث الحياة فنتمثلها بخيالنا القاصر حسب ما نعرفه من مشاهداتنا في بعض الأحيان.

لا بد لنا أن ننظر في القرآن الكريم نظرة تبين لنا هذه المشاهد المروعة التي تبعث الفزع في القلوب، وتقشعر لهولها الأبدان، وتحتار في إدراكها العقول، فلا تملك إلا التسليم المطلق إزاء العظمة الربانية، وتسجد لخالق الأرض والسماء وتسبح بحمده وتسأله العفو والغفران.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾[1]. فهذه صورة من صور البعث في القرآن الكريم وهناك غيرها الكثير والكثير في القرآن الكريم.

(١) سورة الحاقة: الآيات ١٣ ـ ١٨.

## الحشـر:

## الحشر هو تجمع الناس بعد قيامهم من القبر للحساب والجزاء

والحشر هو: سوق الناس حفاة عراة إلى أرض المحشر وهي أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة[1]. وأرض المحشر هي أرض غير أرضنا التي نحيا عليها، وهي أرض جديدة يكون عليها حشر العباد استعداداً للفصل بينهم، وقد قال الإمام الغزالي: «ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم» قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾[2]. ومشهد الحشر من المشاهد التي حشد لها القرآن الكريم كلمات ذات طاقات فيها قهر وعذاب، حيث تبدو الكلمة وكأنها شهاب منقض، أو سيل عتي، يدفع الناس دفعاً إلى الموقف الذي أريد لهم أن يقفوا فيه. قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[3].

إن مشهد الحشر على الوجوه فيه من التحقير والإهانة والإذلال ما يقابل ذات الاستكبار والإعراض عن الحق والتعالي عن الاستماع إليه وقد جاءهم به رسول أمين، إنه مشهد يُمرغ كبرياءهم أمام الحشود ويزلزل

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ج ٤ ص ٤٦٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٦٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٩٧.

عنادهم ويهز كيانهم هزاً ولا يملكون شيئاً آنئذ وقد كفروا وضلوا من قبل بتحذير من الله لهم.

وما يزيد هذا المشهد فزع وهول أن هؤلاء الكفار لم يحشروا على وجوههم فحسب.

وإنما هو كذلك عمى وبكم وصم زيادة في قسوة الحشر والسحب في النار. فالمسحوب أعمى أبكم أصم يلقى من الاهانات والآلام حين يسحب أضعاف ما يلقاه المبصر المتكلم السامع بالإضافة إلى أن جهنم هنا دائمة التسعر كلما خبت زدناهم سعيراً[1].

وقد جاء في وصف الناس وهم في سعيهم إلى أرض المحشر أنهم كالفراش المبثوث وكالجراد المنتشر وفي هذا التشبيه ما يقرب للمخاطبين به هوان الناس وضآلتهم، والصورة قريبة إلى الأذهان، إذ إنها مستمدة من مألوف في حياتهم، غير أن ما توحيه الآيات بعد ذلك هو الذي يجعل العقل في تفكير دائم لشدة ذلك اليوم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾[2].

إن كلمة مهطعين إلى الداع تعبير بحق عن ذلة فظيعة تأخذ الكافرين حتى أنهم لا يستطيعون الامتناع أو إظهار الاستعلاء الذي كان يحكمهم في الدنيا ويغريهم، بالآخرين، كما أن الأبصار الخاشعة من ذلك تضيف إلى الصورة بعداً آخر للخزي الذي يبؤون فيه منذ اللحظة التي سمعوا فيها دعوة الداع، فإذا هم مساقون بقوة غيبية يجهلون مصدرها ولا يقدرون على الامتناع عن تلبية أوامرها.

والهوان المتجسد في وصفهم بالفراش تارة وبالجراد أخرى يلقي ظلالاً أخرى على الصورة الشاقة التي يجدون أنفسهم داخلها فالفزع والاضطراب

---

(١) مشاهد القيامة سيد قطب ص ١٤٤.

(٢) سورة القمر: الآيات ٦ ـ ٨.

والتدافع الشديد الملك تمثله الحركة السريعة، كما يبدو في تهافت الفراش على النار، وإلقائه بنفسه في أتونها المحرق.

ومن الملامح التي تدل على سرعة استجابتهم للنفير العام، وإسراعهم في الانطلاق نحو مصدر الصوت قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1]. وقوله عز وجل: ﴿يَنسِلُونَ﴾ بمعنى يسرعون، وقد فسرها أبو عبيدة بالسير السريع وقرنه بعدو الذئب فقال: ينسلون: يسرعون والذئب يعسل وينسل[2].

أما في اللغة فنجد أن معاني كلمة «النسل» متقاربة بعضها من بعض فالنسل بصورة عامة هو ضرب من السير السريع[3] ولكننا نجد أنه اقترن بضرب من مشي الذئب قال ابن دريد: وعس الذئب يعسل عسلاً وعسلاناً.

وكذلك نسل نسلانا وهو ضرب من المشي يضطرب فيه[4]. وقال الزمخشري: «ونسل الذئب إذا أسرع بإغاق»[5] فنجد أن صورة نسل الذئب يقرب لنا الآية الكريمة لأنه سير سريع فيه اضطراب فكذلك يكون حال الناس في سرعة سيرهم واضطرابهم نحو الداعي. فمن يتأمل الآيات الكريمة التي عن اليوم الآخر وجد الأهوال العظام والمواقف التي لا يتحملها العقل البشري ذلك لأن هول الموقف أكبر من أن تتحمله طاقة البشر.

إن مشهداً يصوره القرآن الكريم يعطي وضوحاً في الرؤية لما نقول

---

(١) سورة يس: الآيتان ٥١، ٥٢.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة تحقيق محمد فؤاد سزكين ج ٢ ص ٤٢.

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية الجوهري ج ٥ ص ١٨٣ وكذا معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج ٥ ص ٤٢٠، وكذا لسان العرب ج ١٤ ص ١٨٤، وكذا أعجب العجب في شرح لامية العرب أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ص ٣٨ مطبعة الجوائب ١٣٠٠هـ. وكذا أمثال العرب المفضل الضبي ص ١٩ مطبعة الجوائب ١٣٠٠هـ.

(٤) جمهرة اللغة أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي ج ٣ ص ٣٢، ٥١.

(٥) أساس البلاغة للزمخشري ص ٤٥٥.

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

يقول سيد قطب: فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه. وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا. لقد كانوا يسرعون إلى الأنصاب يعبدونها، فها هم أولاء يسرعون يوم القيامة إسراعهم ذاك، ولكن شتان ما بين هذا وذاك! ثم تتم سماتهم بقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ فنلمح سيماهم كاملة، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة، وهي صورة تتناسق مع صورة الخوض واللعب في الدنيا، فإنهم ليسرعون اليوم ولكن لا إلى اللهو واللعب، بل إلى الذل والرهق. وإن أساريرهم المرحة الفرحة في الدنيا لتخشع وتذل في الآخرة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون.

«واحدة بواحدة، يوم بيوم»[2]. ومن هنا نجد الإعجاز العظيم في التصوير القرآني الذي وصف سرعة سير الناس نحو الداعي وشبهه بالطواف حول النصب ذلك التصوير الذي تحدى الاعتقاد الديني ولم يأخذ منه إلا الصورة الفنية وهي صورة الطواف.

ويشتد الزحام وتضيق الأرض، إذ يلتقي في ذلك اليوم كل مخلوق خلقه الله من ابتداء الدنيا حتى فنائها، يحشر كل شيء حتى أن الشخص لا يدري أين يضع قدمه لشدة الزحام قال ابن عباس رضي الله عنه: فهم في ضيق مقامهم فيها كضيق سهام اجتمعت في كنانتها، فالسعيد يومئذ من يجد لقدمه مقاماً. قال: وأكثر الأقدام يومئذ بعضها على بعض[3].

وإذ القوم في تزاحمهم ذلك إذ تدنو الشمس من رؤوسهم حتى لا يكون بينها وبينهم إلا مقدار ميل واحد، ولأن الموقف موقف عذاب لهم

---

(١) سورة المعارج: الآيتان ٤٣، ٤٤.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ـ ص ٢١٩.

(٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية محمد بن أحمد السفاريني ج ٢ ص ١٦٨، المكتب الإسلامي، بيروت.

فهم يتلقون حرارتها بإرهاق وغت شديدين، إذ إن خلقهم الجديد الذي أنشؤوا به يمنع انصهارهم وذوبانهم ولا موت هناك بعد أن قاموا من رقدتهم والتي عبر عنها القرآن الكريم بأنها الموتة الأولى ويطول بهم الوقوف حتى أن طول اليوم فيه خمسين ألف سنة، ولا يجد فيه المؤمنون نصب الكافرين وإنما يمتاز المؤمنون يومئذ برحمة الله التي تخفف عنهم ما يكابده الكفار من مشقة وعسر وضيق. ولشدة حر ذلك اليوم، وتزاحم الناس فإن العرق الذي يسيل من أجسادهم يذهب في الأرض ثم يرتفع حتى يغرق فيه من يغرق وينال كل حسب عمله[1].

وإزاء ما يرى الكفار من تحقيق ما وعد الله به، يوقنون أن ما جاءوا به من عمل لا بد أن يقذف به في وجوههم فيعتريهم اليأس والقنوط، وقد ذكر الله حالهم مبيناً أن قيام الساعة وما فيها من الهول والرعب والفزع يترك المجرمين في يأس مرير قال عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾[2] إنهم الآن مجرمون بلفظ الكتاب العزيز، فكيف تغفر ذنوبهم وهي مثل الجبال طولاً وضخامة.

ولفظ الإبلاس هنا تعني اليأس الذي لا أمل معه ولا رجاء فيه. ذكر الفراء فقال: «المبلس البائس المنقطع رجاؤه». ولذلك قيل للذي يسكت عن انقطاع حجته لا يكون عنده جواب: قد أبلس. وقد قال الراجز:

يا صاح هل تعرف رسماً مركساً  قال: نعم أعرفه وأبلسا[3]

---

(١) كتاب اليوم معجزة القرآن الجزء الحادي عشر مشاهد يوم القيامة محمد متولي الشعراوي ص ٨٢.

(٢) سورة الروم: الآية ١٢.

(٣) معاني القرآن أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد النجار ج ١ ص ٣٣٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٨٠م ـ والبيت لم ينسبه الفراء إلى قائله وهو العجاج كما في مجاز القرآن لأبي عبيد تحقيق محمد فؤاد سزكين ج ٢ ص ١٢٠.

كما فسر ابن عباس إبلاس المجرمين بأنه يأسهم[1]. وأضاف الزمخشري إلى معنى اليأس السكوت والحيرة قال: الإبلاس أي يبقى يائساً متحيراً، يقال ناظرته فأبلس إذا لم ينبس، ويئس من أن يحتج، ومنه الناقة المبلاس التي لا ترغو وقرىء يبلس بفتح اللام من أبلسهُ إذا اسكته[2].

ويلاحظ في هذه التفاسير أنها أعطت معنى مشتركاً للكلمة وهو اليأس والحيرة والسكوت. وهكذا ورد معنى الكلمة في كتب اللغويين قال الجوهري: «أبلس من رحمة الله، أي يئس ومنه سمي إبليس وكان اسمه غرازيل»[3].

وهو معنى جعله ابن فارس الأصل لمعاني الكلمة قال: هو أصل واحد وما بعده معول عليه، فالأصل اليأس يقال: أبلس إذا يأس قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ قالوا ومن ذلك اشتق اسم إبليس كأنه أيس من رحمة الله[4]. من كل هذه المعاني نستطيع أن نفهم الآية الكريمة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾[5] ذلك لأن المجرمين يوم القيامة حين يرون العذاب متمثلاً بظاهرة الاضطراب الكوني ييأسون من العفو والرحمة، لأنهم ارتكبوا في دنياهم ذنوباً عظاماً ما لم يرعووا فيها إلى رسالة الرسل والأنبياء وهم في هذه الحيرة لا يستطيعون الكلام والدفاع عن أنفسهم.

وتستبد بالكفار حسرة قاتلة وندم عظيم، حتى لقد سمي يوم القيامة بيوم الحسرة لكثرة تحسر الكافرين فيه على ما فرطوا في جنب الله في الحياة

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس الفيروزآبادي ص ٢٥١، وكذا اللغات في القرآن عبد الله بن عباس، تحقيق صلاح الدين المنجد ص ٣٨.

(٢) الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٢١٦.

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية الجوهري ج ١ ص ٩٠٦، وكذا لسان العرب لابن منظور ج ٧ ص ٣٢٨.

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج ١ ص ٢٩٩، ٣٠٠، وكذا المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٥٩.

(٥) سورة الروم: الآية ١٢.

الدنيا ويبين القرآن الكريم حسرتهم وندمهم فيقول عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾[1] ولا يجدي الندم ولا عض الأيدي، إذ أن الموقف العصيب يزيد من الآلام النفسية ولن يغير مما هم فيه إلا أن يتمنوا ما كانوا يبغضون في حياتهم الأولى وهو مفارقة الحياة فالآن أمنية عزيزة غالية أن يمن الله عليهم بالموت أو يحولهم إلى شيء لا يشعر أو يحس حتى ينتهي هذا العذاب المهين: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾[2] ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[3] ومن الآيات التي وردت أيضاً لتؤكد حشر الناس وجمعهم للحساب والجزاء قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾[4] وواضح أن بين البياض والزرقة تقارب في اللون.

وإذا تتبعنا الجو القرآن بصورة عامة، وجدناه يسند تفسير الزرقة بالعمى، فقد قال الله تعالى في صدد الحديث عن الأنبياء أن الأمة التي تضل طريقها، ولا تهتدي، فإنها قد عمت أو تعامت عن حقيقة النبوة حتى إذا انتهى سرد القصص والمواعظ جاء الوعيد بحشر الضالين عمياً يوم القيامة، كما ضلوا عن الهداية في الحياة الدنيا: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[5].

ويبدو أنه سبحانه وتعالى لا يريد لهذه الآيات الكريمة العمى الحقيقي،

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة النساء: الآية ٤٢.
(٣) سورة النبأ: الآية ٤٠.
(٤) سورة طه: الآية ١٠٢.
(٥) سورة طه: الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

وإنما هو إظهار حالة الذل التي يحشرون عليها، وإنهم عمى عن نعم الله وثوابه في الآخرة كما كانوا عمياً عن الحقيقة والهدى في الحياة الدنيا[1].

أما سياق الآيات العام فإنه يساعدنا على تصور معنى العمى ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾[2] فالمجرمون في رعب شديد وذهول عظيم أودى بعقولهم وأبصارهم، وقد تبعوا الداعي مسرعين يريدون أن يتساءلوا ولكن هول الموقف يحول دون ذلك، فيخشون السؤال، ويكتفون بالهمس والتخافت على عادة العمى حين يتحرجون من الكلام بصوت مرتفع، ولفظة التخافت نجدها تزيد من رسم الصورة لأنها تشير إلى أن صاحبها يتوجس خيفة من انكشاف سره على حين يختلف موقف المؤمنين، فقد صدقوا ببشارات المصطفى صلوات الله عليه.

---

(١) انظر تفسير العمى في تنوير المقباس من تفسير ابن عباس أبو الطاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ص ١٨٠ وكذا رسالة في المعاد ضمن رسائل الجاحظ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ج ١ ص ٩٩ القاهرة مكتبة الخانجي ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م وكذا تفسير القرآن الكريم أبو محمد سهل بن عبد الله ص ٣٨ تصحيح لجنة دار الكتب العربية الكبرى بمصر ١٣٢٩هـ.

(٢) سورة طه: الآيات ١٠٢ ـ ١٠٨.

# الحساب والجزاء

## ـ ١ ـ

الحساب هو وقوف العباد بين يدي الله عز وجل للمحاسبة قبل انصرافهم من المحشر، فيجيء الله عز وجل بكتاب مسطور يوضع في رقبة كل إنسان فيقرأ فيه كل ما عمله في الدنيا من صالح الأعمال وطالحها، فهو كشريط سُجل فيه كل ما عمله الإنسان من خير أو شر، فمنهم من يعرض عليه عمله، ثم يطلعه الله على سيئاته سراً ثم يعفو عنه ويأمر به إلى الجنة. ومنهم من يناقشه ربه في صغيرة وكبيرة ويشهد عليه الشهود ثم يأمر به إلى النار.

ومنهم من يأتي بذنوبه وخطاياه مقراً معترفاً بجرمه ثم يتوسل إلى ربه طالباً الصفح والعفو والمغفرة لما سبق منه أن فرّج عن مسلم كربة أو يسر عن مؤمن عسراً فيعفو الله عنه ويدخله الجنة. فالحساب منه العسير ومنه اليسير، منه التكريم ومنه الزجر والتوبيخ ومنه إسباغ الفضل والعفو والصفح والتجاوز ومنه من لا ينظر إليهم رب العباد ولا يكلمهم[1].

والمحاسب في ذلك اليوم قيوم السموات والأرض وهو ما يلقي على المشهد مظهر العظمة الحقة، والمهابة الكاملة، والجلال التام ومجيء رب العالمين إلى القضاء بين الناس تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن

(١) شرح الباجوري على الجوهرة ص ٢٠٧ طبعة الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية.

يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾[1]. وواضح من الآية أن الملائكة تحضر الحساب ومعها صحائف أعمال العباد التي أحصت على الخلق أعمالهم وأقوالهم فكانت حجة لا ترد وهو كتاب وصفه الله بقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[2] نلمح في هذه الآية الفريدة مشهداً فريداً.

فها هم خائفون من هذا الكتاب وما فيه فهو سجل أعمالهم ها هو الآن يوضع أمامهم وهم يتملونه ويراجعونه فإذا هو شامل دقيق وهم خائفون من العاقبة ضيقوا الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك واردة ولا شاردة ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ إنه لكذلك ولا حيلة ولا مفر من هذا السجل الدقيق ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ ولاقوا جزاءً عادلاً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[3].

وقد ذكر القرطبي في معنى الحساب فقال: «أن البارىء سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة يعدد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض فما يشف منها على الآخر حكم للمشفوق بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشر[4]. ويؤتى بالعباد ليعرضوا على ربهم ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾[5] ويؤتى بالمجرمين في هيئة مزرية بئيسة مقرنين في الأصفاد مسربلين بالقطران قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٠.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٣) مشاهد يوم القيامة في القرآن سيد قطب ص ١٨٨، ١٨٩، وكذا في ظلال القرآن سيد قطب ج ٤ ص ٢٢٧٤.

(٤) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص ٢٣٨.

(٥) سورة الكهف: الآية ٤٨.

﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾[1].

ويؤتى بالأمم جاثية على رُكبها لا تقوى على الوقوف لهول ما تشاهد من عظم ذلك اليوم وقد عبر عنها الكتاب العزيز في قوله عز وجل: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2]. فهذه الآية الكريمة تصور لنا مشهداً مرهوباً فهي تصور ساحة العرض الهائلة وقد تجمعت فيها الأجيال الحاشدة التي عمرت هذه الأرض في عمرها الطويل القصير وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة في ارتقاب النداء عليهم للحساب المرهوب، وقد نودوا جميعاً ذلك النداء الشامل، وأعلنوا بالدعوى التي اجتمعوا لها من كل مكان.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فكل سجلات الأعمال حاضرة بين أيدي الشاهدين[3] ومن أشد المحاسبة في ذلك اليوم أن تشهد أعضاء الإنسان عليه وتظهر له ما يحاول إنكاره. قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾[4]. وفي تفسير هذه الآية يقول الزمخشري: «والمعنى أن ينبأ بأعماله وأن لم ينبأ ففيه ما يجزىء عن الإنباء لأنه شاهد عليها بما عملت لأن جوارحه تنطق بذلك[5]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[6].

فهذه الآية الكريمة تصور لنا مشهداً عجيباً يثيرالخيال ويحرك الوجدان حيث تنقلب الأحوال وحيث يواجه الإنسان هذا الحادث العظيم يخذل بعضه فيه بعضاً وتشهد جارحة على جرحة وتتفكك الشخصية الإنسانية إلى أجزاء

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٤٩، ٥٠.
(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٨.
(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٥ ص ٣٢٣٣.
(٤) سورة القيامة: الآية ١٣.
(٥) الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ١٩١.
(٦) سورة يس: الآية ٦٥.

وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة، ويرجع كل عضو إلى بارئه مستسلماً.

إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره العقول والقلوب[1]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

فهذه الآية الكريمة تبين وتقرر أن الكفار في ذلك اليوم تشهد عليهم ألسنتهم بما تكلموا به وأيديهم وأرجلهم بما عملوا بها في الدنيا وأن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم والمشهود محذوف وهو ذنوبهم التي اقترفوها. أي تشهد هذه عليهم بذنوبهم التي اقترفوها ومعاصيهم التي عملوها[3] وجاء في تفسير ابن كثير عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً[4].

ومن هنا نعلم أنه في ذلك اليوم يختم على الأفواه وتتحدث الجوارح شاهدة على نفسها بما عملته في الدنيا لتتبين عجز الإنسان نفسه أمام أعضائه ومكوناته. ومن هنا فقد حذر البارىء عز وجل عباده من القول بلا علم فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[5]. قال قتادة: لا تقف: لا تقل: رأيت وأنت لم تر ولا سمعت وأنت لم تسمع، وعلمت وأنت لم تعلم وهذا من تجنب الكذب. والمعنى: كل السمع والبصر والفؤاد كان مسؤولاً عن نفسه، ومحقوقاً بأن يبين مستند صاحبه من حسه والسؤال: كناية عن المؤاخذة بالتقصير وتجاوز الحق.

---

(١) ف ظلال القرآن سيد قطب ج ٥ ص ٢٩٧٣.
(٢) سورة النور: الآية ٢٤.
(٣) فتح القدير ـ للشيخ محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص ١٧ ـ طبعة بيروت.
(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٧٧.
(٥) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

وقد صيغت جملة: ﴿كُلُّ﴾ على هذا النظم بتقديم ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ الدالة على الإحاطة من أول الأمر وأتى باسم الإشارة دون الضمير بأن يقال: كلها كان عنه مسؤولاً، لما في الإشارة من زيادة التمييز. وأقحم فعل «كان» لدلالته على رسوخ الخبر[1].

■ ٢ ■

قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] يقول الأستاذ سيد قطب: «اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولاتضاعف السيئات، رحمة من الله بعباده، وتقديراً لضعفهم، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير، والاستقامة، فضاعف لهم الحسنات، وجعلها كفارة للسيئات، فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب، رزقهم الله فيها بغير حساب»[3].

إن التاريخ البشري يتقدم للمحاكمة في ذلك اليوم العصيب، لا يستره شيء، فيوم الحساب لا تخفى خافية، وكل ما جهد الإنسان الحرص على ستره مكشوف، فالكل مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، وكما تتعرى الأجسام تتعرى النفوس، وتصبح فضائح الإنسان ماثلة أمام الناس جميعاً، هذه الفضائح التي طالما حجبها والتمس لها الأستار معروضة ومكشوفة أما الخلائق لا يستطيع مواراتها كما كان يفعل في الدنيا.

إن ستور الدنيا قد انتهكت وجاء اليوم الذي حذر منه القرآن الكريم أنه آت لا ريب فيه، وبلغ الرسول ﷺ الأمانة ونصح للناس أن لا يغتروا بالدنيا وما فيها، فإنهم إن عصوا الشيطان أمنوا ذلك الموقف الرهيب ولكنه

---

(١) تفسير التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور ج ١٥ ص ١٠١ الدار التونسية للنشر.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٠.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٥ ص ٣٠٨٣.

الإنسان! وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد، ففي نفسه منحنيات شتى ودروب، تتخفى فيها نفسه وتتلمس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة، وتغلق على نفسها تماماً.

إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عيناً تدسست عليه فكشفت منه شيئاً مما يخفيه، وأن لمحة أصابت منه درباً خفياً سرياً! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلة من خلواته الشعورية. فكيف بهذا المخلوق وهو عريان؟ عريان حقاً؟ عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير عريان من كل ساتر. عريان.. كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار وأمام الحشد الزاخر بالأستار؟ ألا إنه لأمر، أمرُ من كل أمر[1].

■ ٣ ■

هذا ولقد اقتضت حكمة الخالق تبارك وتعالى أن يتحمل خلق من خلقه أمانة الشرع، ومسؤولية التكليف، وعرض ذلك الأمر على السموات والأرض والجبال فأبين حمل هذه المسؤولية وقبل الإنسان حملها طمعاً فيما أعده الله عليها من الثواب.

وقد أعان الله الإنسان على هذه المهمة بأن سخر له ما في السموات وما في الأرض وجعله سيداً على سائر المخلوقات، وأرسل إليه رسلاً مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأمره أن يلتزم المنهاج السديد، منهاج رب العالمين - وأن لا ينحرف أو يميل حتى لا يعرض نفسه لغضب الله وسخطه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٣١﴾﴾[2].

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٦ ص ٣٦٨٠.

(٢) سورة النجم: الآية ٣١.

وإزاء هذا البيان الرباني بذل أناس من وقتهم وجهدهم لنصرة هذا المنهاج السديد، وصبروا على شهوات الدنيا وشرورها، فلم ينزلقوا إلى المعاصي، ولم يقترفوا الآثام. وفي مقابل هؤلاء أطلق أناس آخرون العنان لشهواتهم، وصموا آذانهم عن سماع الحق، وأعموا أعينهم عن رؤيته، وربما وقفوا بالمرصاد لأصحابه يحاربونهم ويضيقون عليهم.

وقد بين المولى تبارك وتعالى أن التسوية بين هذين الفريقين غير ممكنة، ولا تتفق مع عدل الله تعالى وحكمته، فقال تعالى في أسلوب استفهامي يفيد الإنكار والتوبيخ لمن يظنون التسوية بين الفريقين.

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1].

ويقول جل شأنه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[2].

ويقول: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾[3].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾[4].

ومن ثم اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون هناك يوم ينال فيه كل إنسان جزاءه، ويقطف فيها بلا حدود ولا قيود، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[5].

أما عن كيفية الحساب الذي سيتم به محاسبة الخلائق يوم القيامة من الأمور

---

(١) سورة القلم: الآية ٣٥.

(٢) سورة ص: الآية ٢٨.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٨.

(٤) سورة غافر: الآية ٥٨.

(٥) سورة النازعات: الآيات ٣٤ ـ ٤١.

الغيبية التي لا اطلاع لأحد عليها، ولكن بمطالعة النصوص القرآنية والنبوية يمكن للإنسان أن تجتمع لديه بعض المعلومات بهذا الجانب وتتلخص فيما يلي:

١ ـ شمول الحساب لكافة الخلائق ولجميع أعمالهم فالآيات القرآنية تفيد أن حساب الخلائق قدر مشترك بين جميعهم لا يشذ عن ذلك أحد، فيقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾[1].

كما تدل آيات القرآن الكريم على أن المخلوقات رغم كثرتها تُعد بعثها وحشرها هيناً على الله كما لو كانوا نفساً واحدة فقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2].

وإذا كانت آيات القرآن الكريم قد أشارت إلى شمول الحساب كافة الخلائق فإنها ـ كذلك ـ تشير بأن هذا الحساب يشمل كافة الأعمال والأقوال فالله سبحانه وتعالى هو القاضي يومئذ وقضاؤه الحق، وحكمه العدل المطلق، فلا يظلم رب العالمين أحداً من خلقه، فلكل إنسان أن يقرأ كتابه وينظر إلى أعماله في الميزان ويدرك سوء عمله وبشاعة جرمه[3].

إن الله سبحانه وتعالى لا يترك ذرة تضيع يوم الحساب يقول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[4].

ورغم شمول هذا الكتاب إلا أنه ـ كما تشير الآيات ـ يكون يسيراً على أهل الإيمان بالله وعسيراً على من سواهم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٦.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٨.

(٣) مشاهد يوم القيامة في الحديث النبوي أحمد محمد عبد الله العلي ص ١٢٣ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م دار الوفاء.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾[1].
والذي يؤتى كتابه بيمينه هو المرضي السعيد، الذي آمن وأحسن، فرضي الله عنه وكتب له النجاة. وهو يحاسب حساباً يسيراً فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب. فذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه ثم ينجو، وينقلب إلى أهله مسروراً، من الناجين الذين سبقوه إلى الله، إن هذا.. رجعة الناجي من الحساب إلى مجموعته المتآلقة بعد الموقف العصيب. رجعته متهللاً فرحاً مسروراً بالنجاة واللقاء في الجنان.

إنه مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب، وهو ينطلق في فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة، تملأ الفرحة جوانحه وتغلبه على لسانه فيهتف.. ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ ويذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج بل كان يتوقع أن يناقش الحساب «ومن نوقش الحساب عذب» كما جاء في الأثر.

٢ ـ الدقة في حساب المخلوقات فالآيات القرآنية تشير إلى أن حساب الخلائق يتسم بالدقة، ويترفع عن الظلم لأحد من الناس. يقول الله تعالى:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[2].

ورغم العدالة الإلهية المطلقة في حساب الخلائق إلا أن الله تعالى يقيم لعباده في هذا اليوم من مظاهر الحساب ما يقطع على أي إنسان معذرته، ومن هذه المظاهر:

**(أ) الميزان:** فمن مشاهد يوم القيامة وعملية الحساب الميزان وقد دلت الآيات القرآنية وصريح السنة على أن الميزان حق، وأن الله سبحانه وتعالى ينصبه يوم القيامة لوزن أعمال العباد، وهذا مقتضى العدل الإلهي

---

(١) سورة الإنشقاق: الآيات ٧ ـ ١٢.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٩.

المطلق. قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾[1].

وهذه الآية تدل على نصب الموازين في الحقيقة يوم القيامة لأنه تعالى ذكرها وذكر فيها الخفة والثقل والمراد بذلك أنه تعالى يجعل فيها إمارة ليتبين برجحان البعض أن المطيع من أهل الجنة فيعظم سروره إذا وقف العالم هناك على حاله ويكون داعية له في حال التكليف إلى التمسك بالطاعة والمثابرة عليها، وبارتفاع البعض وخفته يعلم حال العاصي وإنه من أهل النار فيكون ذلك فضيحة له وحلول غم عظيم به وردعاً له في حال التكليف[2]. وبالميزان يعرف مصير الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾[3].

أي رجحت حسناته على سيئاته. والعلة في وجود الميزان ظهور عدل الله المطلق مع المعذبين وعفوه عن المذنبين، حيث يأتي الله فيه بأعمال العبد من خير أو شر فتوزن، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون.

(ب) **صحف الأعمال**: وهي عبارة عن الكتب التي سجل فيها الملائكة بأمر الله تعالى ما فعله العباد في الدنيا من أفعال وأقوال واعتقادات، فإذا كان يوم القيامة جيء بهذه الصحف لتعرض على أصحابها قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[4]. وتختلف أحوال الناس في هذا الموقف الهائل بحسب أخذهم كتبهم فأهل الإيمان والصلاح

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨.

(٢) متشابه القرآن القسم الأول للقاضي عبد الجبار أحمد الهمزاني تحقيق عدنان محمد زرزور ص ٤٧٤ دار التراث ـ القاهرة.

(٣) سورة القارعة: الآيات ٦ ـ ١١.

(٤) سورة الإسراء: الآيتان ١٣، ١٤.

والتقوى والخير يأخذون كتبهم بأيمانهم وأهل الكفر والفسق والشر يأخذون كتبهم بشمائلهم.

ويبين لنا القرآن الكريم حال هؤلاء وهؤلاء في صورة مؤثرة تهز مشاعر ووجدان القلب البشري وتجعله يقلع عما هو فيه من شر إذا أراد ويحاسب نفسه أولاً بأول خوفاً من لقاء ذلك اليوم[1].

يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨﴾[3].

فقوله أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين أي أصحاب السعادات والميامن وذلك على حسب تعارف الناس في العبارة عن الميامن وعن الأشائم بالشمال[4].

**(ج) الشهود في الموقف على العبد أوله:** حيث تشير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى أن الله تعالى يجعل على العبد شهوداً بما عمل في الدنيا بما في ذلك أعضاؤه التي باشر بها الأعمال حتى لا يكون لأحد حجة على الله. وفي الإشارة إلى شهادة الأعضاء على أصحابها يقول الله تعالى:

---

(١) المراقبة والمحاسبة في القرآن الكريم سهير ياسين قنديل ص ٤٠١، رسالة ماجستير تحت إشراف الأستاذ الدكتور الحسيني أبو فرحة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) سورة الانشقاق: الآيات ٧ ـ ١٢.

(٣) سورة الواقعة: الآيات ٢٧ ـ ٣٨.

(٤) بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز تأليف مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي ج ٥ ص ٤٠٨، ٤٠٩ تحقيق الأستاذ عبد العليم الصحاوي المكتبة العالمية بيروت.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

فإذا فرغ حساب الخلائق توجهوا للمرور على الصراط، وهو عبارة عن جسر ممدد على ظهر جهنم يمر عليه الأولون والآخرون بدرجات متفاوتة حسب الأعمال[2]. فإذا ما صدر الأمر من العلي القدير، بجواز الصراط، تقدمت الأمم إلى الصراع، تتقدمها الأمة الإسلامية، يتقدمها سيدنا رسول الله ﷺ ـ حاملاً لواء الحمد بيده.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[3].

هذا القرار الرباني يخبرنا به الحق تبارك وتعالى لنعد لهذا اليوم عدته، ونتفكر في أمره، فإذا ما أعددنا أنفسنا بالقدر الذي يوفقنا إليه الله نكون في ذلك اليوم الرهيب وعند سماع الأمر بالجواز على استعداد للمرور على الصراط، إن شاء الله تعالى.

فالورود الذي ذكرته الآية الكريمة، يحمل معنيين: يحمل معنى المرور وهذا للذين آمنوا واتقوا ربهم، فيمرون على الصراط المستقيم، ولهم في هذا المرور أحوال ذكرها سيدنا رسول الله ﷺ.

ويحمل معنى: الدخول الإجباري، وهذا للذين استحقوا العذاب بما قدمت أيديهم بعد هذه المحاسبة الدقيقة العادلة.

لأن كلا الأمرين المرور والدخول، من طريق واحد.، هو الصراط

---

(١) سورة فصلت: الآيات ١٩، ٢٠، ٢١.

(٢) المراقبة والمحاسبة في القرآن الكريم سهير ياسين قنديل ص ٤٠٣، رسالة ماجستير تحت إشراف الأستاذ الدكتور الحسيني أبو فرحة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٣) سورة مريم: الآيتان ٧١، ٧٢.

فمن استقام عليه، مر عليه في سلام، ومن لم يستقم عليه، دخلها من أوسع الأبواب[1].

وإذاجاز المؤمنون على الصراط أوقفهم الله تعالى على قنطرة بين الجنة والنار لينال كل من كانت له مظلمة عند أخيه حقه منه حتى يدخلوا الجنة أنقياء أصفياء.

ثم يكون الفوز للمؤمنين بالجنان، وللكافرين بالعذاب بالنيران[2] وصدق الله إذ يقول: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾[3]. فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى، تعثر في أول قدم من الصراط وتردى[4].

## الميـزان:

ومن عناصر التصوير القرآني للآخرة الميزان الذي يضعه الله عز وجل لوزن أعمال العباد.

فإنه بالحساب يعلم الإنسان جميع أعماله ثم بالوزن يعلم ثواب المقبول من الحسنات ومقدار المعاقب به من السيئات وإذا استعرضنا الآيات الكريمة التي تصور دقة الحساب يوم القيامة والقضاء العادل الذي لا يبخس الناس شيئاً والذي تقاس فيه أعمال الخير والشر، ويوازن بينهما بدقة بالغة،

---

(١) يوم الفزع الأكبر مشاهد يوم القيامة وأهوالها ـ للإمام القرطبي ـ تحقيق محمد إبراهيم سليم ص ٣٠٣ مكتبة القرآن.

(٢) محاضرات في مادة التوحيد (النبوات والسمعيات) ـ ثريا محمد حسن المرغني ص ١٣٤.

(٣) سورة الرعد: الآية ٣٥.

(٤) ذكر الموت من إحياء علوم الدين ـ للإمام أبو الحامد الغزالي تقديم الدكتور رضوان السيد ص ٢٤٤ الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٨٩٥م.

وقد صورت هذه الدقة بالموازين هذا وقد ذكر لفظ الوزن والميزان في القرآن في ثلاث وعشرين آية، منها خمسة عشرة آية خاصة بالحث على إقامة العدل في ميزان الدنيا، والحذر من التطفيف في الكيل والميزان... المستوجب لعذاب الله، ومنها ثماني آيات خاصة بالوزن في الآخرة[1].

قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[2]. وقد اختلف المسفرون في تأويل هذه الآية وغيرها من الآيات التي ورد فيها لفظ الميزان هل المراد بالميزان وزن أعمال العباد حقاً في ميزان له كفتان، يُعرف به المؤمن من الكافر والصالح من الطالح، أم إنه تصوير مجازي للعدالة والقضاء السوي؟ لقد ذهب ابن عباس وفريق من المفسرين المذهب الأول أما التفسير الثاني فقد روى الطبري عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾[3] قال: «ليس ميزان إنما هو مثل يضرب»[4].

ونقل الطوسي عنه أيضاً: «الوزن عبارة عن العدل في الآخرة وأنه لا ظلم فيها على أحد»[5] فمجاهد يرى في الميزان مثلاً ضربه الله سبحانه وتعالى ليصور دقة الحساب بصورة ألفها الإنسان في حياته. وقد رد القاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد على من اعترض على تفسير الموازين بالمجازاة والحساب الدقيق قال: «وجوابنا أن المراد بذكر الموازين العدل في باب المجازة، ولذلك قال تعالى بعدها: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ

---

(١) الغيبيات في ضوء السنة ـ محمد أحمد همام ص ٣٤٥. الطبعة الأولى ١٩٨٦م. مطبعة دبي.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨، ٩.

(٣) سورة القارعة: الآية ٦.

(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن ـ للطبري ج ٣٠ ص ٢٨٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

(٥) التبيان في تفسير القرآن للطوسي تحقيق أنما برزك الطهراني النجفي ج ٤ ص ٣٧٩.

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[1]. وقال الزمخشري بعد أن نقل التأويل الأول «وقيل: هي عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل فمن ثقلت موازينه جمع ميزان أو موزون، أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر، وهي الحسنات، أو قانون به حسناتهم»[2] فالله سبحانه وتعالى أراد أن يبين للبشر دقة الحساب الذي يحاسبون به يوم القيامة فصوره بهذا التصوير الرائع الذي لا يبخس أحداً حقه.

وحقيق الموازنة لا تكون إلا بوضع شيء بكفة، يقابله بالكفة الأخرى شيء آخر، فيوازن بينهما. وفي سورة المؤمنون تصور الآيات الكريمة دقة الحساب وكيف أن الناس بعد نفخ الصور يحشرون من قبورهم، ثم توزن أعمالهم ويقارن بين السيء والصالح منها، فتكون نتيجة الحساب إما الجنة وإما النار قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[3].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ فلقد تقطعت الروابط وسقطت القيم التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ لقد شملهم الهول بالصمت، فهم ساكنون لا يتساءلون ولا يتحدثون.

ونفي الأنساب يحتمل أن التقاطع يقع بينهم. حيث يتفرقون معاقبين ومثابين، ولا يكون التواصل بينهم والتآلف إلا بالأعمال فتلغوا الأنساب وتبطل، وأنه لا يعتد بالأنساب لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب، إذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه[4]. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ـ عماد الدين أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ص ٥٣٥ المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩هـ.

(٢) الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٦٨.

(٣) سورة المؤمنون: الآيات ١٠١ ـ ١٠٣.

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ج ٣ ص ٤٣.

هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾. فيعرض ميزان الحساب وعملية الوزن في سرعة واختصار وعملية الوزن بالميزان تجرى على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير، وتجسيم المعنويات في صور حسية ومشاهد ذات حركة.

والذي نعنيه هنا بالتجسيم، ليس هو التشبيه بمحسوس، فهذا كثير معتاد، إنما نعني لوناً جديداً هو تجسيم المعنويات، لا على وجه التشبيه والتمثيل، بل على وجه التصير والتحويل[1] ونلاحظ أن هذا التجسيم خطة عامة فنجد أنه قد صور الحساب في الآخرة كما لو كانت وزناً مجسماً للحسنات والسيئات ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ وكل ذلك تمشياً مع تجسيم الميزان.

وهكذا صورت الآيات القرآنية الكريمة العدل المطلق يوم القيامة ورسمته بصورة مادية مستمدة من مألوف في حياتهم وهي صورة الموازنة والمعادلة بين الأشياء، وصورة الميزان الدقيق الذي لا يبخس أحداً حقه، فأعمال العباد يوازن بينها موازنة دقيقة فيحاسب الإنسان على أعماله إن خيراً أو شراً فإن كانت أعمال الخير أكثر من أعمال الشر، كان جزاؤه الجنة والثواب، وإن غلبت شروره حسناته لقي العقاب في جهنم، وصور هذا الحساب الدقيق بكفتي الميزان لأنها إذا عُدلت معادلة دقيقة لم تبخس الوزن شيئاً.

ومن الآيات الكريمة التي دلت على دقة موازين يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2] فأعمال الإنسان مهما كانت ضئيلة يجدها أمامه يوم القيامة ويحاسب عليها إن كانت خيراً أو شراً، وقد صورت هذه الدقة بمثقال حبة من خردل، والحبة من خردل تصور أصغر ما تراه العين وأخفه في الميزان، وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضيع.

---

(١) التصوير الفني في القرآن سيد قطب ص ٦٨ الطبعة الثامنة، دار المعارف بمصر.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل! والظاهر إن المثقال من معايير الأوزان الصغيرة وقد ذكر الجوهري أنه أحد مثاقيل الذهب»[1] ومن الصعوبة بمكان أن نحدد مقدار هذا الوزن لأنه اختلف باختلاف البيئات والأزمان[2]. ولم تكتف الآيات الكريمة بذكر الموازين العادلة التي توزن بها أعمال العباد، وإنما اقترن المثقال بحبة الخردل ليعطينا صورة أوضح للدقة المقصود بيانها في الآيات الكريمة.

وحبة الخردل معروفة كما يقول الجوهري[3] فحبة الخردل صغيرة ومن هنا ضربت مثلاً في الصغر والضآلة ومع أن المصادر العربية لا تشير إلى استعمال حبة الخردل في الوزن إلا أنه من المحتمل أن يكون العرب قد استعملوها عياراً صغيراً للموازنة بين الأشياء الدقيقة وضربت الآيات الكريمة حبة الخردل مثلاً لدقة الحساب والموازنة بين أعمال البشر.

ومن هنا تتضح لنا الصورة المتعددة الجوانب التي تعكسها لنا الآيات الكريمة في تصوير الحساب الدقيق ليوم القيامة وذلك أنه حساب عادل فكل إنسان محاسب على ما قدم وأخر في حياته، ويوازن بين أعماله موازنة دقيقة عادلة، يضاف إلى ذلك جوارح الإنسان كشهود ولا يضيع عمل أحد أبداً. وبالميزان يعرف مصير الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾[4].

وتمشياً مع طريقة «التجسيم» التي تكثير في تصوير القرآن جعل لوزن

---

(١) تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ج ٤ ص ١٦٤٧.

(٢) إغاثة الأمة بكشف الغمة ـ أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي ص ٤٩، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧.

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية الجوهري ج ٤ ص ١٦٨٤.

(٤) سورة القارعة: الآيات ٦ ـ ١١.

الأعمال المعنوية موازين حسية على مشهد من الناس ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ ويدعها مجملة بلا تفصيل. فنجدها تقع في الحس ظلال الرضى وهو روح النعيم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ في اعتبار الله وتقويمه وهنا يأخذ في التفصيل، ومن الملاحظ أن صور العذاب في القرآن الكريم أشد تفصيلاً من صور النعيم ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الإطالة في صور العذاب تكون أوقع في الحس وأخوف وأروع للنفس ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ والأم هي مرجع الطفل ومأواه الذي يأوي إليه وملاذه الذي يرجع إليه فمرجع القوم يومئذ وملاذه يومئذ هو الهاوية، نار حامية هذه هي أمّ الذي خفت موازينه، أمه التي يفيء إليها ويأوي والأم عندها الأمن والراحة.

فماذا هو واجد عند أمه هذه، الهاوية، النار، الحامية، إنها حقيقة قاسية، وفي هذا التعبير غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود وهو التهويل بالمصير المجهول فقد أعقبه سؤال للتجهيل والتهويل المعهود في القرآن الكريم لإخراج الأمر من حدود التصور وحيز الإدراك فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ ثم فسر فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾[1] وهذا اللون من التعبير المطول عن العذاب، يتناسق مع الأصول الفنية ومع الأغراض الدينية.

فالموقف هنا يطول عرضه عن طريق إطالة التعبير ـ وتلك إحدى طرق التطويل في العرض ـ لأن مكثه أمام المخيلة أشد إثارة للحس وترويعاً للنفس. وذلك غرض فني وغرض ديني يلتقيان. وتلك سمة دائمة في تصوير القرآن[2].

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٦ ص ٣٩٦١، وكذا اليوم الآخر في ظلال القرآن أحمد فائز ص ٢١٥، وكذا الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ٢٨٠، وكذا الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٢٠ ص ١١٣، ١١٤.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ٧٧.

## صحائف الأعمال:

بعد أن توزن أعمال الخلق، وتقاس حسناتهم وسيئاتهم تظهر نتيجة القضاء العادل ومعرفة الإنسان لقضاء الله فيه صور بتعبير قرآني رائع له دلالته في بيان العدالة المطلقة لحساب يوم القيامة. فبعد العرض والحساب يأخذ كل إنسان صحيفة أعماله التي أثبت فيها ما قدم في حياته الدنيا من خير وعمل أو شر وعمل سيء كما يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[1].

فهذه الآيات الكريمة تصور لنا مشهداً صغيراً قصيراً ولكنها تعرض نموذجاً جديداً من سجل الأعمال من كتاب منشور. وطائر كل إنسان هو ما طار عنه من عمله من خير وشر وهو كتابه عما يعمله وألزمه له في عنقه تصوير للزومه إياه لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه على طريقة القرآن الكريم في تجسيم المعاني وإبرازها في صورة حسية، فعمله لازم له لا يتخلف عنه وهو لا يملك التخلص منه.

ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً أي كتاب طائره الذي في عنقه وقرأ «ويَخْرُج» بفتح الياء وضم الراء ويخرج من خرج والضمير للطائر أي يخرج له الطائر كتاباً و «كتاباً» منصوب على الحال، ويحتمل أن يكون المعنى: ويخرج الطائر فيصير كتاباً وقرأ: «ويُخْرِجَ» بضم الياء وكسر الراء أي يخرج الله. «ويلقاه منشورا» صفتان للكتاب أو يلقاه صفة ومنشوراً حال من يلقاه وفي التعبير بإخراج كتابه منشوراً يوم القيامة تجسيم للمعنى وإبرازه في صورة حسية فهو يصور عمله مكشوفاً، لا يملك إخفاءه، أو تجاهله أو المغالطة فيه ويتجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور الذي يرف في عنق صاحبه رفيف الطائر فإذا هو أعمق في النفس وأشد تأثيراً في الحس، وإذا الخيال البشري يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا الكتاب في فزع شديد

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان ١٣، ١٤.

من اليوم العصيب، الذي تتكشف فيه الأسرار والخبايا حيث يكلف كل إنسان قراءة كتابه ولا يحتاج إلى شهيد أو حسيب بل يكون هو على نفسه شهيداً ومحاسباً[1].

وتختلف أحوال الخلق في هذا الموقف الهائل بحسب أخذهم كتبهم فأهل الإيمان والصلاح والتقوى والخير والبر يأخذون كتبهم بأيمانهم ويفرحون ويسرون بما وجدوه من ثواب لأعمالهم الصالحة. وأما أهل الكفر والفسوق والشر يأخذون كتبهم بشمائلهم وتأخذهم الحسرة ويدعون على أنفسهم بالهلاك ويتمنون أن لو كانوا تراباً.

ويبين لنا القرآن الكريم حال هؤلاء وهؤلاء في صورة مؤثرة تهز مشاعر ووجدان القلب البشري وتجعله يقلع عما هو فيه من شر إذا أراد ويحاسب نفسه أولاً بأول. خوفاً من لقاء ذلك اليوم العصيب. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾[2].

فهذه الآيات الكريمة تصور مشهداً لفريقين من الناس فريق يؤتي كتابه بيمينه وهو الفريق المرضي السعيد الذي آمن وأحسن، فرضي الله عنه وكتب له النجاة وهو الفريق الذي يحاسب حساباً يسيراً. فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب، ثم ينجو: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ مع الناجين الذين سبقوه إلى الجنة. وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنة كل ومن أحب من أهله وصحبه وهذا التعبير أيضاً يصور رجعة الناجي من الحساب إلى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ١٤٣، وكذا الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٤٤٠، ٤٤١، وكذا الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٠ ص ١٥٠، ١٥١، وكذا في ظلال القرآن سيد قطب ج ٤ ص ٢٢١٧، وكذا المسؤولية والجزاء في القرآن الكريم إبراهيم الشافعي ص ٤٨٧، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٢) سورة الإنشقاق: الآيات ٧ ـ ١٢.

رجعته متهللاً فرحاً مسروراً بالنجاة واللقاء في الجنات، وهو وضع يقابل وضع الفريق المعذب الهالك المأخوذ بعمله السيء الذي يؤتى كتابه وراء ظهره وهو كاره خزيان من المواجهة. ولا يستطيع أحد أن يدري حقيقة الكتاب ولا كيفية إيتائه باليمين أو من وراء الظهر.

إنما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثاني هو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما، فهذه المقابلة منسقة فكما أن الإنسان الذي يؤتى كتابه وراء ظهره كان في أهله مسروراً في الدنيا كان لا بد أن يكون لمن يتلقى كتابه بيمينه أهل، يعود إليهم في الآخرة مسروراً[1].

فالمؤمن من يستلم كتابه بيمينه وعند ذلك تأخذه الفرحة فلا يستطيع كتمانها فينادي أهله حوله أن تعالوا شاركوني فرحتي وأقرؤا نتيجة قضاء الله أما الكافر فلا حاجة له بقراءة كتابه لأن نتيجته معروفة ما دام قد استلمها بيده اليسرى فهو يعرف نهايته، ويواجه مصيره، ويدرك أن العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء فيدعو ثبوراً، وينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء.

وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به، يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه. وتصور آيات سورة الحاقة هذا المشهد تصويراً رائعاً حيث يحاسب الناس بعد النفير فمن استلم كتابه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ج ١٩ ص ١٧٨، ١٧٩، وكذا مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ٢٢٨، دار الشروق، وكذا الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ج ٤ ص ٢٣٥، انتشارات آفتاب تهران، وكذا في ظلال القرآن سيد قطب ج ٦ ص ٣٨٦٧، ٣٨٦٨، وكذا المسؤولية والجزاء في القرآن الكريم محمد إبراهيم الشافعي الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

بيمينه يجد النعيم والثواب، ومن استلمه بشماله يجد العقاب والعذاب قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾[1].

وبهذا التعبير نفسه أطلق اسم أهل اليمين على المؤمنين الذين فازوا برضى الله وثوابه. أما الكافرون فقد أطلق عليهم أهل الشمال.

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾[2].

وقد علل بعض المفسرين سبب تسمية المؤمنين بأصحاب اليمين، وتسمية الكافرين بأصحاب الشمال فقال بعضهم لأن الطائفة الأولى تستلم كتابها بيمينها، والثانية بشمائلها[3].

أو أنهم يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة والذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار[4]. أو يعني به أصحاب اليمين والبركة والثواب من الله

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ١٩ ـ ٢٩.

(٢) سورة الواقعة: الآيات ٢٧ ـ ٤٤.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس أبو الطاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ص ٣٣٨ مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٦٠م.

(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري ج ٢٧ ص ١٧٠، وكذا التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج ٩ ص ٤٨٩.

تعالى وأصحاب المشأمة معناه الشر والنكد وعقاب الأبد[1] وللمرء أن يتساءل: لماذا أصبحت اليمين دليل الخير والسعادة والشمال دليل الشر والعقاب المنتظر؟ حتى إذا تسلم الإنسان كتابه عرف مصيره ونهايته من اليد التي يستلم بها كتابه.

لقد ذكر الزمخشري توجيهاً أدبياً لهذه التسمية فقال مضيفاً إلى ما سبق ذكره تعليل تسمية أهل اليمين وأهل الشمال بقوله: وأصحاب المشأمة الذين يؤتونها بشمائلهم أو أصحاب المنزلة السنية، وأصحاب المنزلة الدينية، من قولك فلان مني باليمين، وفلان مني بالشمال، إذا وصفتهما بالرفعة والضعة، وذلك لتيمنهم بالميامين، وتشاؤمهم بالشمائل، ولتفاؤلهم بالسانح وتطيرهم من البارح، ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمن وسموا الشمال الشؤمى، قيل أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة أصحاب اليمن والشؤم لأن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم[2].

ومن هنا نرى أن التعبير القرآني المعجز يعطي من الصور والإيحاءات ما تعجز عن التعبير عنه صفحات طويلة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾[3].

فالآيات الكريمة لم تفصل في كيفية معرفة الناس نتيجة قضاء الله فيهم، وإنما عرضت في تعبير جامع لكل الصور والإيحاءات التي يتصورها

---

(١) المصدر نفسه ج ٩ ص ٤٨٩.

(٢) الكشاف للزمخشري.

(٣) سورة الحاقة: الآيات ١٩ ـ ٢٩.

الذهن العربي لليُمن، والبركة والشؤم والشر. فإذا أردنا المعنى العام المقصود من الآيات الكريمة فهمنا أنه سبحانه وتعالى بعد أن يقضي بين الناس قضاء عادلاً ينقسم الناس إلى قسمين نتيجة أعمالهم فإذا كانت حسنة رضي الله عنهم وأثابهم وإن كانت سيئاتهم كثيرة يئسوا، لما ينتظرهم من العقاب والعذاب.

هذا المعنى نجده في الآيات الكريمة محلى بإطار من الصور والإيحاءات العالقة في الذهن العربي في التيمن من اليد اليمنى والتشاؤم من اليسرى وإطلاق اليمين على البركة والشمال على الشر والشؤم. ومن هنا نستطيع أن نجمع كل المعاني التي ذكرها المفسرون في تسمية أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. فأصحاب اليمين هم المفضلون، لأنهم يثابون لأعمالهم الحسنة في الحياة الدنيا وهم أيضاً ذوو المنزلة الحسنة والمكانة المرموقة عند ربهم بعكس أهل الشمال.

هكذا تعرض الآيات نتيجة القضاء بين الناس وإن المؤمنين ـ أصحاب اليمين يلقون النعيم والثواب، على حين يلقى الكافرون أصحاب الشمال العذاب[1].

## الصراط:

الصراط جسر على جهنم، إذا انتهى الناس من ذلك الموقف العصيب الرهيب هرعوا إلى الصراط، وهم يعرقون وصفة قلوبهم واجفة وجوارحهم مرتجفة فما أن خلصوا من موقف عظيم حتى قدموا على ما هو أعظم منه، وقبل مدة كانوا يتمنون فراق الموقف ولو إلى النار، وهاهم أولاً: تسير جموعهم كاسفة البال يجللها خزي وعار وهول لم يحسبوا حسابه، بل سخروا من المؤمنين بلقاء هذا اليوم، واستهزؤوا بهم وأذاقوهم الويل في الدنيا ليكفروا بما ورد في حق هذا اليوم فإذا هم يتجرعون الغصص ألواناً

---

(١) المسؤولية والجزاء في القرآن الكريم ـ محمد إبراهيم الشافعي ـ ص ٤٨٩ ـ الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

ويذوقون العذاب تلو العذاب لا ينتهون من حزن إلا إلى حزن ولا يسيرون في طريق إلا أسلمهم إلى سبيل هي أخزى وأذل.

وتصوير القرآن الكريم لهم ينبىء عن ذلتهم، بل تخبطهم، حتى إن المتأمل في نصوص الكتاب العزيز يجد في أوصافهم ما يبعث على الرثاء والشفقة من حركاتهم وسكناتهم فهم كالعميان يتسابقون ويتساقطون ويتنافسون على عبور الصراط.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾[1] وفي حالة توقفهم قلة حيلتهم في الحركة فقد جمدوا فجأة في مكانهم واستحالوا تماثيل لا تمضي ولا تعود ولم يعودوا يستطيعون أن يأمروا أطرافهم لأنها تخضع لأمر الديان، فتثير فيهم حالة من الهمّ والغمّ، وينظرون إلى المؤمنين وهم يجتازونهم مسرورين فرحين بما آتاهم ربهم، يعبر الكتاب العزيز عنهم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

والمسخ: هو تبديل الخلقة وقلبها حجراً أو جماداً أو بهيمة. والمعنى:

لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعون وراءهم وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر[3]. أما تكريم الله عز وجل للمؤمنين يومئذ فعظيم، إذ تزحزح عنهم النار فيبتعدون عنها. إن تعبير القرآن يبعث على الفرح والاشتياق:

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

---

(١) سورة يس: الآية ٦٦.

(٢) سورة يس: الآية ٦٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن القرطبي ج ١٥ ص ٣٤، وكذا الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٣٢٨، ٣٢٩.

إنه لإغراء مطمع، وتكريم عظيم، أن يضم الله المؤمنين إلى النبي ﷺ فيجعلهم معه صفاً يتلقى الكرامة في يوم الخزي ثم يجعل لهم نوراً يعرفون به في ذلك اليوم الرهيب.

ونوراً يهتدون به في ظل هذا الزحام الرهيب ونوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية الرحلة. إن شدة الموقف، وهو ما يصطرع فيه الناس، يعقد الألسنة ويفزع القلوب، ولكن قلوب المؤمنين وألسنتهم تُلهم الدعاء اللطيف: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1].

## يقول سيد قطب:

وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب وهو علامة الاستجابة. فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه يستجيب.

فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور[2] هذا وقد اختلف المفسرون في المراد بالورد الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾[3].

والأظهر والأقوى أن المراد بالورد المرور على الصراط بدليل قوله تعالى في نهاية الآية ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ وهذا ما قاله ابن كثير وغيره من المفسرين، فقد ذكر ابن كثير قال: قال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا خالد بن سليمان عن كثير بن

---

(١) سورة التحريم: الآية ٨.

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٦ ص ٣٦١٨، وكذا الاستعداد للموت وسؤال القبر زين الدين بن علي المعيري ص ٤٩ ـ مكتبة التراث الإسلامي، وكذا اليوم الآخر في ظلال القرآن أحمد فائز ص ٢٣٣، وكذا عندما تقوم القيامة مصطفى اللمعي ص ١٥١.

(٣) سورة مريم: الآيتان ٧١، ٧٢.

زياد البرساني عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا[1].

وذكر القرطبي عن كعب أنه تلا هذه الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: هل تدرون ما ورودها؟ قالوا: الله أعلم قال: فإن ورودها أن يجاء بجهنم وتمسك للناس كأنها أهالة حتى إذا استقرت عليها أقدام الخلق برهم وفاجرهم نادى منادٍ أن خذي أصحابك وذرى أصحابي فتخسف بكل ولي لها، لهي أعلم بهم من الوالد بولده، وينجو المؤمنون[2] وقال مجاهد: «ورود المؤمنين هي الحمى التي تصيب المؤمن في دار الدنيا وهي حظ المؤمن من النار فلا يردها»[3].

## رد المظالم إلى أهلها:

ومن عناصر التصوير القرآني لمشاهد هذا اليوم أن ترد المظالم لأصحابها فلا يبقى لأحد عند أخيه حاجة لأن ذلك يوم الفصل ويوم القضاء الحق يوم يقتص من القوي للضعيف ومن القرناء للجماء فلا ظلم اليوم.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾[4].

## الجنة والنار:

ومن عناصر التصوير القرآني في الآخرة الجنة والنار، والجنة والنار كلمتان تثيران في النفس كثيراً من المشاعر، وتبعثان في الذهن صوراً وأخيلة

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص ١٣١، وكذا الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ج ٢ ص ٥٢٠ انتشارات آفتات تهران.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام شمس الدين بن عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي ص ٣٦٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦٢.

(٤) سورة غافر: الآية ١٧.

شتى، تتفاوت مفهوم اللفظين، فمن النعيم الوارف والنسيم الهفهاف، والبرودة والنشوة، وطراوة الحياة ولذة العيش، إلى فحيح النيران وأصوات المستغيثين، وصراخ المعذبين وروائح المحترقين ولفح اللهيب، والإحساس بالألم المضني، وإنشغال المرء في التفكير في كيفية الخلاص من هذا الوضع الرهيب. والجنة والنار دار قرار العباد، بعد أن انتهى الحساب، وقضى الرحمن حكمه فيمن صدق رسله، واستجاب لدعوته وآمن به، وبين من حارب رسله، وأنكر دينه، وكفر به.

وهما مجالا الترغيب في دعوة الرسل، شمر للجنة مؤمنون وتهافت على عمل يدخل النار بشر آخرون.

وفي الكتاب العزيز تحذير وترهيب للناس، وفيه دعوة وترغيب، حذرهم من النار ورغبهم في الجنة، وأظهر ألوان العذاب، وبين صنوف النعيم، إلا أن جلة البشر تأبى الانصياع للحق في كثير من الأحيان فيهوون العناد ويتمسحون بالباطل وحضاً للحق، حتى إذا وقع الحق ورأوه رأي العين قالوا: ربنا أرجعنا نعمل صالحاً. ولكن هيهات.

والقرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يصور يوم القيامة أمام قارئه كأنه رأي عين، وبلاغة القرآن تأخذ بالألباب، كما تأخذ بمجامع النفوس، وتأثيره آسر للقلب المتفتح، مسيطر على المشاعر، بل يثير حتى كوامن المعاندين الذين إن أنكروه جهرة، تلوه خفية، لكن وجاهتهم وكبرياءهم الكاذب يمنعانهم من التصريح فيفتعلون الأكاذيب لرده وعلم الله أنهم لتتلجلج نفوسهم وتضطرب عقولهم، وتنفطر قلوبهم لما يحسونه من أثره.

يقول الخطابي عن بلاغة القرآن وتأثيره السحري في النفوس:

«فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً، ولا منشوراً، إذا قرع السمع خلص إلى القلب في اللذة، والحلاوة في حال، ومن الروعة، والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر له النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاحة، قد عراها الوجيب، والقلب وتغشاها

الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب[1].

## عذاب جهنم:

بعد أن يحاسب الناس حسابهم الموعود، ويقضي الله بينهم بحكمه العادل ينقسمون إلى فريقين: فريق المجرمين حيث العقارب والنار، وفريق المؤمنين حيث الجنة والنعيم.

## الجنة:

الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافه حقير، لا يساوي شيئاً، فنعيم الجنة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، ومهما ترقى الناس في دنياهم، فسيبقى ما يبلغونه أمراً هيناً بالنسبة لنعيم الآخرة[2].

## صفة الجنة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾[3].

في روحانية وتكريم وفي ثناء وتطمن، ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد. ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الزماني والخطابي والجرجاني ص ٦٤، دار المعارف بمصر ١٩٥٥م.

(٢) اليوم الآخر الجنة والنار عمر سليمان الأشقر ج ٣ ص ١١٧ وما بعدها. مكتبة الفلاح الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٧ ـ ٣٠.

ونسبة، راضية مرضية بهذه النداوة التي تفيض بالتعاطف والرضى فادخلي في عبادي المقربين المختارين لينالوا هذه القربى وادخلي جنتي في كنفي ورحمتي، إنها عاطفة تنسم فيها أرواح الجنة إلى هذه النفس المطمئنة. المطمئنة إلى ربها، المطمئنة إلى طريقها، والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرهيب.

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية تتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية.

وقد فضل الله متاع الجنة التي أعدت للمؤمنين، وورائها يعرفونها هناك يوم يتهيأون لإدراكها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1] فجمال ما فيها لم تره عين في الحياة الدنيا، وأنغامها لم تسمعها أذن على وجه الأرض، وبديع ما تحتويه لا يخطر على قلب بشر، وبلا حصر ولا عد[2].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[3] تعبير عجيب يشي بحفاوة الله سبحانه وتوليه بذاته العلية إعداد المدخور لهم غده، من الحفاوة والكرامة مما تقر به العيون. هذا المدخور الذي لا يطلع عليه أحد سواه. والذي يظل عنده خاصة

---

(١) صحيح مسلم شرح النووي ج ٢ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ص ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، وكذا اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٨٦ دار الريان للتراث.

(٢) الجزاء الجنة والنار نعمت صدقي ص ١٠٥، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م. دار الاعتصام.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٧.

مستوراً حتى يكشف لأصحابه عنه يوم لقائه عند لقياه وإنها لصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم في حضرة الله.

يا الله كم ذا يفيض الله على عباده من كرمه وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضله، فالجنة من المحال أن يكون عمل الإنسان أجراً لها مهما عظم وأن يكون العبد جديراً بالخلود فيها مهما جاهد بماله ونفسه وضحى بحياته في سبيل الله، ولكن الكريم الرحيم أراد أن يقابل القليل بالكثير. وأن يكافىء على العمل اليسير بأجر كبير قال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾[1].

على أننا لا بد أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا هذا الفضل في الدنيا فجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة مثل، وجعل السيئة بمثلها فقط، ووضع معها المغفرة والرحمة والتوبة ليمحو منها الكثير.

ولو أننا كنا نحاسب بعدل الله وحده لكانت السيئة تساوي الحسنة وما تدخلت مغفرة الله ورحمته لتمحو السيئات وتزيلها.

ولكن الله عز وجل يريد أن يلفتنا ونحن في الدنيا إلى أنه يعاملنا بفضله ولو عاملنا بعدله لهلك كل من في الأرض بذنوبهم مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[2].

إذن فالحق سبحانه وتعالى ونحن في الدنيا يعاملنا بالفضل فإذا كنا في الآخرة، كان فضله أعم وأشمل فكل نعمة من نعم الله في الجنة هي من فضل الله علينا وليست حقاً مكتسباً لنا[3].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١١.

(٢) سورة النحل: الآية ٦١.

(٣) الجزاء الجنة ـ النار نعمت صدقي ص ١٠١، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م. دار الاعتصام.

## درجات الجنة:

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[2].

وأما أعلى درجة في الجنة فهي الوسيلة وهي درجة النبي ﷺ وسميت الوسيلة لأنها أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن. وهي أقرب الدرجات إلى الله.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول: ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة[3]. ومعنى الوسيلة من الوصلة، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها وأعظمها نوراً.

وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن هذا المعنى كل الكشف بقوله:

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٥، ٩٦.

(٢) سورة الأنفال: الآيات ٢ ـ ٤.

(٣) صحيح مسلم الإمام مسلم بن الحجاج القشيري ج ١ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩، وكذا سنن أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ج ١ ص ١٢٤، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة الطبعة الأولى ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م. وكذا سنن النسائي أبو عبد الرحمن علي بن شعيب النسائي ج ٢ ص ٢٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ ـ ١٩٦٤م.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ فقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ هو تفسير للوسيلة ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق عبودية لربه وأعلمهم به، وأشدهم له خشية وأعظمهم له محبة، كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله وهي أعلى درجة في الجنة، وأمر النبي ﷺ أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الإيمان[1].

وقد ذكر الباري تقدست أسماؤه منازل الصالحين في الجنة فقال: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَٰتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾[2].

ودرجات الجنة بعضها فوق بعض وأهلها يومئذ يتفاضلون فيها بحسب إيمانهم وتقواهم، قال تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَآءِ وَهَٰؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾[3].

الناس في الدنيا منهم من يجعل الدنيا همه ويطلب خيرها، ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقد قيد الله سبحانه وتعالى الأمر تقييدين: أحدهما يقيد المعجل بمشيئته، والثاني يقيد المعجل بإرادته، وهكذا الحال ترى كثير من هؤلاء الكفرة يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة.

وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة وسعى لها سعيها

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ص ٧٨. خرج أحاديثه وعلق عليه عصام الدين الصبابطي، دار الحديث القاهرة ١٤١٢هـ.

(٢) سورة طه: الآية ٧٥.

(٣) سورة الإسراء: الآيات ١٨ ـ ٢١.

طالباً رضا خالقه ورحمته، فما يبالي أوتي حظاً من الدنيا أو لم يؤت فإن أوتي فيها، وإلا فربما كان الفقر خيراً له وأعون على مراده، ثم يبين الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه، وأن عطاءه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر، ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ سبحانه إن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا[1].

وفي سورة أخرى يبين لنا الله سبحانه وتعالى أن تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾[2].

فهذه الآية الكريمة تلخص وتقرر أن الله سبحانه وتعالى فضل بعض الرسل على بعض وتذكر بعض أمارات التفضل ومظاهره: منهم من كلم الله أي فضله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام، ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء مكاناً بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم درجات، قال الزمخشري: «والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ لأنه هو المفضل عليهم حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات، وفي هذا الإبهام من تفخيم وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس.. ويجوز أن يريد إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولى العزم من الرسل»[3].

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ تشمل البينات الإنجيل الذي نزل

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٤٤٣، ٤٤٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٣) الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٣٨٢، ٣٨٣.

على عيسى كما الخوارق التي أجراها على يديه، والتي ورد ذكرها مفصلة في مواضعها المناسبة في القرآن الكريم تصديقاً لرسالته في مواجهة بني إسرائيل المعاندين.

أما روح القدس فالقرآن يعني به جبريل عليه السلام: فهو حامل الوحي إلى الرسل، وهذا أعظم تأييد وأكبره وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل، بانتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم، وهو الذي يثبتهم على المضي في الطريق الشاق الطويل[1].

## مساكن أهل الجنة:

«قصورها وبيوتها وخيامها»... لن يمر في خاطر المؤمن شيء من أنواع النعيم والسعادة والبهجة في الجنة إلا وجده حاضراً كأحسن ما تمنى وزيادة، ويجسد كل شيء أمامه على صورة مختلفة في الحسن والجمال والروعة ليست متمثلة في متاع الدنيا، وإن وجه الشبه فقط إنما هو الاسم، وما عداه منشيء غير الذي يعرفه.

ويتبدى كرم الكريم فيما أعد لعباده المؤمنين، إذ إن أعطياته تكون بقدر عظمته سبحانه وتعالى، فكل داخل الجنة له مسكنه الذي يركن إليه.، وهذا المسكن لا يعرف التواضع كما تواضع عليه أهل الدنيا، وإنما هي مساكن وصفها رب العزة بأنها طيبة، قال عز من قائل: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[2].

«من الحسن قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد»[3] وعدن علم بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وقيل هي مدينة في الجنة، وقيل نهر جناته على حافاته.

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٣) الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٢٠٢.

ووصف الله سبحانه وتعالى جزاء عباده المخلصين بقوله مسمياً المساكن بالغرف: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾[1].

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ والصبر بذل النفس والثبات له وقوفاً بين يديه بالقلوب عبودية وهذه صفة المقربين.

قال الزمخشري: «أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم أو يحيى بعضهم بعضاً ويسلم عليه ـ أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة ـ. اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا مع أهل رحمتك وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك»[2].

## وأما عن البيوت:

قال تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾[3].

## خيامها:

ذكر الله سبحانه وتعالى الخيام في قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾[4] وهي من لذاذات أهل الجنة حيث يؤتون هذه النعمة الجليلة التي لا مثيل لها في الدنيا، والخيمة كما نعلم رفيقة الأعرابي فهي وكنة، ينتقل فتنتقل معه، وفي البيئة العربية القديمة كانت الخيام مساكن أهل البادية، وما تزال هذه الوسيلة قائمة عند سكان الصحراء، ويفر إليها أهل الحاضرة طلباً للتغيير من الحياة الرتيبة في أيام معينة من العام يعتدل فيها الجو فينطلقون في مرح وسرور، فالخيمة ذات شأن في حياة العربي القديم، لكن هذه

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٥.

(٢) الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ١٠٢، ١٠٣.

(٣) سورة التحريم: الآية ١١.

(٤) سورة الرحمن: الآية ٧٢.

الخيمة التي يدخلها في الجنة ليست كخيمته، ليست من قماش ربما قطعته الريح، أو لوحت لونه شمس الهاجرة فغدا محترقاً، أو لا لون له.

«قيل إن الخيمة من خيامهن درة مجوفة»[1].

## أنهار الجنة وعيونها:

من مظاهر النعيم في الجنة، العيون المتفجرة والأنهار الجارية، وهذه الأنهار بما وصفت لمشاهد الجنة الجميلة بخمائلها وخضرتها وأطيارها وهي تتمة للترف والبذخ الذي يحظى به المؤمنون عند دخولهم دار الأمن والسلام.

وصورة الأنهار الجارية الوفيرة المياه قد وردت في (٣٨) آية[2]. كلها تصف الجنة التي تجري من تحتها الأنهار.

وهذه الأنهار جاء ذكرها في القرآن الكريم في مواقف البُشريات والتهاني، تفضلاً من الباري على عباده ففي الكتاب العزيز قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[3].

وقال تعالى أيضاً: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾[4].

وفي سورة محمد ﷺ نجد صورتين متعاقبتين إحداهما صورة الجنة التي تجري فيها الأنهار وقد عدد الله سبحانه وتعالى هذه الأنهار فبعضها من ماء صاف وبعضها من لبن، أو خمر، أو عسل كلها أعدت لينعم بها المؤمنون.

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ٥٠.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن محمد فؤاد عبد الباقي ص ٧١٩، ٧٢٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥.

(٤) سورة الرعد: الآية ٣٥.

هذه الصورة تقارن بأخرى تليها، وهي صورة العذاب وما يلاقيه المجرمون في النار حين يسقون الماء الحميم الشديد الحرارة، فتقطع أمعاؤهم فقال تبارك اسمه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾[1].

إن المسلم حينما يقرأ آيات النعيم، يتلوها ويتأملها يطوف في خياله صور كثيرة لأنواع النعيم، فيطيل فيها المقارنة بما يشاهده في الحياة من حوله، ويرجع كل غيب موعود إلى حاضر موجود، يقيس عليه ويرتفع به إلى درجات عالية لعلها لو زادت فإنها ترتقي إلى ما يتنعم به أهل اليسار في الدنيا، ثم لا يزيد أن يكون ممن أتوا حظاً من الخيال الواسع، والجنة كما وصفت تقنع فيها العربي بما يحبه في حياته أن تكون موهوبة له في الجنة يغب منها ما يشاء، خاصة أنه محروم في حياته من أهون ما يتمناه.

والماء عماد الحياة عند العرب في بيئتهم الصحراوية، من أجله ينتجعون ويرحلون، وتزخر أشعارهم بذكره، إن مدحاً وإن هجاء لآخرين، وموضعه في مجال المفاخرة أكثر منه في مجال التشبيه.

هذه الصورة المحببة للماء، والأهمية العظيمة التي نجدها في حياة العربي هي التي تجسد لنا الصورة الرائعة للجنة التي أعدها الله للمؤمنين، وأجرى فيها الأنهار الواسعة، والمياه الوفيرة.

وكما استطعنا من قبل أن نتصور مدى التصوير المعجز الذي رسمته الآيات الكريمة للعطش: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾[2].

فمع أن الآيات الكريمة تبين لنا العطش المؤلم الذي يعانيه أهل النار،

---

(١) سورة محمد: الآية ١٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٠.

فيتمنون قليلا من الماء، فإنها من الناحية الأخرى تعكس لنا نعيم الجنة، فتجتمع الصورتان لتكمل الإعجاز الرائع في تصوير عذاب النار، ونعيم الجنة. فصورة الجنة الوافرة الظلال المتنوعة الأشجار مع الأنهار الوفيرة والعيون المتفجرة، تقابلها صورة النار ولظاها، والحرمان من الماء.

وصورة الأنهار الجارية هي التي تكمل صورة الطبيعة الرائعة في القرآن الكريم وقد ذكر هذا الزمخشري معقباً على آية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾[1].

بقوله: «ولولا إن الماء الجاري من النعمة واللذة الكبرى وأن الجنان والرياض وإن كان أنق شيء وأحسنه لا تروق النواظر. ولا تهيج الأنفس، ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيه الماء، وإلا كان الأنس الأعظم فائتاً والمرور الأوفر مفقوداً. وكانت كتماثيل لا روح لها، وصورة لا حياة لها لما جاء الله بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران واحد كالشيئين لا لأحدهما من صاحبه»[2].

وفي الآيات التي وردت فيها الجنة غير مقترنة بالأنهار نجدها مقرونة بالعيون المتفجرة بالمياه وإلى جانبها صورة أخرى هي صورة المجرمين مع الماء الحار قال الله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾[3].

وقال تعالى أيضاً: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥.
(٢) الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٢٥٧، ٢٥٨.
(٣) سورة الرحمن: الآيات ٤٣ ـ ٤٧.

طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾[1].

وفي مقابل هذا العذاب الحسي تأتي صورة النعيم المادي بعدها مباشرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾[2] فهنا تقابل في جو العذاب وجو النعيم وفي كل جزئية من الجزئيات التي تصور حالة الكافرين وعذابهم، وحالة المؤمنين ونعيمهم[3].

وإذا كانت عيون وآبار الدنيا معرضة للجفاف والنفاذ، فإن عيون الجنة وفيرة المياه دائمة التفجير قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾[4].

فاقترن عين الجنة بالمصدر «تفجيرا» تبين ميزتها، وجمالها بأنها دايمة التفجير غير مقترنة بزمن معين ووقت محدد.

وفي كل هذه الآيات الكريمة ترسم في الذهن الصورة المحببة للماء، والجمال الذي تثيره الآيات الكريمة في تصوير أنهار الجنة ووفرة المياه فيها.

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءهما صرفاً غير مخلوط، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره.

**العين الأولى**: عين الكافور قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ

---

(١) سورة الغاشية: الآيات ١ ـ ٧.

(٢) سورة الغاشية: الآيات ٨ ـ ١٦.

(٣) التصور الفني في القرآن الكريم سيد قطب ص ٨٣، وكذا فن البديع عبد القادر حسين ص ٥١ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، دار الشروق.

(٤) سورة الإنسان: الآية ٦.

كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾[1].

فقد أخبر أن الأبرار يشربون ـ شرابهم ممزوجاً من عين الكافور و «الكافور» اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده[2]. بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

**العين الثانية**: عين تسنيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[3].

قال الزمخشري: «تسنيم» على العين بعينها سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه، إما لأنها أرفع شراب في الجنة، وإما لأنها تأتيهم من فوق على ما روي أنها تجري في الهواء متسنمة فتنصب في أوانيهم»[4].

ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل، قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾[5]. ولعل هذه هي العين الأولى نفسها.

قال الزجاج: «السلسبيل في اللغة: اسم لما كان في غاية السلامة، فكأن العين سميت بصفتها»[6].

فقد وصفت كؤوس شراب أهل الجنة بأنها ممزوجة بطعم الزنجبيل والزنجبيل مما ينبت في بلاد العرب بأرض عمان، وهو عروق تسري في

---

(١) سورة الإنسان: الآيتان ٥، ٦.

(٢) الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ١٩٥.

(٣) سورة المطففين: الآيات ٢٢ ـ ٢٨.

(٤) الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ٢٣٣.

(٥) سورة الإنسان: الآيتان ١٧، ١٨.

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٩ ص ٩٣، وكذا الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ١٩٨.

الأرض، وأجوده ما يؤتى به من الزنج أو بلاد الصين[1].

وكانت العرب تستلذ طعمه وتستطيبه، قال الطوسي: «الزنجبيل ضرب من القرفة طيب الطعام ويلذع اللسان، يربى بالعسل، يستدفع به المضار إذا مزج به الشراب فاق في الإلذاذ، والعرب تستطيب الزنجبيل جداً قال الشاعر:

كأن جنيا من الزنجبيـ ـل خالط فاها وآربا مشورا[2]

وإلى جانب أنهار المياه التي تجري في الجنة نجد وصفاً آخر لأنهار من اللبن وهو الذي يعتمده الأعرابي في حياته ومعاشه قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾[3].

ومن الطبيعي أن يكون اهتمام العرب باللبن صادراً عن كونه من منتجات حيوانهم، ويبدوا أن هناك سبباً آخر لهذا الاهتمام، ذلك لأن اللبن عندهم يمثل الفطرة، فهو أول ما يسقى منه رضيعهم وحيوانهم بالفطرة فإذا رضع رضيعان من ثدي واحد ربطهما اللبن بالأخوة الطبيعية، وإن اختلف نسبهما وأصلهما فاللبن هو الخير الطبيعي الذي يلازم الإنسانية في وجودها.

وقد دار الفكر العربي حول هذه الفكرة يحب اللبن ويقدمه، حتى تبلورت في ذهنه فكرة الخير المطلق، وارتبط اللبن باليمن والبركة فقالوا أين من اللبن[4] لهذه الدلالة. وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ﴾[5].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج ١٣ ص ٢٣٢.

(٢) التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج ١٠ ص ٢١٤، والبيت من ديوان الأعشى الكبير - ميمون بن قيس شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين ص ١٤٣، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة السابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، وكذا الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ٩٨.

(٣) سورة محمد: الآية ١٥.

(٤) أساس البلاغة أبو القسم جار الله بن عمر الزمخشري ص ٤٠٣.

(٥) سورة محمد: الآية ١٥.

## نعيم الجنة:

الجنة في اللغة: البستان، وتجمع جنان، والعرب تسمي النخيل جنة قال زهير: كأن عيني في غربي مقتلة من النواضح، تسقي جنة سحفا.

في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، وإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديث وليست بجنة[1].

ويعلل ابن الفارس تسميتها بالجنة بقوله: «فالجنة ما يصير إليه المسلمون في الآخرة وهو ثواب مستور عنهم اليوم، والجنة البستان، وهو ذلك لأن الشجرة بورقة تستر»[2].

والجنة شرعاً: دار الثواب التي أعدها الله للمتقين، كما يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

والجنة كلمة تحمل كل معنى جميل يطوف بخاطر الإنسان، ولا يتأتى لبشر أن يحصر ما أعده الله لعباده المتقين في الجنة من أنواع النعيم ولو أجهد نفسه العمر كله.

## صفة الجنة:

مهما أنشأ الأدباء والكتاب، وتخيل المتخيلون، وأبدع المبدعون، وصفاً للجنة، فإنه لن يبلغ من حقيقتها أيسر جزء يدل عليها، لأن الجنة فوق ما يصف الواصفون وأعلى ما يتوهم المفكرون، وأرقى مما يدور في خلد المعجبين بأفهامهم.

والإنسان مخلوق بشري لم ير ما وجد وعرف في دنياه، فيميز ما بين النعيم والعذاب والألم والراحة بما يحيط به من منغصات الحياة وكدرها، أو

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة جنن: ج ٦ ص ٢٥٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة ـ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا تحقيق عبد السلام محمد هارون ج ١ ص ٤٢١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

ترفها وبهجتها وسرورها، فإذا وصف له شيء من النعيم شبه له بشيء يعرفه، فإن كان لا يعرفه فقد المعنى ولم يصل إلى مبلغه، وكذلك لا يحس بألم الآخرين إن عرض في غير ما يعرف من الموجعات إلا ما كان سامعاً.

وصدق الله حيث قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾[1].

«وإذا رأيت «رأيت هذا ليس مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويعم وقال الزمخشري» إن بصر الرآئي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير»[2].

«ثم رأيت» «ثم» في موضع النصب على الظرف أي هناك في الجنة ولا يصح أن يكون المعنى ما ثم لأن ثم الصلة لما ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ولكن «رأيت» يتعدى في المعنى إلى «ثم» قال القرطبي: «والمعنى إذا رأيت ببصرك «ثم» ويعني ب «ثم» الجنة[3]، «نعيما» والنعيم سائر ما ينعم به «ملكاً كبيراً» واسعاً وهنيئاً.

المعنى هذا النعيم والملك الكبير هو الذي يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء على وجه الإجمال والعموم[4].

أما ما أخفاه الله لأهل الجنة من نعيم فلا يبلغه عقول البشر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[5].

«قرأ حمزة «ما أخفي لهم» بإسكان الباء وفتحها الباقون»[6] وعلى ذلك فإن إسكان الياء من قوله: «ما أخفي» فهو مستقبل وألفه ألف المتكلم.

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٢٠.
(٢) الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ١٩٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٩ ص ٩٤.
(٤) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٦ ص ٣٧٨٣.
(٥) سورة السجدة: الآية ١٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٤ ص ٦٩.

«ما» في موضوع نصب ب «أخفي» وهي استفهام، والجملة في موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين والضمير العائد علي «ما» محذوف، ومن قرأ «ما أخفي» فتح الياء فهو فعل ماضي مبني للمفعول و «ما» في موضع رفع المبتدأ، والخبر «أخفي» وما بعده، والضمير في «أخفي» عائد على ما، وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «لا تعلم النفوس كلهن ولا نفس واحدة فيهن لا ملك مقرب ولا نبي مرسل أي نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه لا يعلمه إلا هو مما تقربه عيونهم ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمع وراءها ثم قال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فحسم أطماع المتمنين»[1].

## أبـواب الجنـة:

للجنة ثمانية أبواب، يدخل منها المؤمنون، وتستقبلهم الملائكة مرحبين ومحيين قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾[2].

«جنات عدن» والعدن في اللغة الإقامة، يقال عدن بالمكان إذا أقام «مفتحة» حال والعامل فيها ماض للمتقين من معنى الفعل والأبواب بدل من الضمير تقديره مفتحة هي الأبواب.

وقريء جنات عدن مفتحة بالرفع على أن جنات عدن مبتدأ ومفتحة خبره أو كلاهما خبر مبتدأ محذوف أي هو جنات عدن هي مفتحة لهم[3].

وفي قوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ تصوير رائع معجز حيث أنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس قال الحسن: «تكلم افتحي فتنفتح وانغلقي فتنغلق»[4].

وإذا كانت الأبواب تفتح اليوم بالقرب منها، فإن أبواب الجنة تفتح بالأمر وتغلق بالأمر.

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٢٤٣.

(٢) سورة ص: الآية ٥٠.

(٣) الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٣٧٨، ٣٧٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٥ ص ١٤٢، ١٤٣.

## طعام أهل الجنة وشرابهم:

سبق أن تحدثنا عن أشجار الجنة وثمارها، وقطوفها الدانية المذللة تذليلاً واختيار أهل الجنة من ثمارها ما يريدون ويشتهون، وفي الجنة ما تشتهي الأنفس من المآكل والمشارب، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

(٢)

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[4].

وذكرنا أيضاً فيما سبق أن في الجنة بحر الماء، وبحر الخمر، وبحر اللبن، وبحر العسل، وأن أنهار الجنة تنشق من هذه البحار، وفي الجنة عيون كثيرة، وأهل الجنة يشربون من تلك البحار والأنهار العيون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾[5].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾[6].

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[7].

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٢٠.
(٢) سورة الزخرف: الآية ٧١.
(٣) سورة المرسلات: الآيتان ٤١ ـ ٤٣.
(٤) سورة الحاقة: الآية ٢٤.
(٥) سورة الإنسان: الآيتان ٥، ٦.
(٦) سورة الإنسان: الآيتان ١٧، ١٨.
(٧) سورة محمد: الآية ١٥.

وقال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2].

فهذه الآيات السابقة تبين أنواع طعام أهل الجنة من الطيور والفواكه العديدة أي كل ما تشهيه الأنفس من ألوان الطعام.

وكما أخبرنا القرآن الكريم بألذ أنواع الشراب وأطيبه لأهل الجنة سواء أكان ماء أم لبناً أم خمراً أم عسلاً مصفى.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[3]. فلا ريب أن ما في الجنة من لذائذ لا تشبه ما في الدنيا إلا في الأسماء، وأن ما ادخره الله للمؤمنين لن يدركه العقل البشري.

وقد وعد الله المؤمنين بخير النعيم في الجنة وقد مر معنا من كرم الله وإنعامه على عباده ما يزيد شوق المؤمن إلى الاستزادة من العمل الصالح والجهاد المتواصل لنيل الرضا والمغفرة، كلما قرأ العبد المؤمن في كتاب ربه ازداد يقيناً وانشراحاً، وكلما طالع في السنة المشوقة أحاديث رسول الله ﷺ شع قلبه بالضياء وأشرق بالنور وامتلأ بالأمل العظيم ومما يطالعه ويفرح له ذكر النعم الوفيرة، فلأهل الجنة من الإكرام والتنعيم ما يعجزهم عن الشكر أو شطر منه، ولأهل الجنة يوم القيامة هيئة تزري بأنعم أهل الأرض، ملكاً كان أو وجيهاً ثرياً، وذلك من فضل الرب على عباده المخلصين.

وفي لباس أهل الجنة بقوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾[4].

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٢٠، ٢١.
(٢) سورة المرسلات: الآيات ٤١ ـ ٤٣.
(٣) سورة محمد: الآية ١٥.
(٤) سورة الإنسان: الآية ٢١.

وفي الجنة خمر ليست كخمر الجنة وهذه الخمر تقدم بكأس بيضاء جميلة، إنها وصفت بأنها ليست كخمر الدنيا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

قال ابن عباس مفسراً الغول بأنه «وجع البطن، وذهاب العقل والآذي»[2].

ونقل الطبري عن ابن عباس أيضاً بأنه فسر الغول هنا بالصداع[3].

أما أبو عبيدة فقد فسر خص الغول بأنه ما يغتال العقل، ولم يعمه على وجع البطن، والاثم قال: «ليس فيها غول» والغول أن تغتال عقولهم قال الشاعر:

وما زالت الكأس تغتالنا تذهب الأول بالأول[4]

وقال الزمخشري: «الغول ما غاله يغوله إذا أهلكه وأفسده، ومنه الغول الذي في تكذيب العرب، وفي أمثالهم الغضب غول الحليم»[5].

وفي الاستعمال اللغوي ما يؤكد هذا المعنى فالغول «المهلكة، وكل ما

---

(١) سورة الصافات: الآية ٤١.

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢٢٧.

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري ج ٢٣ ص ٥٣ وكذلك قول الخليل كما نقله ابن سيده في المخصص ج ٥ ص ٧٤، وكذا التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج ٨ ص ٤٩٦، وهو معنى أكدته آيات أخرى بقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الواقعة: الآية ١٩] فقيل إن معنى يصدعون يصيبهم الصداع، انظر مجاز القرآن للطبري ج ٢ ص ٢٤٩.

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٦٩، وكذا جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري ج ٢٣ ص ٥٣.

(٥) الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٣٤٠.

أهلك الإنسان فهو غول»[1].

وبهذا تكون الآية الكريمة نفت واحد معظم عيوب الخمر، وذلك أن المنعمين في الجنة لا يصيبهم صداع، ولا ألم في بطونهم، إذ لا يضرهم الخمر، ولا يهلكهم إنما هو خمر من نوع آخر أعدت للمؤمنين في الجنة.

ويتبع هذا الوصف وصف آخر للجنة، وهو أنها لا تنزف إذا شربوها، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾[2].

قال ابن عباس مفسراً كلمة «ينزفون» بقوله: «ينزفون ينقذون ويقال ولا هم يسكرون ولا تصدع رؤوسهم»[3].

وقد فسر أبو عبيدة بأنهم «لا يسكرون»[4].

وقد علل الطبري أن سبب الاختلاف ففي تفسير النزف هو اختلافهم في قراءة الكلمة قال: «والصواب في ذلك أن أهل الجنة لا ينفذ شرابهم ولا يسكرهم شربهم إياه فيذهب عقولهم»[5].

فالخمر حين حرمت في الدنيا على المسلمين، إنما حرمت لعيوبها، ومضارها ولأنها تفقد لب الإنسان، وتفكيره.

ومن هنا نرى إعجاز عظيم ذلك الذي نجده في الآيات الكريمة حين تصف خمر الجنة وأنهارها الجارية، بأن خمرها خالص المتعة قد نفيت عنه كل عيوب خمر الحياة الدنيا، فهي لا تسكر، ولا يصيب شاربها الصداع، أو أي ألم كان.

---

(١) فتح اللغة وسر العربية أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري الثعلبي تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ص ١٩، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م، وكذا المخصص ج ٦ ص ١٢٨، وكذا لسان العرب ج ١٤ ص ٢٠.

(٢) سورة الصافات: الآية ٤٧.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢٧٧.

(٤) مجاز القرآن أبو عبيدة ج ٢ ص ٢٤٩.

(٥) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري ج ٢٣ ص ٥٥.

وأخيراً هناك أنهار من عسل تجري إلى جانب أنهار المياه والخمر واللبن، وإذا كان العسل شراباً متوافراً في كثير من البيئات فإن معرفة نظرة العرب إليه تشكل لنا صورة لأهميته في بيئتهم ونفوسهم.

لم يحب العرب العسل لأنه شراب حلو فحسب، بل لأنهم اعتقدوا فيه ما لا يعتقدونه بغيره من أنواع الشراب، وذلك أنهم اعتبروه من الأدوية التي يعالجون بها أمراضهم، هذا بالإضافة إلى كونه شراباً لذيذاً حلواً يجعل الشارب يستزيد منه ويستلذه.

ومن هاتين الناحيتين جاء اهتمام القرآن بالعسل، فذكرت أنهار العسل الجارية في الجنة لتزيد متعة المؤمنين بعد الحساب، تلك المتعة التي تشترك فيها الناحيتين النفسية في كون العسل شفاء، وعافية، والمادية، بكونه شراباً لذيذاً يتمتع به المؤمنون إلى جانب النعم الآخروي التي يوفرها الله سبحانه وتعالى في الجنة.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[1].

هذه هي صورة الأنهار المتعددة التي تجري في الجنة، فيتمتع بشرابها ومنظرها المؤمنون، وإذا قارنا هذه الصورة بصورة التعذيب وبالعطش وجدنا فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً بين الصورتين، فرقاً بين ما يتوسل، ويتمنى شرابه ماء صاف، وبين المؤمن الذي يجد أمامه ألوان شتى من ألوان النعيم من خمر ولبن وعسل.

وقد أورد القرآن الكريم هاتين الصورتين معاً ليزيد ملامح كل صورة وضوحاً وبياناً قال تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ

(١) سورة محمد: الآية ١٥.

مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[2].

ومن الملاحظ أن تكرر لفظة الأنهار مرة بعد مرة يزيد جمال الآية ويرسخ الصورة الرائعة للأنهار، والشراب المتوفر في الجنة، حتى إذا اكتملت هذه الصورة جاءت صورة المجرمين الخالدين في النار الذين يسقون الحميم الحار الذي يقطع أمعاءهم ويحرق بطونهم.

وتحيط صورة الجنة الخضراء، الوافرة الظلال ذات الطيب والمسك والقصور العالية الفخمة، والنعيم المقيم، تنساب فيها الأنهار فتكمل الصورة الجميلة البهيجة، أما العطش والحرمان من الماء فتحيطه صورة النار، ولظاها المحرق وصنوف عذابها، بهذا تتجلى الصورتان فتغمر الراحة والسعادة قلب المؤمن حين يقرأ وصف الجنة، على حين يقشعر جسده، وتملكه الرهبة والفزع حين يقرأ وصف العذاب النار.

## أشجار الجنة وثمارها:

تهفو النفوس إلى الجمال في جميع أشكاله وصوره، وتتملاه العين، ويهتز له خافق الإنسان طرباً، وتتميز الطبيعة في بعض الأماكن بما حباها الله به من جمال المنظر لروعة أشجارها، ونضرة ثمرها وشلالاتها وتغريد الأطيار في جوها اللطيف الرائع، ويفتن الإنسان بهذه المشاهد الباعثة على الأنس والسرور، حتى إذا انقلب إلى مسكنه تمنى لو طال به الوقت ليعب من هذا النعيم الذي بهره وسحره ونفس عنه همومه وأبعد غمومه.

هذا منظر يستحليه الإنسان في الدنيا، فيأخذ بلبه، ويتمنى أن تطول

---

(١) سورة الغاشية: الآيات ٢ ـ ١٤.

(٢) سورة محمد: الآيتان ١٥، ١٦.

أيامه، أما نعيم الآخرة، فمبلغ مايصل إليه عقل الآدمي المتفكر أن يخرج قليلاً عن إطار هذه الصورة الدنيوية، فيتصور أشجار الجنة أكبر حجماً، وأكثر جمالاً، وأنضج ثمراً، وهذه الحقيقة دلت عليها الآيات القرآنية في نقل صورة الأشجار والثمار في جنان الخلد للسعداء من العباد الذين كتب الله لهم أن يتذوقوا هذا النعيم.

وقد حفل القرآن الكريم بآيات قرآنية كثيرة تصور هذا الخير الذي ينعم به أهل الجنة، فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن في الجنة أشجار العنب قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾[1].

وإلى جانب هذه الحدائق والأعناب يوجد شجر النخل والرمان: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾[2].

كما فيها أشجار السدر والطلح قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾[3].

فقد عدد الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة نعم الجنة الكثيرة، والفواكه المتنوعة، والطعام اللذيذ، والظل الوافر الجميل مع وفرة المياه، والنخل والأشجار، والعربي تثيره أوصاف الجنة، وأكثر ما يثيره هذا الوصف الرائع البديع لما في الجنة من أشجار وثمار، خاصة إذا ما قارن هذا بحياته الجافة من هذا النعيم فالصحراء الممتدة البعيدة، والشمس الملتهبة، وقلة الماء والمطر، وبالتالي قلة الخضرة من حوله حتى أنه ليفرح الفرح الشديد إن ورد على مرعى لأبله، أو بلغ به مسيره إلى واحة ظليلة، يفيء إلى بردها ومائها، فكيف به في الجنة وكل ما يحيط به مما يسر له،

---

(١) سورة النبأ: الآيتان ٣١، ٣٢.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٦٨.

(٣) سورة الواقعة: الآيات ٢٧ ـ ٣٣.

فلا ينقضي الطرف إلى صحراء أو منظر يمله.

وهذا الذي ذكره القرآن الكريم من أشجار الجنان شيء قليل مما تحويه تلك الجنان، ولذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾[1].

وفواكه الجنة لا تحجب عن المؤمن فضلاً عن كل النعيم يطلبه، وإذا كان قد ذكر بعض أنواع الفواكه فإن ما يحبه المؤمن من فاكهة يعرفها، له أن يتمنى ليجد بغيته أمامه، يقول تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾[2] ويقول عز من قائل: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[3]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾[4].

كما يوجد في الجنة من الثمار والنعيم كل ما تشتهيه النفوس وتلذه العيون ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ﴾[5].

وقد قال ابن كثير كلاماً لطيفاً دلل فيه على عظيم ثمار الجنة، إذ استنتج أن الله نبه بالقليل على الكثير، والهين على العظيم عندما ذكر السدر والطلح، قال: «وإذا كان السدر الذي في الدنيا لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة وهي النبق، وشوكه كثير، والطلح الذي يراد منه في الدنيا إلا الظل، يكونان في الجنة في غاية من كثرة الثمار وحسنها، حتى أن الثمرة الواحدة منها

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٥٣.
(٢) سورة ص: الآية ٥١.
(٣) سورة الواقعة: الآية ٢٠.
(٤) سورة المرسلات: الآيتان ٤١، ٤٢.
(٥) سورة الزخرف: الآية ٧١.

تنفتق عن سبعين نوعاً من الطعوم، والألوان، التي تشبه بعضها بعضاً، فما ظنك بثمار الأشجار، التي تكون في الدنيا حسنة الثمار، كالتفاح، والنخل، والعنب، وغير ذلك؟ وما ظنك بأنواع الرياحين، والأزاهير وبالجملة فإن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونسأل الله منها من فضله»[1].

وأشجار الجنة دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت وفصل دون فصل، بل هي دائمة الأثمار والظلال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[2].

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾[3] أي دائمة مستمرة، وهي مع دوامها لا يمنع عنها أهل الجنة.

ومن لطائف ما يجده أهل الجنة عندما تأتيهم ثمارها أنهم يجدونها تتشابه في المظهر، ولكنها تختلف في المخبر: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4].

ووصف الله سبحانه وتعالى أشجار الجنة بأنها ذات فروع وأغصان باسقة نامية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾[5].

والخضرة لون تحبه النفس العربية، وتميل إليه، وقد شاع في شعرهم وترنموا به لاقتران الخضرة بالخير والبركة، ومن يراجع أقوالهم النثرية والشعرية يجد مادة كبيرة توحي إليه بمغزى اللون الأخضر في حياتهم.

---

(١) نهاية البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٦٢ نشر مكتبة النهضة العربية الحديثة الرياض الطبعة الأولى ١٩٦٨م.

(٢) سورة الرعد: الآية ٣٥.

(٣) سورة الواقعة: الآيتان ٣٣، ٣٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥.

(٥) سورة الرحمن: الآيات ٤٦ ـ ٤٩.

فقد ذكر هذا اللون المحبب إلى قلوبهم في وصف شجر الجنة في قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ﴾[1].

ولا توصف الجنة بهذا الوصف إلا إذا كانت أشجارها مائلة إلى السواد لشدة ريها، ونضرتها وقربها إلى لون السواد، قال الله جل وعلا: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما ﴿مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾.

ومن هنا وصف ذو الرمة الوصال بالخضرة فقال:

أتراب مي الوصال أخضر ولم يغير وصلها المغير[2]

ويخبرنا الله سبحانه وتعالى عن ثمر الجنة فيصفه بأنه قريب مذلل لا يبذل طالبه مشقة ولا يصعب عليه تناوله، وما أروع قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[3].

ومن هنا يتضح لنا أن الخضرة في القرآن الكريم تجسيد للذوق العربي الذي أحبها وشغف بها، لأنها تمثل في نظره الخير، والرفاهية، والحياة الدائمة.

وكل هذه الصور ترسم في الذهن عند قراءة وصف الجنة، وطبيعتها المشرقة الزاهية.

وقال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[4].

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ٦٢ ـ ٦٤.

(٢) ديوان ذي الرمة، غيلان بن عقبة العدوي ص ٢٨٤ المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الثانية ١٩٦٤م.

(٣) سورة الإنسان: الآية ١٤.

(٤) سورة المطففين: الآيتان ٢٧، ٢٨.

## لباس أهل الجنة وحليتهم:

أهل الجنة يلبسون فيها الفاخر من اللباس، ويتزينون فيها بأنواع الحلي من الذهب والفضة واللؤلؤ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾[2].

قال جماعة من المفسرين: السندس مارق من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه.

وقالت طائفة: ليس المراد من الغليظ ولكن المراد به الصفيق[3] وقال الزجاج: هما بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به»[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[5].

---

(١) سورة الدخان: الآيات ٥١ ـ ٥٣.
(٢) سورة الكهف: الآيتان ٣٠، ٣١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٠ ص ٢٥٨، وكذا الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٤٨٣.
(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن قيم الجوزية خرج أحاديثه وعلق عليه عصام الدين الصبابطي ص ١٨٩.
(٥) سورة الحج: الآية ٢٣.

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾[2].

فقد دلت كلمة ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ على أن كون ذلك اللباس ظاهراً بارزاً يجمل ظواهرهم، ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

وقد اختلف القراء السبعة في نصب ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ ورفعه على قراءتين.

كما اختلف النحاة في وجه نصبه هل هو على الظرف أو على الحال، على قولين.

كما اختلف المفسرون: هل ذلك للولدان الذين يطوفون عليهم فيطوفون، وعليهم ثياب السندس والاستبرق، أو للسادات الذين يطوف عليهم الولدان فيطوفون على ساداتهم، وعلى السادات هذه الثياب، وليس الحال ههنا بالبين ولا تحته ذلك المعنى البديع الرائع. فالصواب أنه منصوب على الظرفية فإن عالياً لما كان بمعنى فوق أجري مجراه.

وقال أبو علي: وهذا الوجه أبين وهو أن عالياً صفة فجعل ظرفاً كما كان قوله: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وكما قالوا: هو ناحية من الدار، وأما من رفع عاليهم فعلى الابتداء وثياب سندس خبره.

وفي «استبرق» قراءتان: الرفع عطفاً على ثياب، والجر عطفاً على سندس[3].

نتأمل الآية الكريمة كيف جمع الله لهم بين نوعي الزينة الظاهرة من

---

(١) سورة الإنسان: الآية ١٢.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٢١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٩ ص ٩٤، ٩٥، ٩٦، وكذا حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن قيم الجوزية ص ١٩٠، وكذا الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ١٩٩، ٢٠٠.

اللباس والحلي كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة كما تقدم تقريباً فجعل البواطن بالشراب.

## النـار:

النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين به المتمردين على شرعه، والمكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه العصاة من الجن والإنس، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين[1].

وهي الخزي الأكبر والخسران العظيم، الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[3]. وكيف لا تكون النار كما وصفنا وفيها من العذاب والآلام والأحزان ما تعجز عن تسطيره أقلامنا وعن وصفه ألسنتنا، وهي مع ذلك خالدة وأهلها فيها خالدون، ولذلك قال الحق في ذم مقام أهل النار في النار قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾[4].

## صفـة النـار:

خلق الله النار لتكون مثوى للكافرين والعصاة والمتكبرين والطغاة والمعاندين، وتوعدهم الله سبحانه وتعالى إن لم يعودوا إلى فطرتهم أن يكونوا ممن تسعر بهم النار، فقد ذكر الحق سبحانه وتعالى أن وقود النار يوم القيامة من الناس والحجارة والكافرين، وذلك في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ

---

(١) اليوم الآخر الجنة والنار عمر سليمان الأشقر ج ٣ ص ١١، وكذا محاضرات في مادة التوحيد «النبوات والسمعيات» ثريا محمد حسن المرغني ص ١٢٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩٢.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٥.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٦٦.

ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

ولهذه النار خزنة يقومون عليها، وهم ملائكة وصفهم ربهم بأنهم غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

والنار دركات، وحرها متفاوت في الشدة، فلكل داخل نوع من العذاب، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2]. وهو العذاب الشديد، وقيل: يقال لها درجات أيضاً كما في قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ . . .﴾[3].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «درجات الجنة تذهب علواً ودرجات النار تذهب سفولاً»[4].

وقد خلق الله النار لتكون هي العقاب الذي يناله العصاة والمنحرفون والطغاة والمعاندون، وهذه النار التي أعدت لهؤلاء العصاة هي نار مهولة في سعيرها فهي فوق ما يتصوره عقل الإنسان لأنها لا يماثلها أي عذاب من عذاب الدنيا ولا أي احتراق بنار الدنيا، وذلك لأن الجسم الدنيوي المعد للموت والبلى والفناء لا يحتمل ألماً إلا لدرجة محدودة فإذا زاد الألم عن هذه الدرجة نجا المرء منه بالإغماء أو الموت.

أما عذاب الجحيم فلا خلاص ولا نجاة منه بإغماء أو موت ولا تخفيف له كما تخفف آلام الدنيا بأنواع الدواء.

أما عن وقودها، الذي تشتعل به وفيه، يتكون من جزءين: الناس والحجارة، وليس بعجيب على الله سبحانه وتعالى أن يجعل من الناس

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤.

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٥.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٢، ١٦٣.

(٤) التخويف من النار أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ص ٥٠ مكتبة دار البيان ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

والحجارة وقوداً للنار، فسبحان الذي يجعل من الشجر الأخضر ناراً.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1].

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «إنها نار ممتازة عن غيرها من النيران بأنها لا تتقد إلا بالناس والحجارة، وبأن غيرها إن أريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة أوقدت أولاً بوفود ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماؤه، وتلك أعاذنا الله منها برحمته الواسعة توقد بنفس ما يحرق ويحمي بالنار، وشدة ذكئها إذا اتصلت بما لا تشتعل به نار اشتعلت وارتفع لهبها»[2].

ولا يخفى على أي إنسان إلى أي مدى بلغ تحقير الكفار في هذه الآية فقد جمع بينهم وبين الحجارة فهم سواء فهم حجارة تسد سد الحجارة[3].

ويخوفهم رب العزة من ورود النار، ويسفه آراءهم باتباعهم آلهة لا تدافع عن نفسها، وسترد النار معهم لتكون وقوداً تسعر به جهنم، ويقول عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾[4].

تصور لنا الآيات الكريمة مشهداً كأننا نراه الآن وهو مشهد ورودهم مع آلهتهم إلى جهنم فهم حطبها ووقودها وعندئذ يوجه البرهان من هذا الواقع المشهود: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ﴾ وهو برهان وجداني ينتزع من هذا المشهد المعروض عليهم في الدنيا، وكأنما هو واقع في

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤.

(٢) الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٢٥١، ٢٥٢.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ج ١ ص ٤٩، وكذا مشاهد القيامة سيد قطب ص ٢٣٤.

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان ٩٨، ٩٩.

الآخرة[1].

وحصبها: وقودها وحطبها، قال الجوهري: «كل ما أوقدت به النار أو هيجتها فقد حصبتها»، وقال أبو عبيدة: «كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به[2].

ولهذه النار خزنة يقومون عليها، وهم ملائكة وصفهم ربهم بأنهم غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمر ويفعلون ما يؤمرون، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾[3].

لقد شهدنا من قبل جهنم، وهي تتغذى بالناس كما تتغذى بالحجارة، وهذه وتلك عندها سواء في المهانة والحقارة.

وفي هذه الآية نشهد هذا المشهد أيضاً ولكنه لا يستوقفنا لأن هناك ما يلفتنا بشدة وما يرهبنا بقوة إنهم حراس جهنم وهم «غلاظ شداد» تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون وأنهم في الوقت ذاته لمنفذون للأوامر سراعاً ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم، وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة[4].

وقد سخر الكفار من خزنة النار، وعندما سمعوا أن عددهم تسعة عشر، فاستقلوا وخيل إليهم أنهم سينغلبون عليهم حينما يواجهونهم.

إن خيالهم الصغير المريض، أو همهم أن الحياة الآخرة كحياتهم

---

(١) مشاهد القيامة سيد قطب ص ١٩٩.

(٢) يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار لصديق حسن خان ص ٦١ طبعة دار الأنصار القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧١م.

(٣) سورة التحريم: الآية ٦.

(٤) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٦ ص ٣٦١٨.

الدنيا، وأنهم سادة فرسان، لهم قوة وعزة، وأن الملائكة كمن يرون أمامهم من البشر لن يلبثوا أن يصرعوا ويقضى عليهم، ولم يلتفتوا إلى الآيات التي سبقت عدد الخزنة، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وسقر اسم من أسماء النار التي يعذب بها الكافرون يوم القيامة قال المفسرون في سقر إنها علم من أسماء النار[2]. وخصها بعضهم بالباب الرابع من النار[3].

قال بعض المفسرين إن سقر اسم أعجمي[4]. فقد بدأت الآيات الكريمة برسم صورة لسقر ولكن الله سبحانه وتعالى بدأها بالاستهوال والتجهيل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ فهي محاطة بالإبهام والتهويل والغموض فكأن سقر مجهولة للسامع فتكررها الآية لتزيد من إيحاء الرعب أنك لا تعرف معنى سقر، فليست كالتي عرفتها في الحياة الدنيا إنما هي شديدة قوية.

ثم يعقب على التجهيل بشيء من صفتها أشد هولاً ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ فهي تلتهم كل شيء ولا تبقي على شيء، وهي بعد هذا كله سليطة تلوح للبشر وتتعرض في عنف وتنجح، وتلوح بشرتهم بلظاها المستعر، فهي تدل على نفسها وكأنما تقصد إثارة الفزع في النفوس بمنظرها المخيف.

---

(١) سورة المدثر: الآيات ٢٦ ـ ٣١.

(٢) التبيان في تفسير القرآن للطوسي جزء ١٠ ص ١٨٠، وكذا المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٣٤، وكذا الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ١٨٣، ١٨٤.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس الفيروزآبادي ص ٣٧٣، وكذا جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري ج ٢٩ ص ١٥٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث مجد الدين أبي السعدات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجوزي تصحيح عبد العزيز بن إسماعيل الطهطاوي ج ٢ ص ١٦٨ المطبعة العثمانية ١٣١١م.

# الفصل الثاني
# الرحلة الخالدة في الحديث النبوي الشريف

يبدأ اليوم الآخر بالنفخ في الصور وقد أكثر النبي ﷺ من الحديث عنه، فقد ورد ذكر الصور في قوله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ» فكأن ذلك شق على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»[1].

وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر ينفخ قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل توكلنا على الله ربنا»[2].

والصور في لغة العرب: القرن، ففي سنن الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن ابن حبان، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم، عن عبد الله بن

---

(١) الجامع الصحيح، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ج ٤ ص ٦٢٠ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧. وكذا انظر تخريج الحديث بطرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة محمد ناصر الدين الألباني ج ٣ ص ٦٦ نشر المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى.

(٢) تخريج الحديث بطرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة محمد ناصر الدين الألباني ج ٣ ص ٦٨، وكذا الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٢٠، وكذا المسند للإمام أحمد بن حنبل تحقيق أحمد محمد شاكر ص ١٦٢، ١٩٢، دار المعارف القاهرة ١٩٥٧م.

عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه»[1].

أرأيت إلى هذا القول الموجز وما يحمل من صور مثيرة، إن المعنى الذي يقصد إليه الرسول ﷺ هو أن موعد الساعة قريب ولكن هذا المعنى البسيط قد رسم أجمل رسم أدبي في موقف إسرافيل وقد التقم البوق قابضاً عليه بفمه كأنه يريد أن يأكله ثم أخذ يلقي بأذنه إلى السماء منتظراً الأمر بالنفخ كأنه سيصدر وشيكاً بين آونة وأخرى وهو على أتم أهبة واستعداد للتنفيذ.

إنه لا أعجب ولا أروع تصويراً لأخذ الأهبة والتهيؤ للأمر من هذه الصورة في كمالها ثم إن الفعل من الصورة في مكان دقيق موح، مخيل لقيامه على التشبيه، وكما نبصر قوله ﷺ: «وحنى جبهته» من ترقب ويقظة للأمر القاهر[2] وصاحب القرن كناية عن موصوف، كما أن التقام القرن كناية أخرى عن صفة اقتراب الموعد، والتعبير يرسم صورة لو تأملها السامع لما ركن إلى الغفلة والاطمئنان لحظة وهو يعلم أن موعد الساعة قريب وجد قريب.

ومن الأحاديث الواردة عن قرب الساعة ما رواه المستورد بن شداد الفري عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت في نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه هذه لأصبعيه السبابة والوسطى»[3].

وقد عرض هذا الحديث ـ الأستاذ مصطفى الرافعي تناوله بطريقة تحليلية وتذوق أدبي يقول الرافعي: «ومنها قوله ﷺ: بعثت في نفس الساعة» يريد أنه بعث والساعة قريبة منه، فوصف ذلك باللفظة التي تدل

---

(١) البيان النبوي محمد رجب البيومي ص ١٤٦، ١٤٧.

(٢) الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٤٩٦.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوي مصطفى صادق الرافعي ص ٣٣٠ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان الطبعة الثامنة.

على أدق معاني الحس بالشيء القريب وهي لفظة «النفس» كما يحس المرء بأنفاس من يكون بإذائه ولا يكون ذلك إلا على شدة القرب. وإنما أفرد اللفظة ولم يقل: بعثت في أنفاس الساعة، لأنها نفخة واحدة، وهذا معنى آخر، فإن النفخة الشديدة متى جاءت من بعيد كانت كالنفس من الأنفاس.

ولس المراد من قرب الساعة أنها قدر اليوم أو غد على التعيين، ولكن المراد أنها آتية لا ريب فيها، وأن ما بقي من عمر الأرض ليس شيئاً فيما مضى، وأن لا نظام لإنسان الدنيا إلا أن يتمثل في نفسه إنسان الآخرة فالساعة من القرب كأنها من كل إنسان في آخر أنفاسه، وهذا كله قد أصبح من الحقائق التي لا مرية فيها.

وفي تلك اللفظة معنى ثالث كأنه يقول: إن عمر الأرض كان طويلاً فكانت الساعة بعيدة ثم قصر هذا العمر فبدأت السعة تتنفس، وما يدرينا أنه قد حان أجل الأرض كما يحين أجل النهار عندما تبدأ الدقيقة الأولى من ساعة الغروب ثم لا ينقضي هذا الأجل إلا في الدقيقة الأخيرة من هذه الساعة[1].

فإذا وقع النفخ فهناك مشهد جديد صوره النبي ﷺ حين قال عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا، ورفع ليتا[2]، فأول من يسمعه رجل يلوط حول أبله، قال: فيصعق، فيصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله مطراً، كإنه الطل، أو الظل، (نعمان الشاك) - فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون»[3].

أسطر قليلة، ولكنها تشير إلى عدة مشاهد، رجل يفاجيء بالصوت فيصغي ليتا ويرفع ليتا أي إنه يدهش مضطرباً وجلاً ثم يصعق، ورجل يشغل بحوض يعده لإبله فيفاجأ بما يأخذ عليه حياته يخر صعقاً، ومطر يتساقط

---

(١) الليت: صفحة العنق أصفاؤه: أمالته.

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٥٨.

رذاذاً كالطل تنبت به الأجساد لتنهض عنه النفخة الأخرى.

فإذا تركنا النفخ متابعين الأحداث المترقبة في تسلسلها المعقول، فإننا ننتقل إلى الحشر، وما أكثر ما تحدث الرسول ﷺ عن حشر الناس وعن أرض المحشر التي هي أرض غير أرضنا التي نحيا عليها، وهي أرض جديدة يكون عليها حشر العباد استعداداً للفصل بينهم.

وقد وضح ذلك الحديث الذي جاء في صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي» قال سهل أو غيره ليس فيها معلم لأحد[1].

قال الخطابي: العفر: بياض ليس بناصع، وقال عياض: العفر بياض يضرب إلى شديد البياض.

النقي: قال الخطابي: الدقيق النقي من الغش والنخال[2].

والمعلم: العلامة التي تهتدي بها إلى الطريق كالجبل والصخرة البارزة أو ما يتخذه الناس علامات دالة على الطرقات.

وينقل ابن حجر العسقلاني رأياً لأبي محمد بن أبي جمرة في توضيح صفات أرض المحشر، فيقول: إن ذلك فيه «دليل عظيم على قدرة الله، والإعلام بجزيئات يوم القيامة ليكون السامع على بصيرة فيخلص نفسه من ذلك الهول في معرفة جزيئات الشيء قبل وقوعه رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها بخلاف مجيء الأمر بغتة، وفيه إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جداً، والحكمة في الصفة المذكورة أن ذلك اليوم يوم عدل، وظهور الحق، فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذي يقع

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، لابن حجر العسقلاني ج ١١ ص ٣٧٢ تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٨٠هـ، وكذا صحيح مسلم الإمام مسلم بن الحجاج القشيري ج ٤ ص ٢١٥ ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٥٦ والسياق هنا للبخاري.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ١١ ص ٣٧٥.

فيه ذلك طاهراً عن عمل المعصية والظلم، وليكون تجليه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته، ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده، فناسب أن يكون المحل خالصاً له وحده[1].

وفي الحديث الصحيح أيضاً، عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفأها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزه في السفر نزلاً لأهل الجنة[2].

فالحديث بروايته يتحدث عن صورة الأرض يوم القيامة، كيف يكون؟ وقد قيل إن المقصود بالأرض في الحديث الأول الدنيا تكون يوم القيامة خبزة وأن الأرض في الحديث الأول تعني أرض المحشر وضرب المثل في هذا الحديث بخبزة تشبه الأرض في معنيين: «أحدهما بيان الهيئة التي تكون الأرض عليها يومئذ، والآخر بيان الخبزة التي يهيئها الله تعالى نزلاً لأهل الجنة وبيان عظم مقدارها وابتداعاً واختراعاً[3].

وينقل ابن حجر العسقلاني عن البيضاوي رأيه في هذا التشبيه فيقول: «وتقديره أنه شبه أرض المحشر بالخبزة في الاستواء والبياض، وشبه أرض الجنة في كونها نزلاً لأهلها ومهيأة لهم تكرمة بعجالة الراكب زاده يقنع به في سفره»[4].

الخبزة ليست غريبة على حس الإنسان في كل زمان ومكان فهي أقرب إلى ذهن الإنسان لأنها قوت شائع، ومن أدق مستلزمات غذاء البشر.

لقد كانت تشبيهات الرسول ﷺ تجعل المخاطب كأنه نظر ما يسمع،

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري لابن حجر العسقلاني ج ١١ ص ٣٧٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم انظر فتح الباري ج ١١ ص ٣٧٢، وصحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٣٥، وتكفؤها: يميلها، وخبزة السفر يعني خبز الملة الذي يصنعه المسافر، فإنها لا تدمي كما تدمي الرقاقة، وإنما تقلب على الأيدي حتى تستوي، والنزل: ما يقدم للضيف.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ١١ ص ٣٧٣.

(٤) المصدر نفسه ج ١١ ص ٣٧٣.

وإلا فمن أين للإنسان مثلاً أن يتخيل أرض المحشر، وكل ذلك يفهمه من اللفظة أنها أرض فلا يرتسم في خياله سوى الأرض التي يدرج عليها، وكذلك تشبيه الأرض بأنها خبزة، ولكن الحديث الشريف يصورها كما هي، فكأن السامع ينظر إليها بعينه.

## صفة الحشر:

تتوالى أحداث القيامة على الناس، وهم في ذهول وذعر عجيب، وحال كئيب، يساقون إلى أرض المحشر، خلائق إثر خلائق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاث أصناف: صنفاً مشاة، وصنفاً ركبانا، وصنفا على وجوههم» قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم بوجوههم كل حدب وشوك[1].

وفي صحيح البخاري عن قتادة: «حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ «قال قتادة: بلى وعزة ربنا»[2].

وللإمام الغزالي تعليق حول سؤال السائلين عن الذين يمشون على وجوههم، يقول: «في طبعة الآدمي إنكار ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشي على غير الرجل، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك، فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك المشاهد، لكنت

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي ج ٥ ص ٣٠٥.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ١١ ص ٣٧٧.

أشد إنكاراً لها»[1].

وما نفهمه عن الآخرة وأحداثها ندركه عن طريقين موثوقين، كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ. وما لم يوضحه القرآن بينته السنة المشرفة فاكتملت الصورة، وتسلست المعاني التي دارت في عقول الأولين، لتهدي الآخرين لما اهتدى إليه الجيل الأول فانتفى عنا الجهل ووجب علينا الإيمان بكل صغيرة وكبيرة وردت في اليوم الآخر.

ولا يكون الحشر أن يمشيهم الله على وجوههم، ويجدون الضيق والعنت على هذه الحال، فهم لا يقدرون على التأوه أو السماع أو النظر فقد ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: «إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلاً»[2].

وعن ابن عباس أيضاً قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: ﴿لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ الآية.

وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل، وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصيحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ قال: «فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم»[3].

---

(١) مكاشفة القلوب، أبو حامد الغزالي ص ١٨٧ دار إحياء العلوم - بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٥.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ١١ ص ٣٧٧ غرلاً مختونين.

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ٣٧٨، وكذا في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٤.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلا» قالت عائشة رضي الله عنه: فقلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»[1].

وفي رواية مسلم: «من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

أما عن الموقف نفسه فقد ورد في صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل».

قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين.

قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً».

قال وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»[2].

فهذا الحديث فيه تصوير عجيب، أرأيت بحراً يعوم فيه الناس وقد اختلف ارتفاع موجه صعوداً وهبوطاً وفق ما قدمه السابحون، فمن واقف في الماء إلى كعبيه، ومن غائص إلى ركبتيه أو خصره، ومن ملجم لا يجد من العرق متنفساً، إذ يلجمه الماء إلجاماً حتى يصل إلى فمه.

وحرارة الشمس اللاهبة الحارقة فوق الرؤوس دانية بشواظها اللفاح.

أي موقف هذا الذي صوره البيان النبوي في أقرب لفظ وأيسره دون افتعال.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري لابن حجر العسقلاني ج ١١ ص ٣٧٨، وكذا صحيح مسلم ج ٤ ص ٣١٩٤.

(٢) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ٤ ص ٢١٩٦.

## محاسبة العباد وسؤالهم:

يسأل الناس عن الإله الذي كانوا يعبدون، وعن إجاباتهم الرسل، وعن أعمالهم ويسألون عن عهودهم ومواثيقهم، كما يسألون عما أفاء الله عليهم من نعم كثيرة منها حواسهم.

وأعظم ما يسألون عنه الكفر والشرك، وعن عبادتهم للآلهة التي كانوا يذبحون لها القرابين، كما يسأل المرء عن كل عمل عمله في الحياة الدنيا.

فقد ورد في سنن الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن أربع:

عن عمره فيم أفناه؟

وعن عمله ماذا عمل به؟

وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟

وعن جسمه فيما أبلاه؟[1].

وفي الحديث تحذير عن فتن الدنيا، فإن أكثر ما يبتلى الإنسان باليسر فيطغى إن رزقه الله مالاً، وقد يغتر امرؤ بشبابه، فلا يرعى لله حرمة فينطلق لاهياً عابثاً ظالماً، وفي قوله ﷺ: «لا تزول قدما عبد» كناية عن ثبات المرء للحساب حتى يسأل عما حدده الحديث بعد، وفي بيان رسول الله ﷺ فيض من الكنايات التي أضفت على المعاني من رونق أسلوبه ﷺ ما يبعث على الإعجاب والرسول ﷺ يضرب المثل الكريم السخي في استعمال هذا المسلك الأسلوبي، للدلالة على المعاني دلالة ألطف وآكد وأوجز من دلالة

---

(١) الجامع الصحيح ـ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر حديث رقم (٢٤١٧) في صفة القيامة، باب رقم ١، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الحقيقة المحضة»[1].

ويؤتى الإنسان كتابه بيمينه أو بشماله، فإن أخذه بيمينه كان من السعداء الذين رضي الله عنهم وكتب لهم النجاة فحسابه حساب يسير إذ لا يناقش ولا يدقق معه في الحساب.

ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾[2] فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض وليس أحد يناقش يوم القيام إلا هلك»[3].

قال ابن حجر العسقلاني نقلاً عن القرطبي في قوله: «إنما ذلك العرض» قال: «إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة[4].

إن ظلال اليوم الآخر يبدي في أحاديث رسول الله ﷺ تحملها الصور التي نقلها لهم عن الدار الآخرة، فتجيش مشاعرهم ويتلقون توجيهاته ﷺ باستسلام وقلوبهم مفتوحة.

فمشاعر التقوى تملؤها وتخضع لما تسمع من ترغيب وتحذير، حتى

---

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية كمال عز الدين ص ٢١٢ دار اقرأ - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٢) سورة الانشقاق: الآيتان ٧، ٨.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عذب، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج ١١ ص ٤٠٠، المطبعة السلفية القاهرة - ١٣٨٠هـ تصحيح وتحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز - وكذا صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ٤ ص ٢٢٠٤، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة الطبعة الأولى ١٩٥٦م.

(٤) فتح الباري ج ١١ ص ٤٠٢.

غدت تعيش الآخرة وهي في الدنيا، تدب أقدامهم على الأرض وتعانق قلوبهم السماء، فما أسرع ما يبادر أحدهم إلى إرضاء ربه إن سمع من رسول الله ﷺ ما يقربه إلى خالقه، وما أسرع ما تفيض عيونهم إذا قرؤوا من آيات العذاب في القرآن الكريم، أو سمعوا حديث رسول الله ﷺ يستبشرون إن قرؤوا آية نعيم طمعاً أن تشملهم رحمة ربهم.

فيجتهدون ويسارعون لأداء ما يتمنون، ويجاهدون لأجل الابتعاد عن غضب وسخط الجبار، يسألون عن صغار الأمور قبل كبارها، ويلتمسون الكلمة الطيبة في كل معاملاتهم، ويحزن أحدهم إن بدرت منه إساءة لأخيه بسبب غضبه، أوحمية شطت به، ولا يهدأ لهم بال ولا يستقر لهم حال حتى يكفروا عنها بما يقوون عليه من صلاة ودعاء ونفقة، ويحرصون على القصاص من أنفسهم في الدنيا قبل أن يقتص منهم على رؤوس الخلائق، وكيف لا وهم يسمعون رسول الله ﷺ يحذرهم مما يجري ويحدث في ذلك اليوم العصيب.

عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يحشر الله العباد يوم القيامة» أو قال: «الناس عراة» قال: قلنا وما بهما قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كا يسمعه من قرب: أنا الديان أنا الملك، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه، حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف، وإنا نأتي عراة غرلا بهما؟ قال: «الحسنات والسيئات»[1].

## أنواع الحساب:

ورد في السنة الشريفة أن أول حق يحاسب عليه العبد من حقوق الله

---

(١) مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن محمد بن حنبل ج ٣ ص ٤٩٥ دار الفكر - بيروت، وكذا الترغيب والترهيب للمنذري عبد القوي ج ٤ ص ٢٠٢، مكتبة الإرشاد.

سبحانه وتعالى الصلاة، فإن قبلت منه صالحة قبل سائر عمله، وإن ردت رد سائر عمله.

روي الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضة شيء قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك[1].

والحساب يوم القيامة أنواع، يحاسب كل امرىء على ما قدم في الدنيا، وللناس مواقف وأحوال، يخفيها الناس في الدنيا، فإذا جاء يوم الحساب أظهرها الله على حقيقتها، فالذي نال شهرته في الدنيا بعمل ما ولم تكن طاعة الله غايته، فاليوم يفضح على رؤوس الأشهاد، ويظهر عمله الذي راءى به في الدنيا حتى اكتسب شهرته ومجده، فهو في هذا اليوم لا يقدر ولا يملك إخفاءه إمام أعدل الحاكمين.

ولنر من أمثلة ما يمر في حياة البشر ما يعرض صورة من صور يوم القيامة.

## حوار المرائين:

روي مسلم عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن أبي هريرة فقال له ناتل أهل الشام[2]:

أيها الشيخ، حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم سمعت رسول الله يقول: «إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه، رجل استشهد

---

(١) الجامع الصحيح، الترمذي تحقيق وشرح أحمد شاكر ج ٢ ص ٢٧٠، وفي سنن النسائي، أبو عبد الرحمن علي بن شعيب النسائي ج ١ ص ٢٣٢: مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م.

(٢) ناتل أهل الشام هو ناتل بن قيس الجذامي الشامي من أهل فلسطين، وهو تابعي، وكان أبوه صاحبياً، وكان ناتل كبير قومه، تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٣٩٨.

فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فيسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار»[1].

والحديث واضح كل الوضوح أن عقاب هذه الأصناف على فعلهم ذلك لغير الله عز وجل، وما إدخالهم النار إلا لغلظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، والله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

## قصاص المظالم بين العباد:

والقصاص هو أخذ الحق من الظالم للمظلوم ومن الباغي للمبغي عليه، والقصاص يوم القيامة عام بين كل ظالم ومظلوم ومعتد ومعتدى عليه سواء أكان من المكلفين من الثقلين أو غيرهما.

قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾[2].

أي خاب يوم القيامة من حمل ظلماً لعباد الله تعالى في الدنيا، فإن الله عز وجل سوف يوصل كل حق حتى أنه يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء[3].

---

(١) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ج ٣ ص ١٥١٤.

(٢) سورة طه: الآية ١١١.

(٣) الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها، عبد الله سراج الدين ص ٣٦٢، جمعية التعليم الشرعي ـ حلب ـ الطبعة الأولى ١٩٧٧م.

يأتي الإنسان يوم القيامة مجرداً من كل ما كان يتمتع به في الدنيا من جاه ومال وولد، وليس له من رأس ماله يومئذ إلا ما قدم من خير أو شر، فإن كان خيراً كانت حسناته معه، وإن كان غير ذلك سبقته سيئاته إلى حيث لا يحب أن يرى عمله وما جلب له من خزي.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله من اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[1].

وهذه حقيقة الإفلاس التي يبينها رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة. ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا يعطى هذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج ٥ ص ١٠١، المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٨٠هـ.

# الميـزان

الميزان حق كما جاء في القرآن الكريم، وكذلك ورد أمره في الحديث النبوي الشريف، حيث توزن أعمال العباد، لتقرير الجزاء العادل عليها.

وقال ابن حجر العسقلاني: «قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيام، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال... وذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان»[1].

وقد حكى بعض العلماء أن لكل شخص ميزاناً خاصاً، أو لكل عمل ميزاناً وذلك لقوله جل شأنه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2].

وقال آخرون: إن الميزان واحد.

وقد رجح ابن حجر العسقلاني بعد سرده لآراء القائلين بوحدة الميزان وتعدده أن الميزان واحد يقول: «ولا يشكل كثرة من يوزن عمله، لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا»[3].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ٥٣٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ٥٣٧، وينظر لذلك آراء القائلين بتعدد الموازين لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، محمد بن أحمد السفاريني ج ٢ ص ١٨٦.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1].

فهذا الحديث الشريف يمثل في البيان الكريم جانباً من الإيقاع الصوتي، وانطباع الملكة الشريفة بالذوق الموهوب يزيد الكلام روعة، ويملأ القلوب تأثراً لعذوبة جرسه، وشجو رنينه وطيب نغمه، حيث يدخل على الأذان مشتاقه، وعلى القلب واقعاً، فيكون أداة مما به يتقرر المعنى ويسهل الحفظ.

## الميزان وما الذي يوزن فيه:

للعلماء أقوال في هذا الباب تتلخص في الاعتماد على النصوص الواردة، وإدراك كل عالم لمفهوم خاص لما دلت عليه هذه النصوص.

١ ـ فريق يرى أن الأعمال والأقوال توزن في الميزان، وأنها تجسم فتوضع في الميزان.

روي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[2].

فقد استدل البخاري بهذا الحديث على أن ذات الأقوال والكلمات توزن في الميزان والأعمال كذلك.

وروى الإمام مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن «أو تملأ» ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، القرآن حجة لك أو عليك. كل الناس

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ٥٣٧.

يغدو، فبايع نفسه، فمعتقها، أو موبقها»[1].

كما ذكروا أن الأعمال تأتي يوم القيامة في صورة حسنة مضيئة إن كانت صالحة، وفي صورة سيئة قبيحة إن كانت طالحة، والله أعلم بالكيفية التي تتمثل بها تلك الأعمال، ومما في الحديث الشريف عن مجيء الأعمال يوم القيامة ما رواه الإمام مسلم عن النواس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، كأنهما غمامتان، ظلتان بينهما شرق[2] أو كأنهما فرقان من طير طواف تحاجان عن صاحبهما»[3].

وقد رجح ابن حجر العسقلاني هذا الرأي ودافع عنه فقال: «والصحيح أن الأعمال هي التي توزن».

٢ ـ ورأى فريق آخر أن العامل نفسه هو الذي يوزن واستدل على ذلك بما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[4][5].

فهذا الحديث يوضح أن العباد يوزنون يوم القيامة، وأن الإيمان الذي هو يرجح الميزان لا أوزان الأجسام من ضخامة ونحافة.

٣ ـ وفريق ثالث قال: إن الذي يوزن يوم القيامة صحائف الأعمال.

ومن هؤلاء القرطبي يقول: «والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها

---

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ١ ص ٢٠٣.

(٢) شرق: أي ضوء ونور.

(٣) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ١ ص ٥٥٣.

(٤) سورة الكهف: الآية ١٠٥.

(٥) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج ٨ ص ٤٢٦.

الأعمال مكتوبة، وبها تخف كما دل عليه الحديث الصحيح والكتاب العزيز. قال. قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ وهذا نص.

قال عمر: «توزن صحائف الأعمال، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار»[1].

وشابه قول محمد بن أحمد السفاريني قول القرطبي إذ قال: «والحق أن الموزون صحائف الأعمال، وصححه ابن عبد البر والقرطبي وصوبه الشيخ مرعي في «بهجته» وذهب إليه جمهور من المفسرين، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي. . .»[2].

ومن الأحاديث التي استشهد واستدل بها هذا الفريق ما رواه الإمام أحمد من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يقول له:

أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فيقول احضروه فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات؟ في كف، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص ٣٣٩، ٣٤٠.

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية محمد بن أحمد السفاريني ج ٢ ص ١٨٧.

بسم الله الرحمن الرحيم[1].

ويتبين لنا من مجموع النصوص أن العامل وعمله وصحف أعماله كلها توزن ولا تسرد حديث حديثاً آخر أوينا فيه فاقتضى الجمع بين ما ورد في النصوص على أن الوزن يشملها جميعاً.

وقد ذكر القرطبي في كتابه «التذكرة» أقوال العلماء في أيهما يكون قبل الآخر الميزان أم الحوض؟[2] ويتناول ما ذكره الإمام الغزالي وأبو الحسن الماتريدي والقاضي عياض ولكل وجهته ورأيه في تقديم بعض على بعض.

ويعلق الشيخ حسن أيوب على هذه الآراء فيقول:

«هذا، ولم يقم دليل صريح على شيء مما ذكر، فالواجب اعتقاده هو أن النبي ﷺ له حوض تعدد أو اتحد، تقدم على الصراط أو تأخر ولا يضرنا جهل ذلك»[3].

## الصراط:

بعد أن انتهى العرض على رب العزة سبحانه وتعالى فيأمر بالصراط،

---

(١) مسند الإمام أحمد، للإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٢١٣، وكذا الجامع الصحيح، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي تحقيق أحمد محمد شاكر ج ٥ ص ٢٤، وكذا سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني حققه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي ج ٢ ص ١٤٣٧ ورقم الحديث ٤٣٠٠ وسنده صحيح صححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي وحسنه الترمذي ورواية «ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم» شاذة وهي للإمام أحمد والرواية الصحيحة «ولا يثقل مع اسم الله شيء» وهي رواية الترمذي والحاكم.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص ٣٢٤.

(٣) رحلة الخلود حسن أيوب ص ١٧٢، دار الندوة الجديدة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

فيضرب بين حافتي جهنم ويسير عليه المؤمنون على قدر نورهم الذي جاء على قدر عملهم، أما المنافقون فأن نورهم يطفأ فلا يعرفون طريقاً ولا يتبينون مواقع أقدامهم فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ويمر العباد على الصراط مسرعين كل على قدر عمله.

هذا مجمل ما أورده الإمام مسلم في صحيحه في الحديث الطويل الذي أوله:

«إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن»[1].

وروي مسلم أيضاً عن أبي هريرة فيصف المرور على الصراط، قال: قال رسول الله ﷺ: «وترسل الأمانة والرحم فتقومان على جانبي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق» قال: قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كالبرق؟ قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرحال، وتجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط فيقول رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وعلى حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة يأخذ من أمرت به فمخدوش ناج، ومكور في النار»[2].

وفي صفة الصراط روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟

فقال ﷺ: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف، أما عند تطاير الكتب، فإما أن يعطي بيمينه أو يعطي بشماله

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرواية ج ١ ص ١٦٧ وفي البخاري مثله، كما في فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ٨ ص ٢٤٩.

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٧.

وحين يخرج عنق النار فينطوي عليهم، ويقول ذلك العنق وكلت بثلاثة:

وكلت بمن ادعى أن مع الله إلهاً آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد. فينطوي عليهم - أي على ثلاثة - ويرمى بهم في غمرات النار».

قال: ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله تعالى والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب والملائكة يقولون: رب، سلم سلم، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكور في النار على وجهه[1].

فقد صور الرسول ﷺ الجسر وصفته وما يعترضه من الأهوال، وحال العابرين على اختلاف منازلهم على الصراط أبدع تصوير حين قال عنه فيه خطا طيف وكلاليب وحسك فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكور في نار جهنم، أهناك وصف للصراط أبلغ مما قال النبي ﷺ؟ وقد تحدث عنه في أقل من ثلاثة أسطر حديثاً يرج النفس بأهواله الثقال.

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في رده على سؤال الصحابة عن رؤية الله عز وجل يوم القيامة: «هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه يوم القيمة كذلك يجمع الله الناس، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يتبع القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب جسر جهنم. قال رسول الله ﷺ: «فأكون أول من جيز، ودعاء

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ١١٠.

الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو»[1].

وتشبيهه بشوك السعدان وهو نبت صحراوي له شوك طويل يخلع على المشهد رهبة شديدة فهم يتحاشون المرور على شوك هذا النبات في أرضهم لما يحمله من إيذاء واطئه، فكيف إذا كان يغطي مساحة الصراط والمرور عليه من الأمور المقدرة التي لا يستطيعون منها فكاكاً.

إن اختيار رسول الله ﷺ لهذه المشبهات التي يرونها ويشاهدونها في حياتهم مما يعلي قدر الصورة البيانية حتى تبلغ بتأثيرها القوي مكامن الإثارة في القلوب، ويتحرك هواجس الخشية لدى المؤمنين حتى يلجؤوا إلى الرجاء ويتوجهوا إلى خالق الأرض والسماء.

كثيرة هي التشبيهات في البيان النبوي، وليس غريباً أن تكثر على لسان رسول الله ﷺ، فإن دواعي الدعوة وتوضيح المبهم من الأمور، والغامض من الأخبار يجعل اللجوء إلى استخدام التشبيه أمراً مطلوباً، لأن التعليم يحتاجه كوسيلة توضيحية تعليمية.

ومن هنا فإن التشبيهات في البيان النبوي لم تأت لغاية فنية بحتة، يحرص عليها الرسول ﷺ كغرض أدبي يزين به القول أن يبهرج به الصور المصطنعة إنما يأتي استعماله التي لا يستطيع الخيال رسم صورتها دون التماس التشبيه المشاهد المألوف، وكلما كان المشبه به ألصق بحياة المخاطبين كان أقرب إلى فهمهم، وهذا واضح في التشبيهات التي وردت في الحديث النبوي الشريف.

---

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٤٤٤، وكذا صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ١ ص ١٦٣، واللفظ للبخاري.

# الشفاعة

مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية التي يغمر بها الله سبحانه وتعالى العصاة والمذنبين من خلقه ويتجاوز عن سيئاتهم، كما أنها في حدها مكرمة لرسول الله ﷺ في أن يشفع لأمته.

معناها لغة: الوسيلة والطلب.

وعرفاً: سؤال الخير للغير.

وهي تكون للأنبياء والعلماء العاملين والشهداء الصالحين، يشفع كل لأهل الكبائر على قدر منزلته عند ربه.

وعرفها الحافظ الزرقاني بقوله: هي انضمام الأدنى ـ أي لجوؤه وقصده ـ إلى الأعلى، ليستعين به على ما يرومه ـ أي في جلب منفعة أو دفع مضرة عن المشفوع به[1].

وأحاديث الشفاعة ما أروعها وما أشد تأثيرها، كل حديث يمثل قصة شائقة ذات عرض وحوار وأحداث، وقد تكررت في كتب الأحاديث كما تكررت قصص الأنبياء في القرآن لكل قصة مساق خاص، ومغزى خاص، وهدف خاص وإن ظن الغافل أنه حديث معاد، وإذا كان المسرح لأحاديث الشفاعة هو ساحة العرض فما أهوله مسرحاً تزيغ به الأبصار وتبلغ القلوب

---

(١) الإيمان بعوالم الآخرة ومواقعها عبد الله سراج الدين ص ١٨٠ جمعية التعليم الشرعي ـ حلب ـ الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

الحناجر فهو في حاجة إلى متحدث بليغ ينقله بألوان معبرة من الحروف والكلمات لا تتاح لغير مبين قدر.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة، إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[1].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً»[2].

والشفاعة للنبي ﷺ ثابتة بالكتاب والسنة، ففي الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[3] والمقام المحمود في الآية الكريمة تعني الشفاعة، فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون يا فلان أشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يبعثه المقام المحمود»[4].

وما روى الإمام البخاري أيضاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمد الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته»، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[5].

وشواهد الشفاعة كثيرة حفت بها كتب السنن، نقتطف منها هنا ما ينقل صورتها لتقريبها إلى الأذهان، مع الاكتفاء منها بالمثل أو المثلين.

---

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ١ ص ١٨٩، وكذا سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٤٠.

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٤) فتح الباري ج ٨ ص ٣٩٩.

(٥) المصدر نفسه ج ٨ ص ٣٩٩.

الشفاعة العظمى وهي الخاصة بنبينا ﷺ، من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

روي في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين أحاديث الشفاعة منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم، فدفع إليه منها الذراع وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقونه ولا يحتملونه فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم عند ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتون فيقولون يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربنا، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا عند ربنا، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، ألا ترى ما نحن فيه اليوم؟ ألا ترى ماقد بلغنا؟ فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته[1] نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى

---

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ٣٨٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، اثنين منهن في ذات الله عز وجل قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، وقال نبينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتي على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل=

موسى، فيأتون موسى فيقولون: أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكلميه على الناس، اشفع لنا إلى ربنا، ألا ترى ما نحن فيه اليوم؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله ﷺ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، قال: هكذا هو، وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربنا، ألا ترى ما نحن فيه اليوم؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتون فيقولون يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربنا، ألا ترى ما نحن فيه اليوم؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقيم، فاتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي، ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: «والذي نفسي بيده، كما بين مصراعين من

---

= إليه فسأله عنها، قال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، قال يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ، فقال: أدعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال ادعى الله لي ولا أضرك، فدعت، فأطلق فدعا بعض مهجته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر ـ أو الفاجر ـ في نحره ـ وأخدم هاجر، قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء.

مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى[1].
فقوله ﷺ: «يسمعهم الداعي» ينفذهم البصر وتدنو الشمس كنايات عن بعد المسافة في الأولى والثانية، وعن قرب المسافة في الثالثة، حيث تكون الشمس قريبة من رؤوس الخلائق وهذه الصورة تتغلغل في شفاف القلوب فتنزع أمنها واستقرارها، فالمخاطبون بهذا الكلام يعرفون ما تفعله الشمس بهم معرفة تام، يقاسون أهوال حرها في صيف لاهب طالما عبروا عنه في أشعارهم ووصفوا شدة حرها وما يخلفه من آثار على حياة الإنسان والأرض والحيوان، فكيف إذا كان ما يألفون صورة باهتة إلى جانب ما يسمعون إن ما يعيشونه ترف لا شك إذا قورن بهذا الوصف.

إن النفس البشرية لتجد كثيراً من العناء والمشقة إن طاف في خيالها هذا التصور للموقف، وإنها لتلتمس الشفاعة من أجل الفرار من هذا المشهد لتستريح في واحة الإيمان.

إن التاريخ البشري يجتمع في ذلك اليوم، ويرهقه الموقف المخيف ويؤذيه العرق المنتن والحر الشديد. ويتمنى الجميع الفرار من هذا المكان ولو إلى النار، ولكن ولات حين مناص.

وترتفع أصوات أن لا بد من شفيع إلى الله حتى ينقذنا من هذا الموقف العصيب والهول الذي لا يطاق، فتتجه جموع الناس إلى آدم وتتم السلسلة حتى يشار إليهم أن محمداً ﷺ هو سيد الموقف كله، وأنه الشفيع الذي لا ترد شفاعته عند ربه، إنه موقف يزداد فيه خزي الكافرين ويزداد المؤمنون عزة، وهذا الجمع الهائل المتجه إلى صاحب اللواء، كم فيه من شامت برسول الله في الدنيا أفنى حياته في حرب رسالته، وأنفق ليله ونهاره في تسويد الصفحات سباً وقدحاً في سيرته، وطالما أغراه وضعه في الدنيا فبذل ما بذل محارباً دعوة الإسلام ونبيه، ويمتلي الموقف بهؤلاء الذين ظنوا

---

(١) مسند الإمام أحمد: ج ٢ ص ٤٣٥، ٤٣٦ وأخرجه البخاري، وكذا فتح الباري ج ٨ ص ٣٩٦ وأخرجه مسلم: ج ١ ص ١٨٤، وأخرجه الترمذي: ج ٤ ص ٦٢٢.

أنهم بحربهم لرسول الله ودعوته سينالون منه، وما دروا أنها محفوظة يقرؤونها هذا اليوم وهم في أمس الحاجة إليه.

وررسول الله ﷺ الذي سماه ربه الرؤوف الرحيم، ينطلق ليسجد تحت عرش الرحمن ينقذ هذا الجمع إلى الحساب ويتلقى كل عبد كتابه، وينقذ الموحدين المخلصين من أمته، بل حتى المقصرين الذين اتخذوا في الحياة سبلاً تتباعد عن طريق الإسلام إلا أنهم احتضنوا دينهم في قلوب فجأت أعمالهم دون ما يأمله مؤمن في النجاة من عذاب ذلك اليوم الأليم.

وهذا الحديث يدخل في باب القصة، كما يذكر في المثل، وصورة التشبيه فيه واضحة جليلة، جاءت لأسباب كثيرة، يحملنا على بيانها ما حمل الإمام ابن حجر العسقلاني على إيرادها، وذلك من قول الإمام الطيبي حول الحديث حيث يقول: «تحقق التشبيه الواقع في هذا الحديث يتوقف على معرفة معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وذلك أن حدود الله محارمه ونواهيه كما في الحديث الصحيح: «ألا إن حمى الله محارمه» ورأس المحارم حب الدنيا وزينتها واستيفاء لذاتها وشهواتها، فشبه ﷺ إظهار تلك الحدود ببياناته الشافية الكافية من الكتاب والسنة باستنقاذ الرجال من النار، وشبه فشو ذلك من مشارق الأرض ومغاربها بإضاءة تلك النار ما حول المستوقد، وشبه الناس وعدم مبالاتهم بذلك البيان والكشف، وتعديهم حدود الله وحرضهم على استيفاء تلك اللذات والشهوات ومنعهم إياهم عن ذلك بأخذ حجزهم بالفراش التي تقتحمن في النار وتغلبن المستوقد على دفعهن عن الاقتحام، كما أن المستوقد كان غرض انتفاع الخلق به من الاستضاءة وغير ذلك، والفراش لجهلهم جعلته سبباً لهلاكها، فكذلك كان القصد بتلك البيانات اهتداء الأمة واجتنابها ما هو سبب هلاكهم وهم مع ذلك لجهلهم جعلوها مقتضية لترديهم»[1].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز ج ١١ ص ٣١٩.

إنه تصوير من نوع التخيل الحسي الذي يجعل الحقيقة أشد قرباً للإنسان، والصورة مكتملة الأركان فأحداثها سريعة الحركات، تضعنا في حال المنفعل المشدود لما تشيعه من مصارعة ومغالبة وتقحم، ومدافعة للهاوين في النار ومنعهم من ذلك فلا يرتدعون وإنما يتفلتون حرصاً على الهلاك لجهلهم، ورحمة النبي ﷺ على أمته وشفقته عليهم تنبض من خلال الحديث.

كما أن التشبيه بالكاف جاء بعد التمثيل وهو ما يوحي بإبراز الهيئة التي عليها المشهد بروزاً أكثر واقعية لا مجال للتوهم فيها، كما أن الأفعال المضارعة تضيف إلى جو المشهد حضوراً أكثر، فلا يملك السامع إلا الانتباه، ولا يجد القلب إلا الدعاء، ولا يجد العقل إلا إمعان النظر، واستشعار قيمة هذا الترهيب من المخالفة بعد الإحساس بلهيب النار الموقدة ولفحها، واكتشاف جوانب الضعف في التركيب الإنساني وغلبة الهوى عليه، وانسياقه وراء ألاعيب الشيطان وحيله.

فهذا الحديث يلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحاً في المخاطر وجلاء في الذهن، لتستحيل أفكاره الهادية دماً خالصاً يترقرق من عروق المسلم، ونوراً يمتد في عقله وبصره، ونفساً يتردد في رئتيه، وذلك بعض ما يفيض البيان الساحر والأدب الرفيع.

كما أن هذا الحديث يشير إلى الصورة الكلية لا الجزئية وهذا أقدر لأن الصورة الكلية أشق تركيباً وأدل على المقدرة والافتنان من صورة جزئية تقع في تشبيه مفرد بمفرد، أو في استعارة تصريحية أو مكنية، ولسنا بذلك نضائل من القيمة الفنية للصور الجزئية فهي جهد أدبي له تقديره، لأن المجاز ـ أياً كان نوعه ـ يركز على أساس عكسي شاق وهو وضع صورة أو معنى أو حالة مكان شيء آخر، وإن من أعظم الأشياء كما قال أرسطو أن يمتلك زمام المجاز على وجه يبعث الانشراح، فحينما تكون في عقلنا فكرتان مختلفتان تعملان معاً تحت كنف عبارة واحدة، أو حينما ندرك شيئاً أو نحس به عن طريق شيء آخر يتسنى للأديب أن يبدع المجاز كما يريد،

فالحالة الأولى تتهيأ ـ مثلاً ـ حين يرى الأديب الفتاة في صورة قمر، والحالة الثانية تتهيأ حين يخلع على الشجرة أو الحيوان ببعض صفات الإنسان[1].

ومن هنا كان المجاز مجالاً لاندماج فكرتين تدل عليهما كلمة واحدة لا كلمتان ومرد ذلك إلى الخيال ثم إلى القدرة على الصياغة اللغوية، فالصورة البيانية كلية أو جزئية تحتاج إلى جهد لا محالة، ولكن الأديب المطبوع يسهل عليه منها ما لا يسهل على غيره ممن يتكلفون أوجه البيان على غير فطرة موهوبة، وإذا كانت العلاقة في التعبيرات المجازية قائمة على مدى الترابط بين الحقيقة والمجاز، فإن هذه الروابط قد تتشابك وتتعدد وتتكدس فإذا وفق الأديب في إيجاد انسجام قوي بين هذه الروابط المتشابكة بحيث تكون صورتها زاهية منسقة فقد بلغ التوفيق كما نرى في الصورة الكلية من البيان النبوي التي ألمعنا إليها بالشرح والتحليل، إذ إن هذه الصورة الواحدة تضم في إطارها شتيتاً من الصور المتناثرة، وقد خضعت إلى نظام من التناسق يؤلف بينها ويجعل منها خطوطاً ملتحمة لصورة واحدة ذات ملامح وسمات، وهذا بعض ما يشير إليه صاحب الأصول الفنية للأدب حين يقول: «إن الأعمال العقلية التكونية يمكن أن تستخدم فيها الروابط الضعيفة بين الأشياء لتحقيق الانتقال من فكرة إلى أخرى، وقد تتشعب هذه الروابط وتسلك ـ مسالك ملتوية فينشأ عن ذلك تكوينات وصور عقلية جديدة متكدسة، وعلى قدر هذا التكديس تكون غزارة الإشارات والمجازات وقوتها الشعرية، ولهذا يرى علماء البيان أن أقوى صور التشبيه والمجاز والاستعارة ما كان منتزعاً من متعدد سواء في طرفي التشبيه أو في وجه الشبه[2].

ولا يخفى علينا ما في هذا الحديث من موسيقا متغيرة الإيقاع، والموسيقا مظهر من مظاهر الفن القولي، تعرفها لغات العالم أجمع، ويعزى منبعها إلى البيئة والإنسان المتكلم بها، لأن اللغة وليدة حاجة الإنسان،

---

(١) الأصول الفنية للأدب، عبد الحميد حسن ص ١٠٨.

(٢) الأصول الفنية للأدب، عبد الحميد حسن ص ١٠٨.

والإنسان كائن يحكمه انتظام في كل ما يحيط به بدءاً بجسده حتى الكون المحيط به، فإن اللغة إيقاع يصاحب هذا الانتظام يحصل من حسن التوزيع ووحدة التناسق والانسجام.

وقد بين وأوضح صاحب كتاب التعبير الموسيقي المسلك الجامعة بين هذا النظام والإيقاع الموسيقي فقال: «... ولقد أدرك الباحثون وثوق الصلة بين الإيقاع الموسيقي وبين النظام الذي تسير عليه حركة الجسم والطبيعة، فللجسم حركات إيقاعية سريعة كالتنفس، بما فيه من شهيق وزفير، أو حركات بطيئة نسبياً كتعاقب الجوع والشبع والنوم واليقظة، وفي الطبيعة إيقاع ثنائي يتعاقب في الليل والنهار، وإيقاع رباعي تتعاقب فيه فصول السنة، ومن هنا قال كثير من الباحثين بأن الموسيقى أصلاً عضوياً أو طبيعياً، ما دامت الحركة الإيقاعية فيها ترديد الحركات مناظرة لها داخل الجسم الإنساني أو في الطبيعة الخارجية مما يؤدي إلى تكوين ما يمكن أن يسمى بالحاسة الإيقاعية لدى الإنسان وليس أدل على ذلك من أول استجابة للطفل أو للبدائي بإزاء الموسيقى، تكون استجابة إيقاعية، تتمثل في نوع من التمايل أو الرقص البسيط، من إيقاع الأنغام»[1].

واللغة العربية توصف بأنها لغة موسيقية، يعبر عنها الأستاذ العقاد بلفظ «اللغة الشاعرة» ويصفها بأنها «لغة بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي في جملتها في منظوم منسق الأوزان والأصوات، لا تنفصل عن الشعر في الكلام تألفت فيه ولو لم يكن من كلام الشعراء.

وهذه الخاصية في اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة، إلى تركيب مفرداتها على حدة إلى تركيب قواعدها وعباراتها، إلى تركيب أعاريضها وتفصيلاتها في بنية القصيدة[2].

ويرجع الدكتور إبراهيم أنيس موسيقية اللغة العربية في أغلب عناصرها

---

(١) التعبير الموسيقي فؤاد زكريا ص ٢٠، ٢١، دار مصر للطباعة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٥٦م.

(٢) اللغة الشاعرة: عباد محمود العقاد ص ٩، مكتبة غريب القاهرة.

إلى تلك الأمية حين كان الأدب الأذن لا أدب العين، وحين اعتمد القوم على مسامعهم في الحكم على النص اللغوي، فاكتسبت تلك الآذان المران والتميز بين الفروق الصوتية الدقيقة، وأصبحت مرهفة تستريح إلى كلام حسن وقعه أو إيقاعه، وتأبى آخر لنبو، أو لأنه كما يعبر أهل الموسيقا نشاز.

وكما تمرن الآذان في البيئة الأمية تمرن الألسنة أيضاً، فتنطلق من عقالها وقد اكتسبت صفة الذلاقة، فلا تتعثر أو تزل في أثناء النطق.

وتتعاون الأذن مع اللسان في تلك البيئة على إثارة العناصر الموسيقية من اللغة ونفي العناصر النابية والتخلص منها، ويؤدي هذا مع مرور الأيام - وبشرط أن تظل الأمة في نهضتها الاجتماعية والحضارية - إلى انسجام في أصوات الكلام وحركاته ومقاطعه ويقترب ذلك إلى نوع من الموسيقا والغناء[1].

ولعل هذا الانسجام والتوفيق في الجرس والنغمة والإيقاع الذي أصبح من خصائص اللغة العربية هو الذي ألفها على وحدة فنية ونفسية، وقد صح فيها ما قاله الأستاذ محمد المبارك: «ولو أنك حاولت نقل أي كلام عربي أو صفحة من كتاب إلى رموز موسيقية أو أوزان لوجدته يتركب من وحدات تتشابه وتختلف وتتكرر وتتناظر، ويتألف من مجموعها قطعة موسيقية»[2].

ولو تتبعنا مسار الأدب العربي لوجدناه حافلاً بموسيقا الألفاظ من كلمات مفردة أو جمل، أو قصائد أو من مقاطع القول المنشور، ولعل أبرز الظواهر في العصر الجاهلي ما تمثل في الشعر من التزام قافية موحدة للقصيدة، وفي ازدواج القافية في شطري مطلع القصيدة وفي التزام روي واحد في أواخر القوافي، كما نلاحظ هذه الموسيقا في الأسجاع التي تبرز

---

(١) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس ص ١٩٥، ١٩٦، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٧٢م.

(٢) خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد محمد المبارك ص ٣٨، مطبعة نهضة مصر - القاهرة ١٩٦٠م.

في الخطب والحكم والأمثال.

ومن أجل استحضار صورة قريبة لمكانة الألفاظ عند العرب وإدراكهم العلاقة الوثيقة بين نغم اللفظة ومعناها، تمييزهم العبارات بالفخامة والجزالة والخشونة والترف والرقة واللين، تذكر تشبيه ابن الأثير لألفاظ أبي تمام والبحتري حيث قال: «ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيالهم، واستلأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصغات، وقد تحلين بأصناف الحلي»[1].

ولو مضينا بعد ذلك إلى بيان النبي ﷺ نتملى فيه من هذه الأفانين لوجدناه حافل بما يهتم به الباحث المستقصي من نوادر فنون العربية في جميع مجالاتها وما عجب أن تكون للكلمة الأنيقة مكانها البارز في بيانها، كما لا عجب أن نجد الألفاظ وقد جاءت في أماكنها فأغنت المعنى، وزنا المعنى اللفظ حتى لو قلب القارىء نظره مرة ومرة بين هذا وذاك لأحسن حسن الواقع والموقع.

فهذا الحديث الذي نحن بصدده وهو ما رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجل يزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزهم عن النار وأنتم تقتحمون فيها[2].

فواضح أن موسيقا الحديث متغيرة الإيقاع، وهي من عمومها عنيفة لمناسبة الحديث، فالأمر حجز ومغالبة وتقحم، فالنبرات في الارتفاع، لأن المضمون يتطلب ذلك الارتفاع حتى يتوازى مع المعنى، والألفاظ فخمة

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ضياء الدين بن الأثير ج ١ ص ٢٨٧، منشورات دار الرفاعي بالرياض الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز ج ١ ص ٣١٦، وكذا صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ٤ ص ١٧٨٩.

تشتمل على حروف ما كانت لتجيء لولا المناسبة الخاصة التي استدعت وجودها، والتي يعبر عنها بالحروف الشديدة لتصلبها عضلي كحرف القاف مثلاً في قوله: «فيقتحمن» و «تقتحمون» وقد لا تؤدي لفظة آخرى ما تؤديه من قوة المعنى والجرس والإيقاع، وثمة كلمة أخرى هي قوله: «آخذ بحجزهم» إذ إن اللفظ هنا متجانس مع المعنى، مألوف في الحياة فعله، سعة النار وشدة حرها وبعد قعرها.

النار شاسعة، بعيد قعرها، مترامة أطرافها، فالذين يدخلون النار أعداد لا تحصى ومع كثرة عددهم فإن خلق الواحد منهم يضخم حتى يكون ضرسه في النار مثل جبل أحد ما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام، ومع ذلك فإنها تستوعب هذه الأعداد الهائلة التي وجدت على امتداد الحياة الدنيا الكفرة والعصاة والمجرمين على عظم خلقهم ويبقى فيها متسع لغيرهم، وقد أخبرنا الله عز وجل بهذه الحقيقة في سورة «ق» فقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وفي حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: «أنت رحمتي ارحم بك من أشاء من عبادي»، وقال للنار: «إنما أنت عذاب اعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلي حتى يضع رجله فتقول: قط قط قط فهنالك تمتلي ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشيء لها خلقاً[2].

ففي هذا الحديث النبوي الشريف فيه استعارة رائعة وهو استنطاق ما لا يعقل نطقه.

---

(١) سورة ق: الآية ٣٠.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ٨ ص ٥٩٥، وكذا صحيح مسلم ج ١٧ ص ١٨٢، وكذا مسند أحمد ج ١٤ ص ١٤٥.

فنرى أن الجنة تتكلم والنار تتكلم وهذا هو عمل الاستعارة نقل لما لا يعقل إلى عالم العقلاء في التصرف والأداء.

ومما يدل على غورها العميق وبعد قعرها ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة[1]، فقال النبي ﷺ: أتدرون ما هذا؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر رمي به في النار من سبعين خريفاً فهو يهوي في النار حتى انتهى إلى قعرها»[2].

ففي قوله ﷺ: «هذا حجر رمي به في النار من سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتى أنتهي إلى قعرها» كناية على عمق قعر جهنم، وهي كناية بعد وهي من المسافات الطويلة، سبعون عاماً والحجر يهوي في جهنم حتى يبلغ قاعها، إنها لمسافة بعيدة وغور غائر، أهل النار فيها يوم القيامة يعذبون في جنباتها ويهوون إلى هذه الأعماق السحيقة، ورسول الله ﷺ يبصر الناس بما سيكون ولعلهم يرعوون فيبتعدون عن هذا المصير المحزن ويستظلون برواية الحق والإيمان.

والنار في كل يوم تسعر زيادة في عذابهم، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم»[3].

يقول ابن حجر العسقلاني في قوله ﷺ: «من فيح جهنم» أي من سعة انتشارها وتنفسها، ومنه مكان أفيح أي متسع، وهذا كناية عن شدة استعارها، وظاهرة أي مثارة وهج الحر في الأرض من فيح جهنم حقيقة، وقيل: هو من مجاز التشبيه، أي كأنها نار جهنم في الحر والأولى أولى[4].

---

(١) وجبة: سقطة.

(٢) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ١٧ ص ١٧٩، وكذا الجنة والنار رأي العين جمال ماضي ص ٢٨ المدائن للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٣) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ١ ص ٤٣٠، وكذا فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ٢ ص ١٥.

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧.

هذه النار الملتهبة المستعرة المنتظرة المجرمين العاصين لأمر ربهم يزداد ألمهم وضيقها مما بها من قوة وشدة وتدافع، فاشتكت إلى خالقها أن يخفف مما بها، فقد ورد في سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فجعل لها نفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدون من الحر من سمومها[1].

## الجنـة:

فإذا انتهى الموقف، وأزلفت الجنة للمتقين. قدم لنا الأدب النبوي في وصف الجنة ما لا يسبقه في دنيا البيان غير وصف القرآن الكريم، وقد تحدث الرسول ﷺ عن الجنة بإسهاب شاف واف، وحديث الرسول ﷺ عن دار الثواب مما يتكرر في عظاته دون ملال، وهذا من البراعة أن يضطر الرسول إلى إعادة ما قال فما يسأم كما يسأم المعيدون، بل يحاول أن يظهر حديثه المعاد في ثوب بياني جديد، ليضيف بعض الطريف منه إلى تليد ما قاله، والإنسان منا يتضايق عادة حين يضطر إلى إعادة خطبة قالها أو صياغة مقال سبق أن نشره إذ يشعر في أعماقه أن السامع في موقف الخطبة، والقارىء في مجال المقالة سيتفقد الجديد دون أن يعثر عليه، ولكن الأديب الداعية المبين لديه ما يذهب عنه التضايق، فيعرض الحديث في ثوب أجمل وأبهج، هكذا كان المتكرر من أحاديث الجنة في بيان خاتم الأنبياء.

## الأوائل في دخول الجنة:

أول البشر دخولاً الجنة على الإطلاق هو رسولنا محمد ﷺ، وأول الأمم دخولاً الجنة أمته، وأول من يدخل الجنة من هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

روي مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٤٤.

«أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة»[2].

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل فأخذ بيدي، فأراني باب الجنة التي تدخل منه أمتي» فقال أبو بكر: يا رسول الله: «وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أما أنك يا أبي بكر أول من تدخل الجنة من أمتي»[3].

والجنة كلمة تحمل في طياتها كل معنى جميل يطوف بخاطر الإنسان، نسمع أن الجنة «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» هذه العبارة الذائعة الشائعة أثر من آثار الرسول ﷺ في وصف الجنة، وقد سارت مسير المثل شهرة واستفاضة، وهي على قلة ألفاظها لا تدع في النفس بعدها للمؤمن من أمل، فكل ما أمكن أن يتخيله التصور الإنساني من نعيم ومتعة يندرج تحتها لا محالة، وذلك بعض ما يعطيه الأدب البليغ إذ يشبع النفس امتلاء وارتواء بألفاظ معدودات، فلا شك أن شيئاً لم تره عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب إنسان أمر عظيم ففي هذا الحديث كناية عن عظم ما ادخره للمؤمنين في الجنة[4].

ومما لا شك فيه أن تفاوت درجات الإيمان بين المؤمنين له صلة بتقديم بعضهم على بعض فلكل مرتبة فضل ومكانة، والجنة درجات ولكل درجة أهل وسكان، ويجلي رسول الله ﷺ هذا الفضل فيمن يسبق بدخول الجنة بأوصاف تدل على أصحابها.

---

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ١ ص ١٨٨.

(٢) الجامع الصغير أبو عيسى محمد عيسى بن سورة الترمذي ج ٥ ص ٥٨٨.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري لابن حجر العسقلاني ج ٦ ص ٣١٨ وكذا صحيح مسلم ج ١٧ ص ١٦٦ وكذا سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٤٧.

(٤) البيان النبوي محمد رجب البيومي ص ١٥٤.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الإلوة ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشياً»[1].

وزاد مسلم: «فما بال الطعام».

قال: «جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس».

وفي رواية أخرى عند مسلم عن أبي هريرة أنه قال: إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على أضواء كوكب دري في السماء لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقها من وراء اللحم وما في الجنة أعزب»[2].

وفي رواية الترمذي: «على لون أحسن كوكب دري في السماء»[3].

ففي هذا الحديث الشريف يصف لنا الرسول ﷺ أول زمرة من المؤمنين تلج الجنة بأوصاف تليق بمن استحقوا هذه المنزلة العظيمة فشبه أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر وفي الحديث تشبيه آخر في قوله ﷺ: «قلوبهم قلب واحد» هذه الأمة المختارة تدخل الجنة على هيئة حسنة لطيفة تكريماً لها لما أحسنت في أولها فأنعم عليها ربها في آخرها.

والملاحظ في التشبيه عدم ذكر أداة التشبيه من قراءة الحديث أن الشيء واحد فلا فرق بينهم، إذ إنهم يكادون يكونون حقيقة القمر في ضيائه

---

(١) فتح الباري ج ٦ ص ٣١٨، وكذا صحيح مسلم ج ٣ ص ٣٤٩.

(٢) صحيح مسلم ج ١٧ ص ١٧٠.

(٣) الجامع الصغير للترمذي ج ٤ ص ٦٧٠.

ونوره ولالأته، وأن القلوب جمعت في قلب واحد من شدة الحب والصفاء والنقاء.

ولا يخفى علينا ما في هذا الحديث من كناية رائعة ففي قوله ﷺ: «يرى مخ سوقهما من وراء اللحم...» كناية عن درجة الصفاء والشفافية التي تتميز بها نساء الجنة من الحور العين.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً ـ أو سبعمائة ألف ـ لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»[1].

قال ابن حجر موضحاً قوله ﷺ: «لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم» هو غاية للتمسك المذكور والأخذ بالأيدي، وفي رواية فضيل بن سليمان، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وهذا ظاهره يستلزم الدور، وليس كذلك، بل المراد أنهم يدخلون صفاً واحداً فيدخل الجميع دفعة واحدة، ووصفهم بالأولية والآخرية باعتبار الصفة التي جازوا فيها على الصراط وفي ذلك إشارة إلى سعة الباب الذي يدخلون منه للجنة»[2].

ومما تحفظه كتب السنة أن الفقراء يسابقون الأغنياء على أبواب الجنة فيسبقونهم، فقد ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»[3].

وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام»[4].

---

(١) فتح الباري ج ٦ ص ٣١٩.
(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ١١ ص ٤١٤.
(٣) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٨٥.
(٤) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٤٣، ٥١٣، وكذا الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٥٧٧، ٥٧٨، وكذا سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٨٠.

وقد بين الرسول ﷺ في موضع آخر أن هؤلاء لم يكن عندهم شيء يحاسبون عليه، هذا مع جهادهم وفضلهم، أخرج الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فقال: فقراء المهاجرين، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحون فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم؟ فيقولون بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك قال: «فيفتح لهم، فيقيلون فيه أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس»[1].

وقد وقع في الأحاديث السابقة أن الفقراء يسبقون الأغنياء بأربعين خريفاً، وجاء في حديث آخر يحدد المدة بخمسمائة عام و «وجه التوفيق بين الحديثين أو الفقراء مختلفوا الحال، وكذلك الأغنياء، كما يقول القرطبي ـ فالفقراء متفاوتون في قوة إيمانهم وتقدمهم، والأغنياء كذلك فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولاً الجنة وآخر الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة خمسمائة عام، أما إذا نظرت إلى آخر الفقراء دخولاً الجنة وأول الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة أربعين خريفاً، باعتبار أول الفقراء وآخر الأغنياء»[2].

إخراج عصاة المؤمنين من النار وإدخالهم الجنة بالشفاعة: ويسمى أهل الجنة من يدخل الجنة بعد خروجهم من النار بالجهنميين والجهنميون هم من عصاة المؤمنين الذين أصابوا ذنوباً استوجب دخولهم النار، لا على سبيل التخليد فيها، وإنما هي معاصي يعاقبون عليها حتى إذا أذن الله سبحانه وتعالى بخروجهم، أخرجوا إلى الجنة تفضلاً من ربهم وتكرماً.

فعن عمران بن حصين رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يخرج

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ج ٢ ص ٥٣٢، نشر المكتب الإسلامي بيروت الطبعة.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص ٥١٠.

قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ، فيدخلون الجنة، يسمون الجهنميين»[1].

وروى الإمام البخاري أيضاً عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سفع، فيدخلون الجنة، فيسميهم أهل الجنة: الجهنميين»[2].

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يخرج[3] من النار بالشفاعة كأنهم الثعارير، قلت، وما الثعارير؟ قال: الضغابيس»[4].

فقد شبه هؤلاء القوم بالثعارير أو الضغابيس وهو ما شرح بأنه القثاء الصغار، وقيل: شبهوا به لأن القثاء سريع النمو ووصفت بأنها رؤوس الطراثيث تكون بيضاً، فشبهوا ببياضها، والطرثوث من النباتات الصحراوية التي تؤكل فهو تشبيه بشيء لا يخفى معناه على سامعيه والأعراب أكثر الناس معرفة بهذه الأنواع من النباتات وقد ورد في أكثر من حديث أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ويتجلى كرم الخالق جل وعلا، فيخرج من النار أقواماً ما كانوا ليعرفوا أن لهم في الجنة نصيباً بعد أن حم عليهم قضاء ربهم فدخلوا النار، وإن كانوا متعلقين برحمته لما لهم في الدنيا من حرب للشرك وأهله وبغض للأوثان وعابديها.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، قال أبو سعيد: فمن شك فليقرأ: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة»[5].

وفي حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من

---

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٤٨، وكذا سنن الترمذي ج ٤ ص ٧١٥.

(٢) فتح الباري ج ١١ ص ٤١٦.

(٣) أي قوم.

(٤) فتح الباري ج ١١ ص ٤١٦، والثعارير: قثاء صغار، والضغابيس جمع ضغوس: وهو نبت يخرج قدر شبر في دقة الأصبع لا ورق له، وفيه حموضة، والمقصود وصفهم بالبياض والدقة.

(٥) الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٧١٤، وقال: حديث حسن صحيح.

قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن برة ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»[1].

وفي باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار يروي مسلم عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الله أهل الجنة الجنة، يدخل من يشاء برحمته ويدخل أهل النار النار، ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون منها حُمماً قد امتحشوا، فيلقون في نهر الحياة أو الحيا فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية؟»[2].

فهذا الحديث الشريف فيه من التشبيهات الرائعة التي أثارت إعجاب السامعين فجعلت أحد الجالسين عندما سمع تشبيه رسول الله في قوله هذا قال: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية.

ويتردد هذا المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ لمن حوله من الصحابة في أكثر من حديث تقريباً للمفاهيم، فحميل السيل ونبت الحبة على ضفافه مألوف لديهم لارتيادهم مواقع المياه، ومشاهدتهم هذا المنظر المتكرر، فكان قريباً إليهم أن يتمثلوه في الذهن وأن يوضح الصورة الغامضة لقوم قد دخلوا النار فاحترقوا فكيف يكون لهم وجود إن خرجوا؟!

وسؤاله ﷺ: ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية، تأكيد للتشبيه وملاحظة الرجل وإعجابه بما ضربه الرسول مثلاً لحال هؤلاء القوم، يزيد التشبيه قوة لشدة ما يفقه معنى هذا التمثيل فيعجب به أن يكون مقرباً لأمر غيبي وبهذه الصورة الحاضرة الشاخصة أمام الناس ولا عجب فهذا شأن بلاغته ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٢، والترمذي ج ٤ ص ٧١١، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح مسلم ج ٣ ص ٤٥، وكذا المسند ج ٣ ص ٢٥، ٢٦.

ومن الملاحظ من هذا الحديث أيضاً أن رسول الله ﷺ قد استخدم في التصوير ما يقع تحت أعين القوم ويعرفونه تمام المعرفة كمثال الذرة وحبة الخردل وهو كناية عن القلة، ولا يجد القارىء صعوبة في فهم هذه النصوص أو ما ورد فيها على الرغم من تباعد الزمان وقصور الناس في إدراك مفاهيم اللغة، ولكن الرسول المعلم الذي ينتقي أجود الأساليب لإبلاغ رسالة الله إلى العالمين.

وفيض وجود الله عز وجل لا حد له، فإن كثيراً من مواقف القيامة تبعث في نفس المؤمن من العجب ما لا طاقة للنفس به ولا قدرة للعقل على تخيله، إذ أن إمكانية الخيال البشري بالنسبة لما عليه الآخرة ومواقفها قاصرة، لا يردع عوج التفكير فيها إلا إيمان الشخص وتسليمه لما سيكون أمام نصوص القرآن الكريم وما صح من حديث رسول الله ﷺ ووثقه العلماء بعد طول تمحيص ونظر.

وفي هذا الباب من جوده عز وجل قصة الرجل الذي يخرجه الله من النار ويدخله الجنة وهو ما سمي في كتب الحديث «باب آخر أهل النار دخولاً» كما عند الإمام مسلم، قصة عجيبة تبدأ بالمشهد كأنه حاضر ملموس، تتملاه العين، وتفزع من هول ما تراه القلوب. لأن الصورة المرسومة تمتلي بالحيوية ونضج الحركة، إنها صورة رجل متعجل، هارب من مطاردة النار له، فهو يمشي ولكن مشي الخائف الوجل لا يكاد يسير حتى يسقط على وجهه، والنار من خلفه وأمامه تكمل المشهد المروع فتصلي وجهه بشواظها وهو يترنح ويبتغي الخروج حتى يأذن الله بنجاته من الكرب الذي هو فيه.

إنه مشهد حي، أعانت الألفاظ على تصويره بهذه الحيوية، وتتابع الأفعال المضارعة ساعد على إعطاء الحركة السريعة الذي دل عليها التعثر والسقوط، فأسر المخل السامع ووضعه في موضع المتابع المشدود لتتم له معرفة مصير هذا الرجل المحظوظ الذي أنقذه الله من النار.

فهي قصة لطيفة العرض، مؤنسة الحوار، يشعر المرء إزاءها بعظمة

الخالق وتلطفه العظيم بالعبد الذليل الصغير، والعجب منها لا ينقض، فالرب يدير حواراً مع العبد وليس هذا العبد من المتقدمين في العمل، بل هو آخر من ينظر إليه، وهذا الحوار الذي يجري بين الخالق والمخلوق إنما يبين عن فضل وكرم لا يمثل لهما شيء.

وأنى لكرم الباري وفضله أن يشبه بهما شيء، مما يألفه الناس، فقد عبر رسول الله عن أعمق المعاني النفسية بين البشر عن طريق الحوار تعبيراً لم يدع مزيداً لمستزيد، والحوار فن أدبي له أساتذته وأعلامه، وهي في مشاهد القيامة لقطات تصويرية بارعة تكتفي باللمح والرمز والكناية عن الكشف الواضح بالتصريح.

وذلك ما يكسب الموقف متعة وعمقاً لأن الحوار إذا تحدث عن كل شيء ولم يترك القارىء أن يستشف ويستنتج فقد أوثق أمامه عالم التصوير، وقيد أساسه بالمنظور الملموس أما إذا مال إلى الإيماء والرمز فقد أعطى للقارىء الناصح مفتاحاً يلج منه عشرات البهاء ومئات الحجر ليرى في كل زاوية ما يصوره خياله من لوامع وإيماض ولك أن تنظر إلى هذا المشهد الأخروي كما رسمه الرسول ﷺ.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشيء مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منها، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: يا رب، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا، يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، قال: وربه عز وجل يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها واستظل بظلها، لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا

يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، ويستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين، فيقول أي رب، أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليها، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها، فيسمع أصوات أهل الجنة. فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك؟[1] أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزىء مني وأنت رب العالمين».

فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: «من ضحك رب العالمين حين قال أتستهزىء مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزىء منك، ولكني على ما أشاء قادر»[2].

فهذا المشهد الرائع له أكثر من دلالات، فمع دلالاته على سعة عفو الله ورحمته فإنه بجوار العذاب يرمز إلى تجدد الآمال في النفس البشرية حتى في الآخرة ويعالج واقعاً محسوساً لدى الإنسان في كل عصر وفي كل مكان، ألا يتمنى الإنسان شيئاً فإذا حققه صبا إلى ما فوقه فإذا حققه تجدد الصبوء إلى شيء آخر، وهكذا نظل في سباق مع الأماني حتى تنفذ الآخرة.

هذه الحقيقة الإنسانية الخالدة المتكررة قد أفصح عنها الحديث فكانت بإحدى دلالاته الرمزية الكبيرة بمغزاها العريق، أما اختيار الألفاظ لرسم المعاني فلا أبدع منها ولا أروع، هذا الرجل الذي خرج من النار مستغيثاً صارخاً رأيناه يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه للأولين

---

(١) ما يصريني منك: معناه ما يقطع مسألتك مني.

(٢) صحيح الإمام مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ١ - ص ١٧٤، ١٧٥.

والآخرين، ألا يذكرنا هذا المشهد بما نشاهده في حياتنا إذ يخرج الإنسان من أحد مآزقه كأن ينجو من حادث أو سجن حكومي أو استجواب في محكمة فلا يكاد يصدق أنه خرج، فهو يلتفت ويكبو ويتعثر حتى إذا شم ريح الحرية في الحياة الفصيحة عد نفسه ذا شأن كبير جداً بحريته التي ردت إليه، فيقول لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه للأولين والآخرين، أما تدرج الآمال من الصغير إلى الكبير ثم إلى أكبر حتى يصل بصاحبها إلى منتهى الآمال في الجنة، فذلك ما أجاد الحديث النبوي الشريف تصويره فمن مبلغ عشاق الأدب الرفيع في كل أمة وفي كل لغة أن لدينا من فوائد المشاهد الأدبية في آثار النبي ﷺ ما نعجز أن نراه لدى أكبر مشاهير الأدباء والكتاب.

## صفة الجنة:

نعيم الجنة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الجنة، ومهما ترقى الناس في دنياهم، فسيبقى ما يبلغونه أمراً هيناً بالنسبة لنعيم الآخرة.

ووصف الجنة نستقيه من القرآن الكريم حينما نقرأ آيات النعيم وما أعده الله للمتقين ويبسط الأمر للناس، رسول الله ﷺ حينما يسأله أصحابه الكرام عن شيء لا يجدون له ذكراً في القرآن الكريم، فيحدثهم حديث الموحى إليه من ربه لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن بناء الجنة، فأسمعنا الرسول ﷺ في الإجابة وصفاً عجباً، يقول عليه السلام في وصف بنائها: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة ملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها الياقوت واللؤلؤ، وترابها الزعفران، من يدخلها يخلد فيها، ينعم لا ييأس ولا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٤٤٥، دار الفكر ـ بيروت، وكذا الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٧٢.

وما أخفاه الله عنا من نعيم الجنة شيء عظيم لا يدركه العقول ولا تصل إلى كنهه الأفكار، فقد روى أبي هريرة عنه قول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ذخراً، بله ما أطلعكم الله عليه، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

## أبـواب الجنـة:

للجنة أبواب يدخل منها المؤمنون كما يدخل منها الملائكة وعدد أبوابها ثمانية، ولكل أهل عمل باب يدعون بذلك العمل، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله، هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة، دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد، دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة، دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام، دعي من باب الريان»، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[2].

وفي الحديث حث على أعمال البر والتصدق، وفيه ترغيب في دخول الجنة من خلال أعمال الخير، فسؤال أبي بكر يريد به شخصاً اجتمعت فيه خصال الخير، من صلاة، وصيام، وصدقة، وجهاد ونحو ذلك، بحيث يدعى من جميع تلك الأبواب ولأمر يعلمه الله كان للصيام من المكانة ما جعل له باب خاصاً لا يدخله إلا الصائمون واسمه الريان وقيل إنه سمي بذلك تنبيهاً على أن العطشان بالصوم في الهواجر سيروى، وعاقبته إليه.

روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة باب يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا

---

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ٢ ص ٢١٧٤.

(٢) صحيح الإمام مسلم ج ٢ ص ٧١١.

يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد»[1].

وطبيعي أن لا يكون باب الجنة مما نألف من الأبواب، إذ لكل شيء ما يليق به ويناسبه، وعظم الجنة التي لا يعلمها بشر يستوجب أن تكون أبوابها مما لا يمكن تصور أحجامها، وقد ورد في كتب السنة ما يقرب الأفهام من حساب الناس ذلك الاتساع فيما بين مصراعي باب الجنة.

ورد في صحيح الإمام مسلم عن عقبة بن غزوان قال: «ولقد ذكرنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليها يوم القيامة وهو كظيظ من الزحام»[2].

## درجات الجنة:

الجنة درجات بعضها فوق بعض، وأهلها متفاضلون فيها بحسب منازلهم فيها وقد حث النبي ﷺ الصحابة على بذل ما يبلغون تلك الدرجات العاليات.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة ـ أراه قال: وفوقه عرش الرحمن ـ ومنه تفجر أنهار الجنة»[3].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، لابن حجر العسقلاني ج ٤ ص ١١١، وكذا صحيح مسلم ج ٢ ص ٨٠٨.

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٨، وكذا مسند أحمد ج ٤ ص ١٧٤.

(٣) فتح الباري ج ٦ ص ١١، قال ابن حجر: «وقوله: أوسط الجنة وأعلى الجنة المراد بالأوسط هنا الأعدل والأفضل كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فعلى هذا=

ويصف الرسول الكريم ﷺ نظر أهل الجنة إلى من منحهم الله سكن الغرف العالية بما أتوا من أعمال فمن الله عليهم بهذه الدرجات كأنهم ينظرون إلى كوكب بعيد، وذلك لما بين أهل الجنة من التفاضل، فعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر[1] في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[2].

وثبت في الصحيح أيضاً عن أنس رضي الله عنه أن أم حارثة أتت رسول الله ﷺ وقد هلك حارثة يوم بدر، أصابه سهم غرب، فقالت: يا رسول الله قد علمت موقع حارثة من قلبي، فإن كان في الجنة لم أبك عليه وإلا سوف ترى ما أصنع، فقال لها: «هبلت، أجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في الفردوس الأعلى»[3].

## الوسيلة:

أعلى منزلة في الجنة ينالها شخص واحد تسمى الوسيلة، وسينالها ـ إن شاء الله ـ النبي المصطفى المختار خيرة الله من خلقه نبينا محمد ﷺ، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتي محمداً

---

= فعطف الأعلى عليه للتأكيد، وقال الطيبي: المراد بأحدها العلو الحسي وبالآخر العلو المعنوي، وقال ابن حبان: المراد بالأوسط السعة وبالأعلى الفوقية انظر فتح الباري ج ٦ ص ١٣.

(١) الغابرة: الذاهب أو الباقي، فإن غبر من الأضداد، يقال: غبر إذا ذهب وغبر إذا بقي، ويعني به أن الكوكب حالة طلوعه وغروبه بعيد عن الأبصار فيظهر صغيراً لبعده.

(٢) فتح الباري ج ٦ ص ٢٢٠، وكذا صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧٧، وكذا الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٩٠.

(٣) فتح الباري ج ١١ ص ٤١٨، وكذا مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٢١٠.

الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[1].

وقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن هذه الوسيلة التي جعل الرسول ﷺ ثمن من يسأل الله أن تكون لرسوله ونبيه محمد شفاعته يوم الزحام، فقالوا: وما الوسيلة؟، قال: أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون هو»[2].

وممن رفع الله درجتهم في الجنة كافل اليتيم، وأنزله الرسول ﷺ من نفسه منزلة قريبة جداً، فعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «كافل اليتيم له ولغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة، وأشار مالك بالسبابة والوسطى»[3].

إن من أعلى أمنيات المسلم رؤية رسول الله ﷺ، ومن أمنياته بعده عن مواطن العذاب والقرب من موارد النعيم، فكيف إذا كان رفيق رسول الله ﷺ في جنة رب العالمين؟ إن أسلوب الترغيب في الحديث جاء بصورة تشبيهية رائعة، فلم تقتصر المسألة على دخول الجنة وإنما استخدم الإشارة بالأصابع للدلالة على مدى القرب المتوقع وهو تأكيد على قرب المنزلة، لعظيم أجر كافل اليتيم، ومكانة العمل الخيري في المجتمع المسلم وشدة ترابطه، فما يضيع فيه من فقد أبويه أو الأهل جميعاً.

وقال ابن حجر شارحاً هذا الحديث متأملاً فيه: لعل الحكمة في أن كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة أو شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي ﷺ أو منزلة النبي لكون النبي شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلاً لهم ومعلماً ومرشداً، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه، ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه، فظهرت مناسبة ذلك»[4].

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٤، وكذا مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٥٤.
(٢) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٦٥، كذا الجامع الصحيح للترمذي ج ٥ ص ٥٨٦.
(٣) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٨٧.
(٤) فتح الباري ج ١٠ ص ٤٣٧.

أما الدكتور كمال عز الدين فينظر إلى الحديث من وجهته البلاغية فيجذب انتباه هذا التشبيه الرائع في وصف الرسول ﷺ لكافل اليتيم بهذه الطريقة التمثيلية ويرى أنه جاء «ليلفت الأذهان بشدة إلى الصورة الشاخصة القريبة من العين، المرافقة للنطق وهي السبابة والوسطى، الممتدتان مع قبض غيرهما لتمام التمييز، والمتفرق بينهما لكمال تمكن النظر، ولتأكيد رؤية الجوار بلا فارق حسي، وتقرر مشاهدة الأصل الذي يستقي منه، وإلى طفولة النبي ﷺ وحبه المكافيء للكافلين، وفاء لما شاركوا في بذل ورأفة بمن شاركوه في الفقد»[1].

## أنهار الجنة

فقد حدثنا الرسول ﷺ عن أنهار الجنة حديثاً واضحاً بيناً ففي إسرائه صلوات الله وسلامه عليه روى الإمام مسلم في صحيحه قال: وحدث نبي الله ﷺ أن رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان، فقلت: «يا جبريل، ما هذه الأنهار؟ قال: أما النهران الباطنان فنهران الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»[2].

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والفران والنيل كل من أنهار الجنة»[3].

ومن أنهار الجنة الكوثر الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾[4] وقد رآه الرسول ﷺ وحدثنا عنه، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة، إذ أنا أسير في الجنة، إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر والمجف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبه ـ أو طينه ـ مسك أذفر»[5].

---

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية كمال عز الدين ص ١٥٩.

(٢) فتح الباري ج ١٠ ص ٧٠.

(٣) سورة الكوثر: الآية ١.

(٤) فتح الباري ج ١١ ص ٤٦٤، ومسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٠٣.

وقد ساق الحافظ ابن كثير روايات أخرى كثيرة في الموضوع فارجع إليها إن شئت المزيد[1].

وأنهار الجنة ليست ماء فحسب، بل منها الماء، ومنها اللبن، ومنها الخمر، ومنها العسل المصفى.

ففي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد»[2].

ومن الملاحظ أنه لا يرد شيء في الحديث النبوي الشريف عن العيون، وإن كانت قد وردت في القرآن الكريم كما سبق أن بينا بأوصافها الواضحة كعين الكافور[3] وعين التسنيم[4]، وعين السلسبيل[5].

## قصور الجنة وخيامها:

فقد وصف رسول الله ﷺ هذه القصور أو الغرف للمؤمنين ليتأملوا في معانيها ويتفكروا في أشكالها وألوانها، فما تزال كلمة الغرف تصور لهم واقعاً محدداً قد لا يتجاوز تفكيرهم فيه ما يعرفونه ويشاهدونه.

وروى أحمد في مسنده والترمذي عن أبي مالك الأشعري وعلي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعد الله عليها لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[6].

---

(١) النهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٤٦.
(٢) الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٩٩.
(٣) سورة الإنسان: الآيتان ٥، ٦.
(٤) سورة الإنسان: الآيتان ١٧، ١٨.
(٥) سورة المطففين: الآيات ٢٢ ـ ٢٨.
(٦) الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٧٣، ومسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٣٤٣.

أما خيام أهل الجنة فقد وصفها الرسول ﷺ فيما رواه البخاري عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤ مجوفة عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون»[١].

وفي رواية أخرى: «في الجنة خيمة من لؤلؤ مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن»[٢].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن صفات قصور بعض أزواجه وبعض أصحابه منه ما ورد من حديث عن وصف قصر لخديجة أم المؤمنين، فعن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام وطعام، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[٣].

للجنة رائحة عبقة زكية تملأ جنباتها، وهذه الرائحة يجدها المؤمنون من مسافات شاسعة، وقد ورد في قصص الصحابة وفي السير أنهم عندما كانوا على أبواب الشهادة يرددون أنهم يجدون ريح الجنة، وقد ذكرت مراراً وفي مناسبات متعددة[٤].

روى أبو سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير بين يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[٥].

---

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٦٢٤.
(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٢، وكذا الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٧٣.
(٣) فتح الباري ج ٣ ص ٦١٥، وكذا صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٨٧، وكذا مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٠٥.
(٤) فتح الباري ج ٦ ص ٢١، وذلك عندما ما قال أنس بن النضر لسعد بن معاذ في يوم أحد: «الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد».
(٥) فتح الباري ج ١٣ ص ٤٨٧، وكذا صحيح مسلم ج ١٧ ص ١٦٧، وكذا الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٨٩.

يقول ابن أبي جمرة: «والحكمة في ذكر دوام رضاه بعد الاستقرار أنه لو أخبر به قبل الاستقرار لكان خيراً من باب علم اليقين، فأخبر به بعد الاستقرار ليكون من باب عين اليقين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1] ويقول: «وفي الحديث دليل على رضا كل من أهل الجنة بحاله مع اختلاف منازلهم، وتنويع درجاتهم، لأن الكل أجابوا بلفظ واحد وهو: «أعطيتنا ما لم تعط أحد من خلقك»[2].

والنظر إلى وجه الله تعالى من المزيد الذي وعد الله به المحسنين ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾[3]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[4].

ولقد فسرت الحسنى بالجنة، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، ويشير إلى هذا الحديث الذي رواه مسلم عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: «يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب من النظر إلى ربهم عز وجل»[5].

وفي رواية الترمذي اختلاف يسير، فعن صهيب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[6] قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادى مناد: إن لكم عند الله موعداً، فقالوا: ألم تبيض وجوهنا وتنجنا من النار وتدخلنا الجنة؟ قالوا: بلى، قال: فيكشف الحجاب، قال: «فالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»[7].

ومن أحاديث الرؤية حديث أبي هريرة: أن ناساً قالوا: يا رسول الله،

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٧.
(٢) فتح الباري ج ١٣ ص ٤٨٨.
(٣) سورة ق: الآية ٣٥.
(٤) سورة يونس: الآية ٢٦.
(٥) صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٣.
(٦) سورة يونس: الآية ٢٦.
(٧) الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٨٧.

هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ فقالوا: «لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك»[1].

وحديث جرير بن عبد الله البجلي قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: «إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته»[2].

والله سبحانه لا يستطيع بشر أن يراه في الدنيا لا لامتناع الرؤية وإنما لعجز الأبصار، هذه الشمس إذا حدق الراءي البصر في شعاعها، ضعف عن رؤيتها، لا لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة، أكمل الله قوى الآداميين حتى أطاقوا رؤيته»[3].

أما عن تشبيه رؤية الله سبحانه وتعالى بالشمس والقمر فليس ذلك تشبيهاً لله بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالرائي، ولكن فيه تشبيه على علو الله على خلقه[4] فإذا كان القرآن الكريم قد صور لنا اليوم الآخرة تصويراً دقيقاً فإن الحديث النبوي الشريف قد أعطانا تفصيلاً توضيحياً لما يتعاقب في أذهان التالين للقرآن الكريم والسامعين لشروحه وتفسيراته، فاستكملت الصورة وبدت شديدة البروز لأتلفها شبهة أو يعتريها غموض.

هذا قليل من كثير مما نضح به أدب محمد بن عبد الله من مطارف زاهية على البيان فإذا كان أسلوب القرآن الكريم معجزة، فأسلوب الحديث

---

(١) فتح الباري ج ١٣ ص ٤١٩، وكذا صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٣، ١٦٤، وكذا الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٨٨، **وكذا مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٧٥، ٢٩٣، ٣٦٨، ٥٢٤.**

(٢) فتح الباري ج ١٣ ص ٤١٩، وكذا صحيح مسلم ج ١ ص ٤٣٩، وكذا الجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ٦٨٨، وكذا سنن أبي داود ج ٢ ص ٥٣٥، وكذا سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٣، وكذا مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ج ١ ص ٢٢٠.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١٩.

الشريف مبدع والفروق بين الأسلوبين أوضح من أن يدل عليه، وقد أجاد أستاذنا العالم المفكر الدكتور «محمد عبد الله دراز» حين أجمل القول عن الأسلوبين بقوله: «ونحن نرى الأسلوب القرآني فنراه ضرباً وحده، ونرى الأسلوب المحمدي فنراه ضرباً وحده، ولا يجري مع القرآن في ميدان إلا كما تجري محلقات الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعوداً، ثم ترى أساليب الناس على اختلافها ضرباً واحداً لا تعلو عن سطح الأرض، فمنها ما يحبو حبواً ومنها ما يشتد عدواً ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه السيارات الأرضية إلى تلك السيارات السماوية، نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوي فتحاول اقتناصها كما تطمع في اقتناص الطائر أو مجاراته، ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها، أمن كلمات النبوة، أم من كلمات الصحابة، أم من كلمات التابعين، أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعاً لا يلتبس معه غيره ولا يجعل طامعاً يطمع في أن يحوم حول حماه»[1].

هذا التحديد القاطع الذي وضحه أستاذنا الدكتور «محمد عبد الله دراز» قد أوضح الفوارق بين أسلوب القرآن المعجزة، وأسلوب الحديث المبدع، وليس هذا ما يدرك منه رائحة الانتقاص للبيان النبوي في شيء، إذ أن البيان النبوي شعاع من شمس القرآن، يترسمه ويستهديه ثم لا يحاول اللحاق به إذ كان تنزيلاً من حكيم عليم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أما محمد فهو وإن كان خاتم الأنبياء يعترف بأنه بشر يوحى إليه، وهذا القول لا يصدر عن إنسان يدعي ما ليس في طوقه بل يقوله عليه السلام مؤكداً طابع البشرية في نفسه.

وحسبه أن يكون بيانه أرقى بيان بشري وأن المبدعين من بني الإنسان إذا قيس ببيانهم، جاء أدبه النبوي مجلياً وجاءوا لاحقين.

---

(١) النبأ العظيم محمد عبد الله دراز ص ١٠٦ ـ القلم ـ الكويت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

هذا التحديد الذي وضحه الدكتور «محمد عبد الله دراز» قد أشار إلى مضمونه الأستاذ «مصطفى صادق الرافعي» بأسلوبه القوي المفحم حين قال هذا المجال.

«على أن أعجب شيء أنك إذا قارنت الكلمة من تلك البلاغة «النبوية» إلى مثلها مما في القرآن، رأيت الفرق بينهما في ظاهرة كالفرق بين المعجزة وغير المعجزة سواء، ورأيت كلامه ﷺ في تلك الحال خاصة مما يطمع في مثله، وأحسست أن بين نفسك وبينه صلة تطوع لك القدرة عليه وتمد لك أسباب المطمعة فيه، بخلاف القرآن فإنك تستيئس من جملته، ولا ترى لنفسك إليه طريقاً البتة، إذ لا تحس منه نفساً إنسانية، ولا أثراً من آثار هذه النفس، ولا حالة من حالاتها حتى تأنس إلى ذلك على التوهم، ثم تتوهم الطمع والمعارضة من هذا المؤانسة فتمض عزمك وتقطع رأيك، وتبت القول فيه ـ كما تكون لك قراءة الكلام الإنساني فإن جميع هذا الكلام الأدبي منهاج ولجملته طريق، وحدود البلاغة التي تفصل بعضه عن بعض كلها مما يوقف عليه بالحس والعيان، يقدر فرق ما بين بعضها إلى بعض مهما بلغ من تفاوتها واختلافها في السبك والصنعة والغرابة.

بيد أن ذلك مما لا يستطاع في القرآن ولا وجه إليه بحال من الأحوال فما هو إلا أن تقرأ الآية منه حتى تراها قد خرجت من حد المألوف، وانسلت منه وفاتت سمت ما قدرت لها من مطلع ومقطع، فمهما وجدت لا تجد سبيلاً إلى حدها، ومهما استطعت لا تستطيع أن تقرن بها كلاماً تعرف حده في البلاغة، إن لم يكن بالصنعة فبالحس»[1].

إننا نعلم ما للقرآن الكريم من جزالة وإيجاز في أسلوبه الذي إذا قارنه بأروع أسلوب نطق به عربي، وهو أسلوب أفصح من نطق بالضاد، سيد المرسلين محمد بن عبد الله، الذي شهد ببلاغته وفصاحته أعداؤه قبل أنصاره، فإذا عقدنا مقارنة بين القرآن والسنة النبوية. نجد الفرق شاسعاً

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي ص ٣٣٢، دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان الطبعة الثامنة.

والبون بعيداً، كالفرق بين السماء والأرض، فبلاغة القرآن ونضارته وإشراقته في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ولنضرب مثلاً على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، تأمل قوله ﷺ في صفة الجنة ـ وما فيها ـ من نعيم وخلود.

فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1] وقارن بين هذه الألفاظ على روعتها وبين قوله تعالى في وصف نعيم أهل الجنة ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[3] فهذا أعدل وزناً وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأجزل عبارة، وأقل حروفاً.

وكذلك إذا ما قارنا بين سائر أقواله ﷺ وبين القرآن الكريم نجد أن كلام الرسول على بلاغته وفصاحته لا يخرج عن كونه كلام بشر في الذروة العليا من الكلام، أما كلام الله تعالى فلا يشبهه كلام لأنه كلام خالق البشر.

وقد سبق أن بينا في الفصل السابق أن القرآن الكريم لم يكتف برسم المناظر المحسوسة، ولكنه أضاف إليها مشاهد الحوار والجدل والنقاش في الجنة والنار، فساعد على إكمال صورة حية تجيش بالحركة، والخصام والجدل، وتقف بالقارىء على صورة حقيقية لما سيكون، إذ يرى المشهد المؤثر، ويسمع الرد المحتوم والجواب الثاقب، ثم يصل إلى العاقبة الهائلة حين يرى المتخاصمين قد كبكبوا في نار جهنم فقد أفاض القرآن الكريم في عرض مشاهد اليوم الآخر على نحو ما بينا ولكننا هنا نستشهد بمنظر قرآني واحد لأهل النار نجعله تمهيداً كاشفاً لما سيجيء من مشاهد اليوم الآخر في أدب الرسول ﷺ.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ٦ ص ٣١٨، وكذا صحيح مسلم ج ١٧ ص ١٦٦، وكذا سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٤٧.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٧١.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٧.

إن الكافرين ليحشرون في جهنم أفواجاً خلف أفواج، وإن القادمين لينظرون إلى المقيمين في تلدد وغيظ وإذا كانوا مصدر نكبتهم حين أغروهم بالكفر وصدوهم عن الإيمان وأن النظرات لتتبادل في غيظ محنق، وإن الحوار والنقاش ليحتدم في كراهية، ولدد، وإن القرآن الكريم ليبدع في تصوير ذلك المشهد حين يقول: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾[1].

هذا النمط المعجز من الوحي الإلٰهي قد سار البيان المبدع من القول المحمدي على هديه، فجاء بكثير من الصور الزاهية، والمشاهد الرائعة ليوم القيامة.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن كلام محمد ﷺ على إبداعه لا يمكن أن تشتبه كلام القرآن على إعجازه، ومن يقرأ القرآن قراءة منصفة لا يميل إلى الهوى ثم يقرأ الحديث النبوي قراءة منصفة لا يميل إلى الهوى كذلك، وكان لديه أقل معرفة بأساليب الفصحى ونمطها البلاغي لن يقول أن القرآن صادر عن محمد، فبينه وبين كلام محمد ﷺ بون شاسع.

وليس معنى هذا أن يظن أحد أننا بهذا الكلام نحاول أن نغض قليلاً من البيان النبوي، فالأدب النبوي أرفع أدب بشري تحدر عن لسان ناطق، وله طابعه الإنساني الناطق بكل ما يمس الإحساس البشري الراقي من مؤثرات، كما أن البيان القرآني طابعه الإلٰهي الذي ينطق بعظمة الله وسيطرته وقدرته وجبروته.

وإن اختلاف الطابعين على أصالة الأسلوبين كل في بابه.

---

(١) سورة ص: الآيات ٥٩ ـ ٦٤.

## عذاب جهنم:

إلى جانب ما عبر عنه القرآن الكريم من فظائع عن النار وما ينال الكفار والعاصين منها من عذاب أليم، كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عن النار ورسول الله ﷺ يجيبهم مقرباً إلى أذهانهم صفة هذه النار.

ففي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ناركم هي التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم، قالوا: «والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها»[1].

وكان رسول الله ﷺ ينذر أمته في كل آن من الغفلة، حتى لا يردوا مواطن الهلاك، وكان ﷺ رؤوفاً بالمؤمنين، مشفقاً عليهم، حتى إنه ليمهد لنفسه من أجل إنقاذ مسلم من النار، وفي الحديث الذي رواه الإمام الدارمي في مسنده عن النعمان بن بشير ما يؤكد هذا الوجه، قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب فقال: «أنذركم النار، أنذركم النار، أنذركم النار» فما زال يقولها حتى لو كان في مقامي هذا لسمعه أهل السوق حتى سقطت خميصة كانت عليه عند رجليه»[2].

إنه ﷺ يضرب الأمثال ليكونوا على علم بما سيكون في عالم الغيب الذي لا يشهدون، ويمثل لهم دوره في منعهم عن النار، وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها فأنا آخذ بحجزكم[3] وأنتم تقحمون فيها»[4].

وفي رواية أخرى: إنما مثلي كمثل رجل استوقد فلما أضاءت ما حوله

---

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ١٧ ص ١٧٩، وكذا الجامع الصحيح، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ج ٤ ص ٧٠٩.

(٢) سنن الدارمي: ج ٢ ص ٢٣٧.

(٣) الحجز: جمع حجزة وهي معقد الإزار.

(٤) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ٤ ص ١٧٨٩.

جعل الفراش وهذه الدواب يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيقحمن فيها، قال: «فذلكم مثلي ومثلكم وأنا آخذ بحجزكم من النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني تقتحمون فيها»[1].

وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجل يزعهن ويغلبه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها[2].

إن أسلوب الترغيب والترهيب في هذا الحديث جاء بصورة تشبيهية رائعة، إن إطار هذه الصورة هو دعوة الحق وهل دعوات السماء إلى أهل الأرض إلا هذه الصراعات المستمرة بين الخير والشر، بين أتباع المنهج الإلٰهي وبين أنصار الشياطين، وهل تزيد الدنيا بشهواتها ولذائذها ومتعها، على تزين الشياطين المعاصي للعباد، فينجرفون وينحرفون، ويتجنبون الطريق السوي، ودعاة الهدي على كل باب ينصحون فلا يسمع أكثر الناس الدعاء، وإنما يعنقون لغيهم ويسترسلون في لهوهم.

## أهل النار:

أهل النار الخالدون فيها الذين لا يرحلون ولا يبيدون - هم الكفرة والمشركون.

فقد ورد في صحيح الإمام مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا، فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، ويقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيؤمر به فيذبح قال: «أهل الجنة خلود لا موت، ويا

---

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٧٨٩.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري وتحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز ج ١١ ص ٣١٦، وكذا صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ٤ ص ١٧٨٩.

أهل النار خلود فلا موت، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]»[2].

ففي هذا الحديث استعارة واضحة، فالموت يأتي به على هيئة معرفة وهي الكبش فيعرفه أهل الجنة وأهل النار ثم يوقف فيذبح، وكلها استعارات مأنوسة ومألوفة ومعهودة لا تخفى على السامع وهي مشاهدة في حياتهم، كما أن هذا الحديث فيه تشبيه سنزع من البيئة، فكما ينحر الكبش بين يدي الإنسان، فإن الموت يقضي عليه كما يقضي على الكبش فينتهي هذا الذي يهدد الحياة، أو يفقده بحس الإنسان بأن الموت لن يدهمه أو يعكر عليه صفو عيشه، ولا شك أن الكافر لا يتمنى هذا المشهد يوم القيامة لأنه يتمنى الموت خلاصاً من العذاب[3].

## كثرة أهل النار:

الناظر إلى الحياة من حوله، خاصة في زماننا هذا، يجد أن الناس يتجهون وجهه غير ما يهدي إليه السماء، وتغرقهم وشتاتهم وأتباعهم للمذاهب الأرضية الباطلة يبعد وينأى بهم عن صراط الله المستقيم الذي حوته الكتب السماوية المنزلة، وتضمنته الدعوات التي حمل بلاغتها الأنبياء والرسل.

وهناك أحاديث كثيرة تدل على كثرة أهل النار، من ذلك ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من

---

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٨.
(٢) سورة مريم: الآية ٩.
(٣) البيان النبوي محمد رجب البيومي ص ٢٢٣، دار الوفاء المنصورة الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ: من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وأني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا»[1].

ففي هذا الحديث تشبيه واضح، ملموس في الحياة من حولهم فقد وصف النبي ﷺ أمته في وسط الأمم من حيث عددها في قوله: «ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود».

وهذا التشبيه يثير دهشة سامعه لأن هذه الأمة بتاريخها الطويل العريق لا تقدر إلا بهذا العدد الضئيل، ولكن المطلع على شرح الحديث ومقارنته بالأحاديث الأخرى يرى أن هذه القلة تكون بجانب المشركين، أما عن دخول الجنة فغالب أهل الجنة من أتباع وأنصار النبي ﷺ حتى أن رسول الله ﷺ أتبع هذا الكلام بقوله مخاطباً أصحابه وأتباعه: «أني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا».

وقد تعرض ابن رجب في كتابه «التخويف من النار» إلى السبب في قلة أهل الجنة، وكثرة أهل النار، فقال: «فهذه الأحاديث وما في معناها تدل على أن أكثر بني آدم من أهل النار، وتدل أيضاً على أن اتباع الرسل قليل بالنسبة إلى غيرهم، وغير أتباع الرسل كلهم في النار إلا من تبلغه الدعوة أو لم يتمكن من فهمها على ما جاء فيه من اختلاف، والمنتسبون

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ٨ ص ٤٤١، وكذا مسند أحمد ج ٣ ص ٣٢، ٣٣.

إلى أتباع الرسل كثير منهم من تمسك بدين منسوخ وكتاب مبدل، وهم أيضاً من أهل النار كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[1].

وأما المنتسبون إلى الكتاب المحكم والشريعة المؤيدة والدين الحق فكثير منهم من أهل النار أيضاً، وهم المنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار، وأما المنتسبون إليه ظاهراً وباطناً فكثير منهم فتن بالشبهات، وهم أهل البدع والضلال وقد وردت الأحاديث على أن هذه الأمة ستفترق على بضع وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة، وكثير منها أيضاً فتن بالشهوات المحرمة المتوعد عليها بالنار ـ وإن لم يقتضي الخلود فيها ـ فلم ينج من الوعيد بالنار، ولم يستحق الوعد المطلق بالجنة من هذه الأمة إلا فرقة واحدة، وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ظاهراً وباطناً وسلم من فتنة الشهوات والشبهات، وهؤلاء قليل جداً لا سيما في الأزمان المتأخرة.

ولعل السبب الأعظم هو اتباع الشهوات، ذلك أن حب الشهوات مغروس في أعماق النفس الإنسانية ويرجع ذلك إلى ضعف الوازع الديني، وعدم الإحساس بالرقابة الإلٰهية، كما أن طريق النار قد زين بالشهوات، واقتياد المرء من شهوته سهل ميسور، ومحتوى حديث أبي هريرة الذي رواه الشيخان يدل على مدى ارتكاس الناس في الشهوات وسقوطهم في النار.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره»[2].

وقال صديق خان: «والمراد بالشهوات مرادات النفوس ومستلذاتها

---

(١) التخويف من النار والتعريف بدار أهل البوار، للحافظ أبي الفرج الجوزي ص ٢١٤ المكتبة العلمية ببيروت.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ١١ ص ٣٢٠، وكذا صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧٤، وفي رواية مسلم «حُفت» بدلاً من «حجبت» وكذا اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٨٦، دار الريان للتراث.

وأهويتها»[1].

وقال القرطبي: «الشهوات كل ما يوافق النفس ويلائمها وتدعو إليه، ويوافقها، وأصل الحفاف الدائر بالشيء المحيط به، الذي لا يتوصل إليه إلا بعد أن يتخطى»[2].

والمرأة ـ كما يقول الفقهاء ـ شهوة الرجل، وهذا جلاء لسر كثرة الداخلين من النساء وهم ـ كما في الحديث ـ أكثر أهل النار، كما أن الرجال يدخلون النار بإغوائهم النساء لهم.

وخطب رسول الله ﷺ في النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقلن: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: «تكثرون اللعن وتكفرن العشير»[3].

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «إن أقل ساكني الجنة النساء».

وعلق القرطبي على هذا الحديث شارحاً بقوله: «وإنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى والميل إلى عاجل زينة الدنيا، لنقصان عقولهن أن تنقذ بصائرها إلى الأخرى، فيضعفن من عمل الآخرة والتأهب لها ولميلهن إلى الدنيا والتزين لها، ومع ذلك هن أقوى أسباب الدنيا التي تصرف الرجال عن الآخرة لما فيهن من الهوى والميل لهن، فأكثرهن معرضات عن الآخرة بأنفسهن صارفات عنها لغيرهن، سريعات الانخداع لداعيهن من المعرضين عن الدين، عسيرات الاستجابة لمن يدعوهن إلى الأخرى، وأعمالها من المتقين».

ولا يعني هذا أن النساء كلهن كذلك، فتاريخ الدعوات حافل

---

(١) يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار، لصديق حسن خان ص ٢٢٠، طبعة دار الأنصار القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧١م.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة للقرطبي ص ٣٨٩.

(٣) صحيح مسلم ج ١ ص ٨٦، ٨٧.

بالمؤمنات الصالحات اللاتي يقمن حدود الله، ويلتزمن شريعته ويطعن الله ورسوله، ويدخل منهن الجنة خلق كثير.

وفيهن من يسبقن كثيراً من الرجال بإيمانهن وأعمالهن الصالحة.

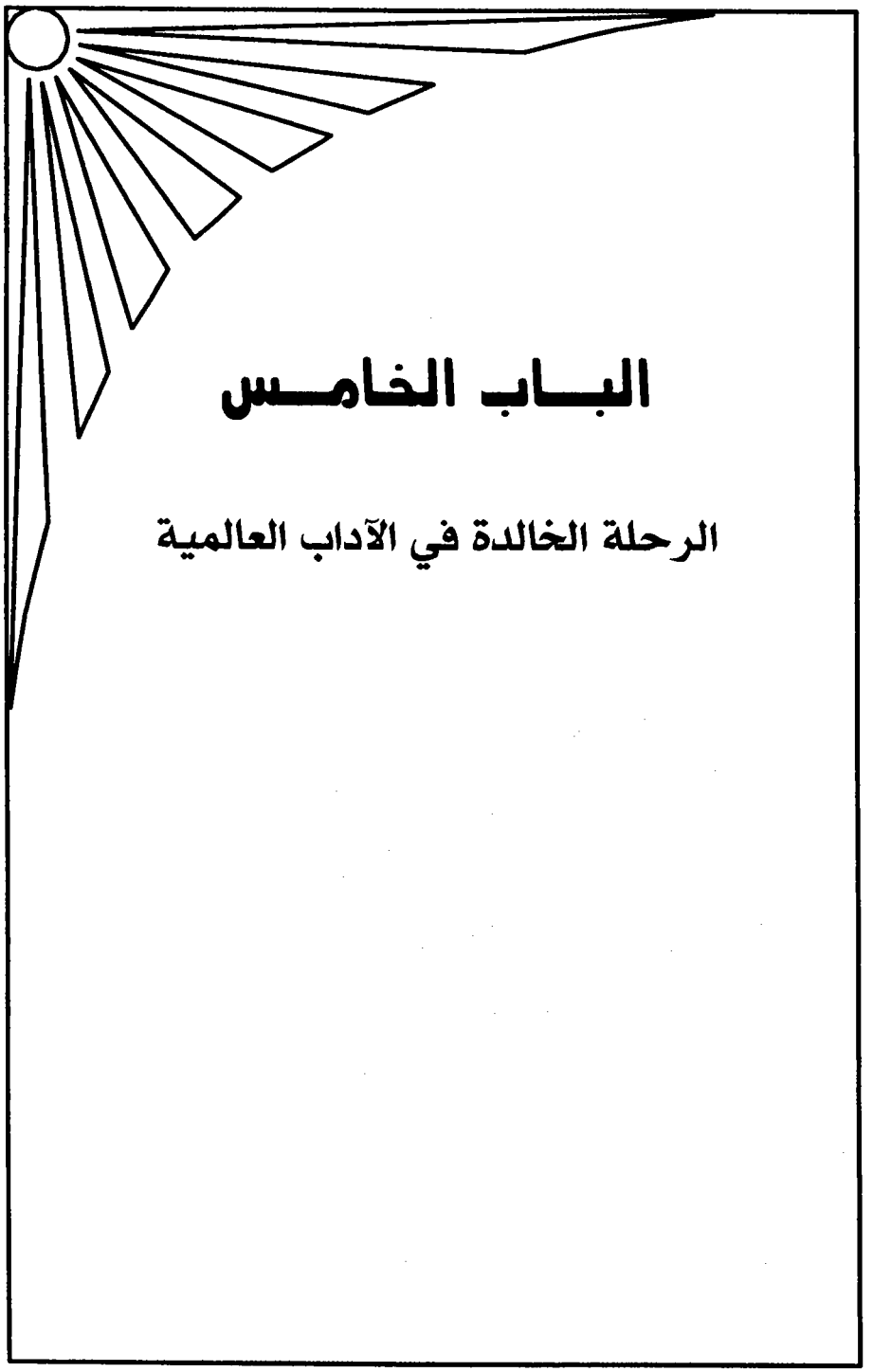

# البـــاب الخامـــس

## الرحلة الخالدة في الآداب العالمية

# الفصل الأول

# رحلة الإسراء والمعراج وأثرها في الآداب العالمية

إن الأحاديث النبوية الشريفة في معجزة الإسراء والمعراج ستظل مدداً لكبار الأدباء في مختلف الآداب والعصور.

فلقد صورت هذه الأحاديث مشهد رآها الرسول الكريم ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين ـ في هذه الرحلة الخالدة من مكة إلى بيت المقدس إلى سدرة المنتهى.

وهذه الرحلة تعد من صميم أدب الآخرة لأنها كانت رموزاً لمواقف ومشاهد تحدث يوم القيامة.

إن من أهم الأحداث التي سجلها تاريخ الإسلام معجزة المعراج، تلك المعجزة التي ستظل على مر العصور منبعاً ثراً لكثيرة من الأعمال الفكرية والروحية والفنية، على أن معجزة الإسراء والمعراج ورد في روايات عدة، منها الصحيح، ومنها الحسن أخرجها أئمة الحديث رضوان الله عليهم، يذكر بعضها ما لم يذكره البعض الآخر، تتفق في جوهرها، ولا تتعارض في جزئياتها، يرويها بعضهم مختصرة، ويرويها بعضهم متوسطة، ويرويها بعضهم مطولة، وكل منها يتعدد سندها، أي يختلف الرواة الذين رووها، ومع ذلك تكون الصورة واحدة في جوهرها[1].

---

(١) الإسراء والمعراج، عبد الحليم محمود ص ٥٨، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

ولقد رأى رسولنا ﷺ خلال رحلة المعراج مشاهد كثيرة رآها رمزاً مقدوراً وسنراها رمزاً مفعولاً بالنسبة للناس في الآخرة[1].

ومن هنا امتد حديث المعراج امتداداً كبيراً، وأحيط بأقوال ضخمة للمفسرين والمحدثين والمؤرخين بحيث لو جمع ما قيل بصدد ذلك لشغل كتاباً ضخماً يرأسه، ثم جاء بعض العلماء فوصلوا الأحاديث المختلفة في رواية واحدة وجعلوا منها نسقاً متصلاً متلاحقاً بل إنهم تعدوا أحاديث المعراج إلى ما دار حولها من الشرح انتقل هذا الحشد إلى الأجيال المتلاحقة، فقرأه العلماء والأدباء، وترجم إلى اللغات الأجنبية فأحدث دويه الرنان.

وإذا كان مما لا شك فيه بين الباحثين أن الحدث الواحد إنما ينظر إليه من وجهات متعددة، ويظهر أثر كل نظرة إليه، بحسب القاعدة الأساسية التي تنطلق منها، حتى ولو كان في تصويره مخالفة شكلية لحقيقته، فإننا نرى أن قصة المعراج قد دخلت مجال الدراسة الأدبية وأثرت فيه تأثيراً كبيراً، ولم يقف ذلك التأثير عند حد الأدب العربي فحسب، وإنما تخطاه إلى الآداب العالمية.

وإذا كان التاريخ المجرد لا يعنى إلا بالوقائع من حيث حقائقها، فإن تاريخ الفن عامة والأدب بصفة خاصة إنما يعني بإلقاء الظلال على تلك الوقائع، حتى تتحول من مجرد السرد العاري عن الصبغة الفنية إلى صورة جميلة أخاذة، تأخذ بمجامع العقول والنفوس، وتترك فيهما أثراً عقلياً روحياً ممتازاً[2].

ونحن الآن في مجال إبراز التأثير القوي لحديث المعراج في الأدب العربي نضع فاصلاً بين ما صحت روايته عن الرسول أو رجحت، وبين ما

---

(١) المعجزة الكبرى الإسراء والمعراج محمد متولي الشعراوي ص ١٢٠، مؤسسة أخبار اليوم مكتبة الشعراوي الإسلامية.

(٢) الإسراء والمعراج هدية مجلة منبر الإسلام ص ١٠٨ رجب ١٣٩٢ أغسطس ١٩٧٢م المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة.

ضعفت نسبته إليه لأسباب ذكرها المحدثون نضع هذا الفاصل لنحكم بأن ما صحت نسبته إلى الرسول كان الأساس الأول لهذه الصورة الجميلة عن السماء والأرض والجنة والنار إذ أن محمداً ﷺ حكى ما شاهده من العجائب حكاية رائعة فتحت أمام الأدباء مجال التصوير الفسيح.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن رحلة الرسول ﷺ كان لها تأثيرها المباشر في كل رحلة خيالية إلى السماء وإلى الجنة والنار.

أما ما ضعفت نسبته إلى الرسول ﷺ فقد ساقه الوضاعون متأثرين بحديث المعراج وناسخين على منواله، فلولا أنهم رأوا القوى المضيئة بأشعة من حديث محمد ما استطاعوا أن يقولوا شيئاً.

ومن هنا نستطيع أن نسمي ما ساق الوضاعون من حديث المعراج أدباً مصنوعاً استلهم البيان النبوي ثم نقل تأثيره إلى أدباء العالم، وهم بنتاجهم المتشابه يعترفون ويعلنون بلسان النقد أن صاحب الإبداع هو النبي ﷺ وغيره قد احتذاه[1].

فمن الروايات التي حكت قصة الإسراء والمعراج رواية أنس بن مالك: «حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال أتيتُ بالبراق وهو دابة أبيضُ طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطه بالحلقة التي يربط بها الأنبياء قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال: جبريل قيل ومن معك قال: محمد قيل وقد بعث إليه قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما فرحبا ودعوا لي بخير ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال: جبريل

(١) اليوم الآخر بين الشرق والغرب محمد رجب البيومي ص ١٣٨، ١٣٩ ـ ١٩٨٧م.

فقيل: ومن معك قال: محمد ﷺ قيل: وقد بعث إليه قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطى شطر الحُسن فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من هذا قال: جبريل قيل: ومن معك قال: محمد قال: وقد بعث إليه قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير قال الله عز وجل ورفعناه مكاناً علياً ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال: جبريل ومن معك قال: محمد قيل: وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من هذا قال: جبريل قيل: ومن معك قال: محمد قيل: وقد بعث إليه قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى ﷺ فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا قال: جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثم ذهب إلى السدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله إلي ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى ﷺ فقال: ما فرض ربك على أمتك قلت: خمسين صلاة قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي فحطَّ عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد إنهم خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته

فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال: رسول الله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييتُ منه[1].

فإذا كانت رواية أنس بن مالك عن المعراج تلخص حادث المعراج بما هو معروف من مجيء جبريل إلى النبي وتقديمه البراق وارتقائه إلى السموات السبع فرؤية آدم وعيسى ويحيى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم بعد سؤال وجواب عن القادم والإذن له بالزيارة ثم مشاهدة أنوار رب العزة وفرض الصلاة خمساً بعد خمسين عقب مراجعة تنشد التخفيف إذا كانت رواية أنس بن مالك تقف عند ذلك، فإن رواية الإمام زيد بن علي وهو الفقيه المجاهد الشهيد العلم الثقة تفصل الأمر بوضوح مستوعب وذلك نصها:

«قال علي بن أبي طالب صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر يوماً بعلي فلما قضى الصلاة التفت إلينا وقال: أفيكم من رأى الليلة شيئاً؟ قلنا لا يا رسول الله قال: ولكني رأيت كأن ملكين أتياني فأخذا باصبعي فانطلقا بي إلى السماء فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمي وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمي فيقع دماغه جانباً وتقع الصخرة جانباً، قلت: ما هذا؟ قالا: أمضه، فمضيت فإذا أنا بملك وبين يديه آدمي وبيد الملك كلوب من حديث فيضعه في شدقه الأيمن فيشقه حتى ينتهي إلى أذنه ثم يأخذ في الأيسر فليتئم الأيمن قلت: ما هذا؟ قالا لي: أمضه، فمضيت فإذا أنا بنهر من دم يفور كفوران المراجل وعلى حافتي النهر ملائكة بأيديهم نار، كلما طلع طالع قذفوه بها، فيقع فيه فيشتعل إلى أسفل ذلك النهر، قال: قلت: ما هذا؟ قالا: أمضه، فمضيت فإذا بيت أسفله أضيق من أعلاه، وفيه قوم عراة تفور من تحتهم النار فأمسكت على أنفي من نتن ما أجد من ريحهم، قلت: ما هذا؟ قالا: أمضه، فمضيت فإذا أنا بتل أسود عليه قوم محفيون تنفخ في أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم، قلت: ما هذا؟ قالا: أمضه فمضيت فإذا أنا بنار مطبقة موكل بها ملك لا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ٢٠٩، ٢١٥.

يخرج منها شيء إلا أتبعه حتى يعيده فيها، قلت: ما هذا؟ قالا: أمضه، فإذا أنا بروضة خضراء وإذا فيها رجل شيخ جميل لا أجد منه حوله الولدان، وإذا أنا بشجرة ورقها كآذان الفيلة، قلت: ما هذا؟ قالا: أمضه، فصعدت إلى ما شاء الله من تلك الشجرة فإذا أنا بمنازل لا منازل أحسن منها درة جوفاء وزبر جدة خضراء وياقوتة وفيه أقداح وأباريق، قلت: ما هذا؟ قالا لي أنزل فنزلت فضربت بيدي إلى إناء منها ثم غرفت فشربت فإذا هو أحلى من العسل وأشد بياضاً من اللبن وألين من الزبد، فقالا لي: أما صاحب الصخرة التي رأيت الملك يضرب هامته فيقع دماغه جانباً وتقع الصخرة جانباً فأولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ويصلون الصلوات لغير وقتها فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار، وأما صاحب الكلوب الذي رأيت به ملكاً موكلاً بيده كلوب من حديد يشق به شدقه الأيمن حتى ينتهي إلى أذنه ثم يأخذ في الأيسر فليلتئم الأيمن فأولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة ليفرقوا فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار، وأما البيت الذي رأيت أسفله أضيق من أعلاه وفيه قوم عراة توقد من تحتهم النار فأمسكت على أنفك من نتن ما تجد من ريحهم، فأولئك الزناة وذلك نتن فروجهم فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار، وأما التل الأسود الذي رأيت عليه قوماً محينين تنفخ النار في أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم فأولئك الذين كانوا يعملون عمل لوط الفاعل والمفعول به فهم يعذبون بهذا حتى يصيروا إلى النار، وأما النار المطبقة التي رأيت ملكاً موكلاً بها كلما خرج منها شيء أتبعه حتى يعيده فيها فتلك جهنم حتى يفرق بين أهل الجنة والنار، وأما الروضة الخضراء التي رأيت فتلك جنة العامة، وأما الشيخ الذي رأيت لا أجد أجمل منه حوله الولدان، ذلك أبوك إبراهيم، وأما الشجرة التي رأيت وطلعت إليها فيها منازل لا منازل أحسن منها درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء فتلك منازل أهل عليين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وأما هذا النهر الذي رأيت فنهرك الذي أعطاكه الله وهذه منازلك ومنازل أمتك، ثم نوديت من فوقي يا محمد سل تعط، فارتعدت

فرائي ورجف فؤادي واضطرب كل عضو مني ولم أستطع أن أجيب شيئاً، فأخذ أحد الملكين يده اليمنى فوضعها بين يديي وأخذ الآخر فوضع يده بين كفتي فسكن ذلك مني، ثم نوديت من فوقي، يا محمد سل تعط، سل تعط، قال، قلت: اللهم أسألك أن تثبت شفاعتي وأن تلحق بي أهل بيتي وأن ألقاك لا ذنب لي[1].

وحديث المعراج كما روته الروايات الراجحة، ولخصه حديثا أنس وزيد بن علي، يعتبر فتحاً مبتكراً في عالم البيان التصويري، تمحض عن الجديد الطريف.

ولا جرم أن مشاهد القيامة في القرآن الكريم قد صورت اليوم الآخر تصويراً لا ينفذ سحره، ولكن القيام في عالم الغيب مما أبرزه حديث المعراج لأول مرة في الأدب العربي، وقد استغله الخطباء والواعظون في مواقف الترغيب والترهيب وليس هنا مجال القول في ذلك لأن دراسة هذا الحديث من الناحية العقيدية قد استغرق كثيراً من الدراسة وصورت فيه جميع الآراء بين الفرق المختلفة في حقيقته، بعد الإتفاق على وقوعه، أكان بالروح فقط أم بالروح والجسد معاً كما أننا لا نشك في أن كثيراً من الباحثين والدارسين سيولون هذا الحديث كثيراً من اهتماماتهم في هذه المناسبة المباركة.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ثراء الفكر الإسلامي وعدم انغلاقه وفي هذا شحذ للعقول، لكي تظل دائماً مستشرقة غاية الوصول إلى الحقيقة[2].

أما الذي يهمنا هنا أن نبحث عن التأثير الفني الخالص في الأدب العربي، فقد استطاع أبي العلاء المعري أن يرسم لنا لوحة فنية خالدة

---

(١) المعراج للقشيري تحقيق علي حسن عبد القادر من ص ٣٩ ـ ٤٢ نقلاً عن اليوم الآخر بين الشرق والغرب محمد رجل البيومي ص ١٤٠ ـ ١٤٧ سنة ١٩٨٧م.

(٢) الإسراء والمعراج هدية مجلة منبر الإسلام ص ١٠٨ رجب ١٣٩٢ أغسطس ١٩٧٢م.

لمعراجه الخاص، والتي استلهم فيها هذا الأثر الديني العميق، فأخرج للدنيا كلها «رسالة الغفران» التي تخطت أسوار الأدب العربي، وفرضت نفسها على الآداب العالمية وسوف نتحدث عنها بالتفصيل في الباب القادم إن شاء الله فإذا ما غادرنا أبا العلاء فإننا نجد أن تراث الإسلام الروحي قد تأثر إلى حد كبير بهذه القصة تأثيراً بليغاً، سواء كان ذلك التأثير في مشرق بلاد الإسلام أو في مغربها، ففي التراث الفارسي نجد ذلك الأثر فيما خلفه «حافظ الشيرازي» وفي «المثنوي» لجلال الدين الرومس، وفي «رباعيات الخيام» وفي «منطق الطير» للسنائي.

أما متصوفة الأدب العربي فقد جذبتهم قصة المعراج بصورها العلوية، وأنوارها السماوية ومن شك، وأوضح من تأثر بها إمامان كبيران هما محيي الدين بن عربي الأندلس، وأبو زيد البسطامي.

ومن هنا نستطيع أن نقول أن قصة المعراج لم تكن حدثاً دينياً فحسب ولكنها حدث فني أيضاً وستظل كذلك طالما ينعم الإنسان بخيال خصيب، وسيلجأ إليها كلما ضاقت به عوالمه الأرضية ليسرح بخياله وفكره، عله يجد فيها متنفساً يرضي عقله وسفوره وروحه ووجدانه.

# الفصل الثاني

# أبو العلاء ورسالة الغفران

في العصر العباسي ازدهر وعظم الاهتمام به واتخذ وسيلة لتدعيم.. وخدمة أهدافه كما كان وسيلة للوعظ والإرشاد والتوجيه.

وبين أيدينا من هذا التراث الخالد «رسالة الغفران» التي صورها قلم رهين المحبسين لمعراجه الخاص، والتي استلهم فيها هذا الأثر الديني العميق «قصة الإسراء والمعراج» فأخرج للدنيا كلها هذه الرسالة التي تخطت أسوار الأدب العربي وفرضت نفسها على الآداب العالمية.

و «رسالة الغفران» هي رسالة رد بها المعري على رسالة جاءته من صديق له اسمه علي ابن منصور، ولقبه ابن القارح.

وسميت هذه الرسالة رسالة الغفران لأن أبا العلاء صور ابن القارح فيها يلتقي في الجنة بالشعراء، فيسأل كل واحد منهم: «بم غفر لك».

وقد التقى بالحطيئة في مكان وضيع في أطراف الجنة فقال:

«لقد رضيت بمكان وضيع».

فقال الحطيئة: «ما وصلت إلى هنا إلا بعد هياط ومياط[1]، وشفاعة

---

(١) الهياط: أشد السوق إلى الورد ـ والمياط أشد الصدر.

قريش وددت أنها لم تكن[1].

ويقول أبو العلاء في رسالة الغفران[2]:

«غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداها ولا بما وقع لي فيه ثم صحوت فرأيت نفسي في صحراء مد البصر مكتظة[3] بأنواع من الخلق لا أحصيهم عدداً، فعلمت أني بعثت، وأنه يوم القيامة، فساورني[4] من الهم ما ساورني حين ذكرت أن مقداره ألف سنة من سني القيامة، وقلت: من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظماً وجوعاً، ويحترق تحت أشعة الشمس ليس بينه وبينها إلا قدر ظفر، فتماسكت بضعة أشهر، ثم لم أجد بعد ذلك إلى الصبر سبيلاً فزينت لي نفسي الكاذبة أن أذهب إلى رضوان خازن الجنان، وكنت أحمل شهادة التوبة في يدي لأسترحمه التمس منه الإذن بالدخول قبل انفضاض المحشر، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسومة[5] باسمه كما كنت أرقى أمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها، فما أبه[6] لي ولا فهم كلمة مما أقول، فانصرفت عنه إلى خازن آخر اسمه زفر فكان شأني معه شأني مع صاحبه، إلا أنه كان أرق منه وألين جانباً، فأشار علي بالذهاب إلى النبي الذي أتبعه، وأفهمني أن الأمر موكول إليه، فعدت وبين جنبي من الحسرة والألم ما الله عالم به، فبينما أنا أتخلل الصفوف، وأزاحم الوقوف، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم، وأمعنت النظر فيه، فإذا هو الشيخ أبو الفارسي النحوي، وإذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه، هذا

---

(١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ومعها نص محقق من رسالة ابن القارح، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطيء» ص ٣٠٧، الطبعة الثامنة دار المعارف.

(٢) رسالة الغفران كما لخصها الأديب المبدع مصطفى لطفي المنفلوطي نقلاً عن كتاب اليوم الآخر بين الشرق والغرب ص ٥٩ ـ ٧٢، ١٩٨٧.

(٣) مكتظة: مملوءة.

(٤) ساورته الهموم: واثبته وملكت أميته.

(٥) المسومة: المعلمة.

(٦) أبه: احتفل.

يقول له رويت بيتي على غير وجهه، وذاك يقول: أعريته على غير ما أردت وذهبت، فدفعني الفضول كما دفعهم إلى النزول في ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت، وعلمت إن شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك، فقلت: قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب، إنها شؤم الآخرة والأولى.

وقفت أمير من حنب في حمارة قيظ[1] لا أدري ما آخذ، وما آخذ، وما أدع حتى رميت بطرفي فإذا بأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب في لفيف من العترة[2] الطاهرة النبوية فذلفت[3] إليه وابتنته[4] أمري وأمر الشهادة المفقودة فقال: لا عليك، ألك شاهدة بالتوبة؟ قلت: نعم، فنودي، بشهودي فشهدوا بتوبتي فقال: تريث[5] قليلاً حتى تمر فاطمة بنت محمد فسألها في أمرك، فهي تمت إلى أبيها بما لاغت به[6] وكانت ممن قسم لهم دخول الجنة قبل القضاء إلا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها، ثم تعود إلى مستقرها فأنا كذلك وإذا بمنادي ينادي أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد ﷺ، فهلا رعت إليها، راكبة مع أخوتها وجواريهاعلى أفراس من نور وتقدم من وعدني بسؤالها في أمري فانجز وعده فقالت لأخيها إبراهيم: دونك الرجل فقال: تعلق بركابي، فتعلقت، فطارت الأفراس في الهواء تقطع الأجيال وتتخطى رؤوس القرون، حتى وافينا محمداً ﷺ، واقفاً لشهادة القضاء فقصت عليه فاطمة ما علمت من أمري، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفه لي فعدت في ركب فاطمة فرحاً مستبشراً، وما كنت أقدر أن بين يدي عقبة الصراط فلما وافيته وجدتني لا أستمسك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جواريها

---

(١) الحمارة ـ بالتشديد ـ شدة الحر.
(٢) عترة الشخص: عشيرته وأهله.
(٣) دلف: مشى مشياً متثاقلاً.
(٤) ابنه السر: كاشفه.
(٥) تريث: أبطأ.
(٦) تمت بالشيء: ترسل به.

أن تعبر معي فأمسكت بيدي فمشيت أترنح ذات اليمين وذات الشمال، وخفت السقوط فقلت لها: احمليني زقفونه، وما زقفونه؟ فقلت: أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفرطاب:

صلحت حالتي إلى الخلف حتى  صرت أمشي إلى الورى زقفونه

فقالت: ما سمعت بزقفونه ولا الجحجلول ولا كفر طاب، فقلت: ألقى يدي فوق كتفيك، أجعل بطني إلى ظهرك، فحملتني وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف، حتى صرت إلى باب الجنة، فرمت الدخول فوقف رضوان في وجهي وقال: أين جوازك[1] فبعلت بالأمر[2]، ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجته على أن يعطيني منها ورقة أعود بها إلى الموقف لأستكتب عليها الجواز فأبى، فقلت: وقد ملك الهم علي رشدي وصوابي: أما والله لو أنك حارس على أبواب الكرماء، أو خازن لخزائن الملوك والأمراء لما وصل شاعر إلى درهم، ولا سائل إلى سحتوت[3] ولهلك الفقراء بؤساً وجوعاً، فسمع إبراهيم عليه السلام حواري[4] فجذبني جذبة جعلني بها في الجنة وصاحبي ينظر إلى شزرا فدخلت، فرأيت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

رأيت أنهاراً من الماء العذب أصفى من أديم السماء، وأصقل من مرآه الحسناء تنصب فيها جداول من الكوثر، إذا جرع الشارب منها جرعة ماء الحياة وأمن أن يذوق كأس المنون مرة أخرى، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضاً قد زينت حوافيها بأباريق من المجد، وكؤوس من الزبرجد، فما نهلت نهله حتى قلت لو كشف لأهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة لا

---

(١) الجواز: صك المسافر.

(٢) بعل بأمر: يرم به فلم يدر ما يصنع فيه.

(٣) السحتوت في الأصل: السويق القليل الديم، ثم أطلق على كل شيء قليل.

(٤) الحوار: مراجعة الكلام.

يشوبها كدر، والنشوة التي لا يعقبها خمار[1] ما باعوا قطره منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقطربل[2] من البواطي[3] والدنان، ولو نظر الأفيشر الأسدي بعين الغيب إلى مجد هذه الأباريق وزبرجد تلك الكؤوس لخجل من نفسه أن يقول:

أفنى تلادي وما جمعت من نشب ... فرع الفوازير[4] أفواه الأباريق
وفي تلك الأنهار آنية ترفرف فوق ... سطحها على صورة الطيور

كالكراكي والطواويس والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها شراب أرق من الشراب، وتسبح فيها أسماك من الذهب والياقوت:

يعمن فيها بأوساط مجنحة[5] ... كالطير تنشر في جو حوافيها

ورأيت أنهاراً من لبن، وأنهاراً من عسل لا يدرك الوهم كنهه إلا إذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من أزهارها وأنوارها. رأيت جميع تلك الأنهار مكبرة، ثم تمثلت في نظري مصغرة فإذا هي سطور من النور وأحرف بيضاء في صحيفة خضراء، قرأتها فرأيتها: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ظللت أمشي قط أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظراً عجباً ينسي السابق، ويشوق إلى اللاحق، فوددت لو طويت لي الأرض طياقاً تجعل النظر إلى ما غاب عني من الجنة وبدائعها.

فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى رأيت بين يدي فرساً من الجواهر المتخير مسرجاً ملجماً فعلمت أني قد سعدت وأنها الأمنية التي كنت أتمناها فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق[6] من

---

(١) الخمار: صداع الخمر.
(٢) بلدان معروفان بجودة خمرها.
(٣) جمع باطية: وهي إناء للشرب يوضع بين الشرب للإغتراف منه.
(٤) الفوازير: جمع فازورة وهي قدم للشراب.
(٥) مجنحة: ذات أجنحة.
(٦) الودق: المطر.

السحاب، والسيف من القراب[1] وعلى ما جهدته لم يشك إلى ما شكاه جواد عنترة العبسي إليه في قوله:

فازرو من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعيرة وتحمحم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة إليه في قوله:

تشكي الكميت الجري لما جهدت وبين لو يستطيع أن يتكلما

ذكرت أني، وأنا في الدار الفانية كنت أسمع بذكر الذاهبين الأوليين من الأدباء والشعراء والرواة، فآسف على أن لم أكن في زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم، فقلت: ليت شعري مافعل الله بهم في هذه الدار، وهل سعدوا أن شقوا، وهل بقي لي من رؤيتهم في دار البقاء، ما لم يقبض في دار الفناء؟ ثم رميت بطرفي فإذا فارس يحضر فرسه[2] في الهواء إحضاراً حتى تقاربنا فتماسكت الركب واختلفت الأعناق، فقال: انتسب فقلت: فلان، ومن أنت يرحمك الله، وقد فعل؟ فقال: عدي بن زيد العبادي، فدهشت وقلت: عدي ابن زيد في الجنة بعد الزيغ والضلال؟ فقال: أنا عبسوي، وأنت محمدي، وليس لصاحبك على أحد حجة إلا بعد ظهوره، وبلوغ دعوته، فقلت: لا نكران، ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك، وابن استهتارك في قولك:

بكر العادلون في وضح الصبح يقولون لي أما تستفيق
ودعوا بالصبوح فجراً فجاءت قينة في يمينها إبريق

قال: غفر الله لنا ما غفر لكم، قلت: هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله أن آراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة فقال: أصحبني فطارت بنا الخيل، فقلت له: هل آمن إلا بقذف بي هذا السابح على صخر، من الزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسر لي عضداً أو

---

(١) قراب: السيف غمدة.

(٢) أحضر الفرس: ارتفع في عدوه.

ساقاً؟ فتبسم، وقال: أين يذهب بك؟ نحن في دار الخلود والبقاء،

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمري على شاطئه جمع مثير على سرر متقابلين، أو على الأرائك متكئين، فهوى صاحبي بفرسه فهويت هويه، وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقب الدار، فرحبوا بنا وهشوا للقاءنا وانتسبنا فتعارفنا، ثم أخذوا فيما كانوا فيه فإذا الأصمعي ينشد مروياته، وأبو عبيدة يسرد وقائع الحروب وقاتل الفرسان، وإذا سيبويه والكسائي متصافيان بعد أن وقع بينهما في مجلس البرامكة ما وقع، وأحمد بن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد في الموجودة ما كان يضمر، وأخذت تهب من ناحية النهر نفخة عطرية ذكرتني بقول أعشى ميمون:

«مثل ريح المسك ذاك ريحها»

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاءه، وقلت في نفسي: لولا أن قريشاً صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا فسمعت هاتفاً من ورائي يقول: أنا بينكم، وفي مجلسكم فإذا الأعشى ميمون، فلم أدر من أي مدخليه[1] أعجب من مدخله إلى الجنة؟ أم من مدخله إلى نفسي، وعلمه بما هجس في صدري؟ فعلمت أن أهل الجنة ملهمون، ثم سألته: كيف غفر لك؟ فقال: سحبتني الزبانية إلى سقر فرأيت في عرصات القيامة رجلاً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب: الشفاعة يا محمد، فأخذت أخذهم وهتفت هتافهم فأمر أن أدنو منه، فدنوت فسألني: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أبهذا السائل أو يممت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من وجي حتى تلاقي محمداً
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... ترامى وتلفى من فواضله ندا
نبي يرى ما لا ترون وذكره ... اغار لعمري في البلاد وأنجدا

(١) المدخل: مصدر دخل. كالدخول.

فقال: ما سمعتها منك قبل اليوم، فقلت: خدعتني عنك الناس بعدما شددت راحلتي إليك، وكنت رجلاً أحب الشراب وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه، فشفع لي، فدخلت الجنة على ألا أذوق فيها الخمر، فقنعت بالرضاب عن الشراب، وبماء الثغر المنضود عن ماء العنقود، ورأيت بجانبه شاباً ريق الشباب، فسألت عنه فقيل لي: زهير بن أبي سلمى، فما كدت أصدق أنه القائل:

سئمت تكاليف الحياة من يعيش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

فقلت له: بم غفر الله لك؟ فقال: كنت في جاهليتي أترقب مبعث محمد، وأتمنى البقاء حتى أراه فحال بيني وبينه الموت، فأوصيت به أبني كعباً وبجيراً وكنت أومن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي:

فلا تكتمن الله مافي نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب يدخر ليوم الحساب أو يقدم فينقم

وإلى جانب زهير «عبيد بن الأبرص» فسألته عن مصير أمره؟ فقال: كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

والعذاب يخفف عني شيئاً فشيئاً حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم إلى النعيم.

ذهبنا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنا إلى ارتشاف الخمر من النهر، في آنية الدر، فانتشينا جميعاً فما أفقنا إلا على حفيف رف[1] من أوز الجنة نزل بنا، ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج، فما اتين على الألحان الثمانية حتى دارت بنا الأرض الفضاء، وحتى ملكنا من الطرب ما يستخف الحلوم ويطير الهموم، وقلنا: لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه، لقرع السن على أن باع دينه بسرور

(١) الرف: الطيع من الطير.

محدود وأنس معدود، ودف رعد.

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى: فاطلع فرآه في سواء الجحيم، فتمنيت أن أطلع فأرى المعذبين كما رأيت المنعمين فالهمت الإذن، فأشرت لصاحبي فقام وقمت، وركبنا فرسينا فطارتا بنا حتى انتهيا إلى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخاً يسكنه شيخ دري الهيئة، فأشرنا عليه فقال: لا تعجبوا لشأني أنا الحطيئة.. فوالله لولا أني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي:

أرى وجهاً شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

لما دخلت الجنة.. ولا أدركت كوخاً ولا حجراً، فتركا، وطلعنا، فلما رآنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله «فرأينا ملوكاً وأكاسرة يتضاعفون» في السلاسل والأغلال ويقولون:

ربنا أرجعنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل فيهتف هاتف أو لم نعمركم؟ ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير.

ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فإذا هي الخنساء، تطلع مثلنا فترى رجلاً كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار فتمتعض وتقول يا صخرة.. هذا تأويل قولي فيك من قبل:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه النار

ورأيت هناك كثيراً من أمثال امرىء القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد، ورأيت بشاراً بن برد تفتح عيناه بكلاليب من نار، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله، وقال له ما كنت لأدخل النار لولا قولي فيك:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار غصره وآدم طينه والطين لا يسمو سمو النار

وجزعنا من المنظر فهمنا بالرجوع.. وإذا إبليس يهتف بنا: يا أهل النار بلغوا عني آباكم آدم أني لم أدخل النار بسببه حتى أخذت معي أكثر ولده وأفلاذ كبده، فلا يهمنا كثيراً بمصيري فقلنا: قبحه الله، ما يزال ينغص على آدم نعمته حتى اليوم، فما كان لنا هم بعد رجوعاً إلا لقاء أبينا آدم عليه السلام.. فلقيناه فبلغناه الرسالة، فقال: وارحمتاه له، ما كان بينه وبين الإيمان إلا القليل.. فأرداه الحسد فكان من المهلكين. فقبلنا يده وانصرفنا إلى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحرير.. وحور وولدان، كأنهم الياقوت والمرجان، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

لقد كانت تلك الرسالة متنفساً عن ذلك الحرمان القاسي الذي فرضه أبو العلاء على نفسه، ومن ثم لم يكن عجباً أن كانت مشحونة بأصداء أشواقه المكبوتة وصليل القيود التي كبل بها نفسه، كما انعكس ذلك بشكل ملحوظ على خياله الذي أطلق له العنان، في رؤيا عجيبة من رؤى يقظته، وهذيان أمانيه، فصورت تلك الرؤيا عالمه الآخر، كما تمثله، وكما اقترحه عليه حرمانه.

ولم يكن ذلك العالم الآخر الذي صورته رؤيا أبي العلاء إلا انعكاساً لنفسه المضطربة المتوترة، ومن ثم نرى في رحلته تلك، حركة عنيفة، قد تصل إلى حد العناد والمنافرة بين أطرافها وقد تصل أحياناً أخرى إلى حد العراك الشديد يعلو فيها صوت المنتصر، ويخفض فيها صوت المهزوم، وكأن أبا العلاء قد ألبس أشخاصه الذين تحدث عنهم ردائه النفسي فعاشوا في آخرتهم كما عاش هو في دنياه تحركهم السورة الحيوية التي تظل كذلك بين أخذ ورد عنيفين حتى يتحول الواقع النفسي لدى أصحابها، وتعود نفوسهم رقراقة إنسيابية كأنها الماء الجاري في هدوء. في جدول من المنعطفات والشلالات[1].

---

(١) هدية مجلة منبر الإسلام الإسراء والمعراج د. محمد عبد الستار نصار ص ١٠٩، ١١٠، رجب ١٣٩٢هـ - أغسطس ١٩٧٢م.

لم يكن من هم المعري من رسالته التي بعث بها إلى «ابن القارح» أن يصور مشاهد القيامة ولاأن يكشف عن العمليات التي تقع فيها إلى أن يفصل بين الأخيار والأشرار. فيذهب هؤلاء إلى الجنة، ويساق أولئك إلى النار لم يكن ذلك من هم المعري وإن كان قد ذكر شيء منه، فإنما ذكر لحساب «الفكرة» التي كانت تدور في رأي المعري والتي من أجلها ألف هذه الرسالة.

كان المعري يريد أن يهزأ ببعض الأشخاص أو ينال من بعض المعتقدات، أو يسخف من بعض الآراء فاتخذ من موقف الحشر مسرحاً يمسخ فيه من يريد مسخهم من الناس ويزري فيه ما يزري من المعتقدات الدينية، والآراء العلمية وغيرها. إنه أراد أن يصور دنياه وما فيها من متناقضات فاتخذ من الآخرة مسرحاً يمثل فيما أراد أن يمثل من فصول الدنيا التي يعيش فيها عيش السجين المظلوم. والذي يقرأ رسالة المعري يجد أن مادة هذه الرسالة تعتمد اعتماداً كبيراً على ما جاء في القرآن الكريم عن يوم القيامة، وما يقع فيه من ثواب وعقاب غير أن المعري قد أباح لخياله أن يعبث بالصور والمشاهد التي جاء بها القرآن عن يوم القيامة وأن يقلب بعضها ويمسخ بعضها الآخر، دون تحرج أو توقف فقد أطلق المعري في هذه الرسالة لخياله العنان فابتدع صوراً غلا فيها وخرج بها عن المعقول، غير أن غلوها مقبول لأنها تصور مشاهد في الجنة والنار والموقف مما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولأن المعري أراد من وراء غلوه السخرية والنقد من الذين يؤمنون بما لا يمكن أن يكون. وإذا سخر وانتقد عمد إلى البراءة والمسكنة والإيمان المطلق وقال: «إن الله على كل شيء قدير»[1].

وفي هذا الجو المشحون بالانفعالات بين الأشخاص في «رحلة الفن» يتبين للناظر مدى ما للخيال من أثر في صنع هذه الرحلة بالصبغة الفنية،

---

(١) دراسات في الأدب والفن حنا نمر ص ٩٩، وكذا تراث الإنسانية بأقلام صفوة ممتازة من الأدباء والكتاب والعلماء ج ٢ ص ٤٣٣، مؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

فبينما هي في واقعها الأول تأخذ سلم الترقي الهادىء، الذي يتجاوز السماء الأولى إلى ما بعدها حتى يصل إلى سدرة المنتهى، وتستوقفه في كل سماء بعض الظواهر، التي تؤثر في الغاية من تلك الرحلة، نراها في ثوبها الأدبي تتزع نحو إظهار مكنون نفس صاحبها ثم هي في الوقت نفسه تعبير دقيق عن موقفه الديني والروحي وعلاقاته النفسية ببقية المخلوقات.

وإذا كان تاريخ الأدب قد أطلعنا على رقة حس أبي العلاء، وعلى شفافية روحه تجاه ما يلي وفنى من أجساد البشر، التي كانت في يوم من الأيام تنبض بالحركة والحياة، فينشد محدثه:

خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد

وإذا كان قد حبس نفسه بين ظلمة العمى والظلمة الحسية، كما حبسها عن كل مشتهيات الحياة، فقد انعكس ذلك أيضاً على جنته التي حلم بها، ولكن في طريق عكسي وكأنه أراد أن يعوض ما فاته من حياته الأرضية فعب من جنته العليا، وشرب كؤوسها حتى الثمالة، أو على الأقل تصورها مليئة بما لم يستطع أن يتصوره في حياته الأرضية. فصائم الدهر الذي حرم على نفسه لذات الدنيا، يملأ جنته بالخمر والنساء، وتفنن في حشد صنوف من اللذائذ الحسية، والشهوات المصورة.

ففي الرسالة خيال سار في سبيل لم يعرفها الأدباء، فاخترع صوراً غريبة، ورسم مشاهد تخرج عن المحسوس ولكنها لا تنقطع عنه، وتحلق في الإبتداع ولكنها لا تنفصل عن المألوف ولا تنبو عنه أو تخرج عليه.

لقد كان المعري يؤمن إيماناً كامل بأن ذنوب البشر مهما عظمت وكثرت، فإن رحمة الله وغفرانه أعم وأشمل. من ثم اختار لرحلته تلك ذلك الاسم الديني «رسالة الغفران» عرض فيها بالنقد واللوم على الأخلاقيين، وأخذ عليهم قسوتهم وتشددهم وكيف أن ذلك مناف للرحمة الإلهية. وقد كان عليه ـ وهو شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء. أن يدافع عن بني جلدته من الأدباء والشعراء والفلاسفة، ولعل ذلك راجع إلى إحساسه بأن هؤلاء دائماً ينظرون إلى الحياة بمنظار خاص، كما أن الدين

لديهم أوسع من تلك الطقوس الشعائر التي يقوم بها الرجل العادي، وأن قلوبهم الرقراقة الشفافة إنما هي في حقيقتها ليست إلا مرآة مجلوة ينعكس عليها جمال الحق، فكأنه على هذا التصوير ـ حال في نفوسهم، بينما ينشده غيرهم خارج النفس. وفي الرسالة فن رائع، فقد حفظ المعري لكل شخص من أشخاص الرسالة أخلاقه وخصائصه ومميزاته، فالحطيئة غفر له بشفاعة من قريش ود لو لم تكن[1].

والأخطل في النار يشتاق إلى مجالس يزيد[2] والأدباء في الجنة يتناشدون الأشعار ويتشاجرون ورسالة الغفران تعد من أنضج نماذج الثقافة العربية إذ لو طبقنا عليها المعيار النقدي المعترف به الآن عالمياً عن الأعمال التي توصف بأنها كلاسيكية ـ لا تلك التي تنتمي إلى مذهب الكلاسيكية الأوربي المعهود وإنما تلك التي تمثل عنصراً فاعلاً في تراثها وتعد من عيونه لوجدنا أن شرطي هذا الوصف هما:

توفر النضج الأدبي واللغوي والأخلاقي للأمة التي ينهض فيها كاتب كلاسيكي من ناحية وضرورة ارتكازه على عصور أدبية سابقة عليه من ناحية أخرى[3].

إذا طبقنا هذا المعيار على المعري لوجدنا كاتباً عربياً كلاسيكياً من الطراز الأول، فقد أصابت اللغة العربية وآدابها من النضج قبله قدراً عظيماً جعله شغوفاً بهما حريصاً عليهما، وكان هذا ما حدا به إلى وضع رسالة الغفران كنموذج فني يستفيد من إطار الرحلة إلى الحياة الآخرة ليقدم فيضاً من البحوث اللغوية والأدبية التي كانت شغله الشاغل في هذه الرسالة، كما أن تعدد العصور السابقة عليه وقدرته على تمثلها ومحاولة تجاوزها مع الفهم

---

(١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ومعها نص محقق من رسالة ابن القارح تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء ص ٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٧.

(٣) تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلٰهية لدانتي صلاح فضل، ص ٧٢ ـ الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م منشورات دار الآفا الجديدة ـ بيروت.

العميق لتراثها كل هذا قد أتاه له فرصة كبرى لتأصيل نظراته في لغة الأدب وابتداع أطر جديد أثرت الثقافة العربية بقدر ما جددت من أنسجتها وأضافت إلى محصلتها.

# الفصل الثالث

## أثر رحلة الإسراء في الآداب الفارسية والأوروبية

لقد كانت رسالة الغفران من الرسائل الأدبية المعدودة في العالم، فقد اتخذ المعري من رحلته الخيالية هذه وسيلة للتعبير عن آرائه في الدين والأدب واللغة ـ حديثاً بلسان الناقد في كل ما تناوله من حديث[1] ولم يكن «المعري» هو الرائد الوحيد ـ عن طريق ابن القارح الذي جلس خلال المحشر، وطوف بالجنة والنار وتحدث إلى أهلهما وإنما كان هناك كثيرون من الشرق ومن الغرب سبقوه أو جاؤوا بعده، وكادت تصوراتهم تلتقي مع تصوراته لمشاهد القيامة، ولما يلقى الناس من ثواب وعقاب.

ففي التراث الفارسي نجد ذلك الأثر واضحاً فيما تعرفه من أشعار المتصوفة بفارس، وهم مسلمون قد درسوا عقائد شريعتهم وألموا بحياة نبيهم، ثم جذبتهم قصة المعراج إلى رحلات خيالية بديعة قاموا بها على جناح الشوق إلى آفاقهم الروحية، ومن أشهرهم في ذلك شيخهم الشاعر الأكبر سنائي[2] صاحب كتاب الحديقة، ومثنويات كنوز الرموز وحديقة

---

(١) في الأدب المقارن نظمي عبد البديع ص ٨٥٠

(٢) ولد في غزنة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وتوفي عام ٥٢٦هـ ١١٣١م. ويعتبر أول الشعراء المتصوفين الثلاثة العظام ممن كتبوا المثنويات في إيران وثانيهم فريد الدين العطار وثالثهم جلال الدين الرومي انظر تأثير الثقافة الإسلامية في=

الحدائق سير العباد إلى المعاد[1] وغيرها وقد اتصل في أول حياته بملوك غزنه إلا أنه تزهد وتصوف وحج على قدم التجريد وهنا تدفق الطوفان الإبداعي على لسانه شعراً تردد على ألسنة معاصريه وتتلمذ عليه من سلك أما معراج السنائي فقد نشره في كتابه «سير العباد إلى العباد» ليشرح رجوع النفس من عالمها المظلم الذي سقطت فيه إلى أصلها الإلهي ومقرها الأخير وهي ذات أسلوب صوفي رمزي، يصور فها سنائي الفكرة الفلسفية التي تقول بأن الكائنات تمضي في حركة دائبة نحو اتجاهين: فهي تجيء من الله وفيضه على العقل الكلي ثم الأنفس الجزئية ثم تعود من جديد إليه متحررة من الكثرة صاعدة نحو الوحدة[2].

أما متصوفة الأدب العربي فقد جذبتهم قصة المعراج بصورها العلوية، وأنوارها السماوية دون شك، وأوضح من تأثر بها إمامان كبيران هما محيي الدين بن عربي الأندلس[3] وأبو زيد البسطامي[4].

فقد رسم ابن عربي في كتابة الفتوحات المكية «الحياة الآخرة» رسماً دقيقاً، ووصف الجنة والنار بأنها فوق البيت المقدس وتحتها مباشرة، وقسم

---

= الكوميديا الإلٰهية لدانتي صلاح فضل ص ٩٨، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(١) الإقبال ١٩٣٨م كتاب جاويد ناجة أي الكتب الخالدة وهو كرسالة الغفران والكوميديا الإلٰهية.

(٢) تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي صلاح فضل ص ٩٨، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٣) هو محيي الدين أبو بكر محمد بن علي المعروف بابن العربي الحاتمي الطائي شيخ مشايخ الصوفية وإمام أئمة الطرق الإسلامية في عصره انظر تاريخ الآداب العربية رشيد يوسف عطا الله تحقيق على نجيب عطوي ج ٢ ص ١٧١، عز الدين للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٤) هو أبو زيد بن طيفور بن عيسى البسطامي قيل مات سنة: إحدى وستين ومائتين، وقيل أربع وثلاثين ومائتين انظر الرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشري تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ج ١ ص ٨٧، دار الكتب الحديثة مطبعة حسان.

النار والجنة إلى سبع طبقات، وصور مكان الملائكة المسبحين حول النور القدسي[1].

ولعل أوضح أثر لقصة المعراج إنما كان في معراج أبي يزيد البسطامي، الذي حاول فيه أن يرسم معالم الطريق إلى الله، متنقلاً من مقام إلى آخر يحدوه صدق الإرادة في الوصوف إلى غايته، متجرداً عن السوى، فانياً عن الذات جاعلاً مقصده الأسمى وغايته الكبرى التحقق بمقام الشهود، وإليك بعض كلماته مما نقله إلينا أبو القاسم العارف رضي الله عنه عن خادمه قال: سمعت أبا يزيد البسطامي رضي الله عنه: «أني رأيت في المنام كأني عرجت إلى السموات قاصداً إلى الله، على أن أقيم معه إلى الأبد فامتحنت بامتحان لا تقوم له السموات والأرض ومن فيهما إذ بسط لي بساط العطايا نوعاً بعد نوع وعرض على ملك كل سماء، ففي ذلك كنت أغض بصري عنها، ولما علمت أنه بها يجريني فكنت لا التفت إليها إجلالاً لحرم ربي، وكنت أقول في ذلك، يا عزيزي مرادي غير ما تعرض علي قال: فقلت له: رحمك الله!! صف لي مما عرض عليك من كل سماء[2] ثم مضى أبو زيد البسطامي يذكر ما رآه في السماء الدنيا من طير أخضر نشر جناحاً من أجنحته فحملته إلى صفوف ملائكة يضعون أقدامهم بالنجوم فتساءلوا عن بشر يصعد إلى مقر الأملاك فألهم كلمات قالها ثم صعد في السماء الثانية فرأى فوجاً من الملائكة يستقبلونه استقبال مدينة لأميرها وتقدم إلى روضة خضرة تحوي نهراً وحوله ملائكة يطيرون إلى الأرض كل يوم مائة ألف مرة، وعلى حافتيه أشجار من نور ولها أغصان كثيرة متدلية في الهواء أخرى وفي كل غصن وكر طير وفي كل وكر ملك ساجد فترك ذلك إلى سماوات أخرى فإذا جميع الملائكة يسلمون علي أو إذا منهم له أربع

---

(١) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت الجزء السادس من المجلد الرابع عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران ص ٣٢٥، الطبعة الثانية.

(٢) الإسراء والمعراج هدية مجلة منبر الإسلام رجب ١٣٩٢هـ - أغسطس ١٩٧٢م محمد عبد الستار نصار ص ١١٣، ١١٤، وكذا اليوم الآخريين الشرق والغرب محمد رجب البيومي ص ١٥٩، ٨١٦٠

أوجه وجه يلي السماء ووجه يلي الأرض ووجه لي الملائكة ووجه يبعث بجنوده يسبحون الله في كل مكان ثم نشر جناحاً من أجنحته فإذا على كل ريشة من ريشه قنديل يظلم ضياء الشمس في ضوئه وقد أغواه الملك بأشياء ترفع عنها إذ أن مراده الأسمى يجل عن الإغراء ثم ارتقى مجلس على كرسي فوق شاطيء بحر عجاج لا أول له ولا نهاية فألهم التسبيح مشغولاً يذكر الله عن كل شيء.

فإذا ملائكة قيام في السماء رؤوسهم في أجوازها العالية يقطر منهم نور تبرق له السموات ويسبحون الله بكل لغة فرد عليهم بلغاتهم جميعاً. وما زال يرتقي ويطير ويجول مملكة بعد مملكة، وحجباً بعد حجب، وميداناً بعد ميدان، وبحاراً بعد بحار وأستاراً بعد أستار، حتى انتهى إلى الكرسي فاستقبلته ملائكة لهم عيون عدد نجوم السموات، يبرق من كل عين نور تلمع منه فتصير تلك الأنوار قناديل حيث يسمع من جوف كل قنديل تسبيح وتهليل ثم لم يزل يطير حتى انتهى إلى بحر من نور تتلاطم أمواجه، يظلم في جبنه ضياء الشمس، وعلى البحر سفن من نور، يظلم في جنب نورها أنوار تلك الأبحر، وما زال يعبر بحاراً بعد بحار، حتى انتهى إلى البحر الأعظم، الذي عليه عرش الرحمن، فلم يزل يسبح فيه حتى رأى ما من العرش إلى الثرى، من الملائكة الكروبين وحملة العرش وغيرهم ممن خلق الله سبحانه وتعالى في السموات والأرض أصغر من حيث طيران سحري في القصد إليه من خردلة بين السماء والأرض، ثم لم يزل يعرض عليه من لطائف بره وكمال قدرته وعظم مملكته ما كلت الألسن عن لغته وصفته ففي كل ذلك كان يقول: يا عزيزي!! مرادي غير ما تعرض علي، فلم يلتفت إليه إجلالاً لحرمته، فلما علم الله سبحانه وتعالى مني صدق الإرادة في القصد إليه فنادى: إلي إلي، وقال: يا صفيي: أدن مني، وأشرف على مشرفات بهائي وميادين ضيائي، وأجلس على بساط قدسي ثم سقاني شربة من عين اللطف بكأس الأنس، ثم قابل روح محمد فسلم عليه وأوصاه[1].

(١) اليوم الآخر بين الشرق والغرب محمد رجب البيومي ص ١٥٩، ١٦٠، ١٦١ ـ ١٩٨٧م.

تلك خيوط من معراج البسطامي، وهي رحلة روحية بديعة تجسم المعنويات في صور حية تنطلق بالبراعة والإبداع وليس لنا أن نناقش هذا المعراج طالما كان ذلك في المنام لا في الواقع، كما أنه يجوز أن يكون من قبيل الشطح الصوفي الذي اشتهر به هذا الصوفي الكبير من بين صوفية الإسلام على وجه أخص.

وقد أثبت البحر العلمي أن أثر المعراج لم يقف عند حدود الأدب العربي بل كان لهذه القصة آثارها العالمية في جميع العصور، ولقد كان أبرز الصور الواضحة لهذا الأثر ما خلفه أديب إيطاليا الأشهر «دانتي الإلجيري» في مؤلفه العظيم «الكوميديا الإلهية» وقد كان الفضل في إبراز معالم الصلة القوية بين قصة المعراج وكوميديا دانتي، راجعاً إلى المستشرق الإسباني آسين للإسيوس، الذي ألف كتاباً خاصاً عن المعراج والكوميديا الإلهية، بين فيه كيف كان المعراج النبوي هو النموذج الذي اقتفاه دانتي في الكوميديا الإلٰهية وقد أيد ذلك بكثير من الحجج الدامغة التي أسكتت المعارضين، ولعل أهم ما قدمه من أدله قد كشفوا أخيراً عن نص الترجمة اللاتينية والفرنسية للأصل العربي الخاص «بقصة المعراج» وقد ثبت أن هاتين الترجمتين كانتا معروفتين في إيطاليا في القرن الرابع عشر، وقد عملت هذه الترجمة في قصر الملك الفونسو في أشبيلية في عام ١٢٦٤م، حيث قام الطبيب إبراهيم الفقين بترجمة قصة المعراج إلى لغة قشتالة وقد فقدت هذه الترجمة.

وتولى ترجمة النص الإسباني إلى اللغة اللاتينية والفرنسية العالم الإيطالي بونا فنتبورا الذي كان سكرتير الفونسو «١٢٢١ ـ ١٢٧٤» ووجدت نسخ هذه الترجمة في أكسفورد وباريس والفاتيكان.

وبهذا أصبح مؤكداً لدى العلماء[١] أن دانتي وقد انتشرت هذه

---

(١) اليوم الآخر بين الشرق والغرب محمد رجب البيومي ص ١٥٤، ١٥٥، وكذا في الأدب المقارن نظمي عبد البديع ص ٥٣.

النصوص قبل ميلاده قد اقتبس فكرة كوميدياه من «المعراج» وتأثر به في نثره وفي نظمه واستقى إلهامه من تلك القصة الشهيرة، التي كانت المورد الصافي والمنبع الثر والتي توارد عليها الفكر الإنساني العالمي سواء في الشرق أو في الغرب[1].

## دانتي والمعري:

وكما أخرج المعري رسالة الغفران، أخرج الشاعر الإيطالي دانتي[2] «الملهاة المقدسة» ونحا فيها نحو المعري في التطواف بالجنة والنار وتحدث إلى أهلهما، ورسم صوراً دقيقة لما يلقاه هؤلاء من نعيم، وما يلقاه أولئك من بلاء وأهوال وإذا كان المعري قد جعل ابن القارح «سفيره» إلى العالم الأخروي حتى يجنب هو نفسه التصادم بالناس، والفرق في انزحام هناك - فإن دانتي قد اتخذ له في هذا العالم دليلاً يدله عليه، ويفسح له الطريق فيه هذا الدليل هو «فرجيل».

وتؤكد الدراسات الحديثة ما استمده دانتي من المصادر الشرقية وبخاصة المصادر الإسلامية كقصة المعراج، ووصف الجحيم الوارد في القرآن، ووصف الجنة والنار في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وفتوحات ابن عربي[3] فإذا أخذنا في المقارنة بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية وجدنا أننا أمام رحلة للعالم الآخر تتميز بخلوها من عناصر الخوارق والمعجزات التي تحفل بها روايات الإسراء والمعراج عادة، فبإستثناء الفكرة

---

(١) وفي هذا رد على الذين يوهموننا بأن أسطورة أورفيوس الذي زار عالم الموني ليعود بحسيبته يوريديس يمكن أن تكون أساساً لإبداع المعري.

(٢) هو دانتي اليحبيري ولد في مدينة فلورنسا يوم ٨ مايو سنة ١٢٦٥م ومن أشهر مؤلفاته الكوميديا الإلهية، انظر موسوعة تراث الإنسانية المجلد الخامس، إبراهيم المويلحي ص ٢٦٠، وما بعدها.

(٣) في الأدب المقارن نظمي عبد البديع ص ٥١، وكذا قصة الحضارة تأليف ول دويرانت الجزء السادس من المجلد الرابع عصر الإيمان ترجمة محمد بدران ص ٣٢٥، الطبعة الثانية، أنفقت على ترجمة الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية.

الأساسية للرحلة ـ التي تقع في نطاق المعجزات تمضي الحوادث بعد ذلك على نسق أقرب ما يكون إلى منطق الحياة المألوف فالمسافر عند أبي العلاء ليس نبياً ولا ولياً ولا من كبار الأبطال» ولكنه مجرد إنسان عادي يقترف الذنوب ويسعى في الأرض، مثله في ذلك مثل دانتي بطل الكوميديا الإلٰهية، كما أن الشخصيات التي تقوم بالأدوار الثانوية الأخرى ليست في معظمها من الأنبياء ولا الأولياء، وإنما هم أناس عاديون منهم المؤمن والكافر مثل الذين نجدهم أيضاً عند الشاعر الإيطالي. وعلى هذا فإن الخاصية الإنسانية الواقعية الأرضية في الكوميديا الإلٰهية تجد سابقتها الأدبية الكبرى عند شاعر المعرة العربي ولكي يستطيع أبو العلاء أن يحقق الهدف المزدوج من رحلته ذات الصبغة الأدبية المغزى الديني معاً فقد ابتدع حيلة فنية مؤداها أن يلتقي الباطل المسافر «ابن القارح» في الجنة أو في الجحيم بعدد هائل من الشخصيات المختلفة في أعمارها وظروفها وجنسها وعقيدتها، وإن كان الأغلبية العظمى منهم ينتمي مهنياً إلى مجال محدد هو الاشتغال بالعلم والأدب.

وهذا معناه أن أبا العلاء قد ملأ حجرات الفردوس وكهوف الجحيم بعدد ضخم من الرجال والنساء المسلمين والمسيحيين والجاهلين، والوضعاء، والشرفاء، والفقراء والأغنياء، والشباب والشيوخ لكنهم جميعاً تقريباً أدباء وشعراء وعلماء لأن هدفه الأول والرئيسي من رحلته كان هو إجراء لون من النقد الأدبي واللغوي بالإضافة إلى هدف آخر ثانوي هو مقاومة الفكرة السائدة لدى علماء الكلام في عصره عن تضيق حظيرة الدين بفكرة أخرى عن رحمة الله التي وسعت كل شيء فجميع شخصيات المعري تقريباً واقعية تماماً ومن الثابت أنها كانت موجودة تاريخياً ومشهورة في الأدب العربي بأكمله، بل إن بعضها معاصر لأبي العلاء نفسه وشديد القرب منه ومن حياته.

على أن توزيعها مكانياً في الجنة أو النار يتميز بخاصية بارزة، إذ يلقاهم المسافر في الجنة وهم جماعات صغيرة تلتقي في حلقات تدور كل منها حول جنس أدبي معين، فهناك علماء اللغة وهناك الشعراء المغنون

والهجاؤون وشعراء الرجز.

أما في الجحيم فهم على العكس من ذلك يبدون له أفراداً مشتتين أو معزولين عن غيرهم، وسواء كان المسافر في الجنة أو في الجحيم فهو الذي يبادر من يلقاه بالسؤال عن شخص يود أن يراه، وقد يظهر له هذا الشخص فجأة دون أن يسأل عنه، وعادة ما يشيرون له إلى مكانه في الحالة الأولى، أما في الحالة الثانية فكثيراً ما لا يستطيع المسافر أن يتعرف على محدثه للوهلة الأولى لما انتاب ملامحه من التغيير، مما يجعله مضطراً لسؤاله عن اسمه فإذا تبادل أطراف الحديث مع أحد من أهل الجنة أو النار كان موضوع الحوار الرئيسي دائماً حول مسألة غامضة أو مثيرة في أعمالهم الأدبية والشعرية، وليس من النادر أن تجد إشارة إلى واقعة في حياتهم الخاصة تتصل بفضائلهم أو ذنوبهم أو فقرة من أشعارهم توضح المصير الذي انتهوا إليه في العالم الآخر.

ويتميز المعيار الذي يعتمد عليه المعري لوضع شخصياته في الجنة أو النار بالسعة والرحمة واللطف وتحرر النظرة، مما كان يصطدم بلا شك بمنظور الفقهاء الذين يرون في دخول أناس معروفين بكفرهم وفسوقهم الجنة زندقة لا تغتفر.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن المعري إذن كان يحتكم إلى ميوله وأهوائه الأدبية لسلم بعض الأرواح إلى الجنة أو النار كما يتراءى له شامتاً فيهم أو آسفاً عليهم معرباً في كل حالة عن رفقه بهم أو سخريته منهم أو غبطته لهم طبقاً لظروف كل موقف ورأيه الشخصي في إبطاله[1].

ونفس هذه الوسائل الفنية التي استخدمها المفكر الإسلامي هي التي تظهر مرة أخرى في الكوميديا الإلهية، حيث يستخدمها دانتي لأغراضه وخططه التي كانت أشد طموحاً وأبعد مدى مما رأيناه عند المعري. فكأن

---

(١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ومعها نص تحقيق من رسالة ابن القارح تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ص ١٢٩ ـ ٣٧٩.

الشاعر الإيطالي قد وسع من المجال الذي شقه في قلبه الشاعر الإسلامي متجاوزاً الحدود الأدبية البحتة التي وقف عندها المعري ليضع في نفس الإطار تقريباً أسطورة أعظم وأثرى في تفاصيلها ودلالتها، إذ تتضمن رؤية المؤلف للكون والوجود، ولا تقتصر على الأفكار اللغوية والأدبية بل تشمل جملة معارفه وعلوم عصره، فالكوميديا الإلهية في واقع الأمر تعد موسوعة هائلة لجميع علوم العصر الوسيط، واستعاراتها التعليمية هي في نفس الوقت مجاز خلقي وسياسي وديني، فإذا كان المعري قد انتهج لنفسه خطة الكشف عن معارفه الأدبية واللغوية وأحكامه النقدية على كبار الشعراء فإن دانتي ترك في ملحمته ملخصاً لمعارفه العلمية والتاريخية وتجاربه الدينية والسياسية بشكل موسوعي يكاد يستغرق كل ما عرف به عصره.

ومن هنا نجد أن عدد شخصيات دانتي أكبر بكثير من عدد شخصيات المعري، ويضاف إلى هذا التفوق العددي تنوع الشخصيات عند الشاعر الإيطالي، لأن الطبقات الأدبية التي يعتمد عليها المعري قد أصبحت عند دانتي طبقات اجتماعية، فشخصياته التاريخية والأسطورية تنتمي إلى جميع المستويات وقد صورت كلها بطريقة واقعية حية، وتبدو الأرواح لدانتي في الفردوس وهي مجتمعه في طوائف، بعكس ما نجدها في الجحيم متفرقة منعزلة، كما نجد أن حلقات الأجناس الأدبية التي وجدناها عند المعري تقابل عند دانتي الحلقات التي تتكون في كل سماء من رجال الدين تارة والفرسان المحاربين أو القضاة أو أهل الصوامع تارة أخرى.

وكما رأينا في رحلة أبي العلاء نجد أن الحوار عند دانتي يسير على نفس النسق، فإما أن يسأل المسافر محدثه عن المكان الذي يمكن أن يلتقي فيه بروح فلان، وإما أن تظهر له الروح فجأة على غير موعد دون أن يسأل عنها، وفي كلتا الحالتين فإن محدثيه يشيرون له إلى بغيته، أو يصبح من العسير عليه أن يتعرف على شخصيته لتبدل ملامحه فيسأله عن اسمه.

وإذا كان اختلاف التصميم والهدف في كل من الأثرين يجعل الحوار الذي يعقده دانتي أكثر تنوعاً في موضوعاته وثراء في تفاصيله من الأثر

العربي الذي يكاد يقتصر على القضايا الأدبية واللغوية، فإن كلا منهما يحتوي على إشارات محددة للحياة الدنيا ووقائعها، كما أننا لا تعدم في محاورات دانتي ـ خاصة في الجحيم والمطهرة ما يتصل بالحياة الأدبية والفنية لمحدثيه من شعراء وموسيقيين، مما يبين لنا وجوه شبه عديدة وموحية بما رأيناه عند المعري من قبل[1].

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الطابع الأدبي الذي تميزت به رسالة الغفران، والذي أضفى على التراث الديني للمعراج سمة أدبية وفنية هو نفس الطابع المميز للكوميديا الإلهية كملحمة فنية قبل أن تكون موسوعة دينية أو أخلاقية مجازية.

كما يتفق دانتي مع أبي العلاء في معاني التسامح وسعة الأفق في معاملة الأرواح، إذ يتصور دانتي أبطاله من عذاب الجحيم ومنهم الشعراء والوثنيون والمسلمون وغيرهم، فيضع في المطهر قيصر وسقراط وأفلاطون وأرسطو وفرجيل وشيشرون وسينيكا إلى جوار ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبي، ثم يرقى ببعض هؤلاء إلى الجنة ويبقى الآخرين في المطهر، كما نجد أن ميوله وأهواءه السياسية تحدد أيضاً اتهامه وإدانته لبعض رجال الكنيسة من عصره وإدخالهم نار جهنم ومنهم أمراء مسيحيون ساء مصيرهم عند دانتي لا لعقيدتهم الدينية وإنما لممارستهم للأعمال العامة على غير هواه، كما أن مشاهد الجنة والعذاب تثير عند الشاعر الإيطالي نفس المشاعر التي أثارتها من قبل عند أبي العلاء المعري من رقة وإعجاب أو سخرية وغضب طبقاً لكل حالة من الحالات[2].

وإلى جانب هذه الملامح العامة التي يلتقي فيها دانتي مع المعري

---

(١) تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي صلاح فضل ص ٧٥، ٧٦ منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي صلاح فضل ص ٧٧، وكذا موسوعة تراث الإنسانية المجلد الخامس الكوميديا الإلهية بقلم الأستاذ إبراهيم المويلحي ص ٦٢٥، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة.

هناك بعض الحوادث الخاصة التي يصل فيها التشابه إلى درجة التطابق، بالإضافة إلى بعض الملامح المحددة الأخرى، فمن قبيل النوع الأول ما نجده في رسالة الغفران من لقاء ابن القارح بحوريتين من الحور العين، يبهره جمالهما، فيقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها، ويتمثل في حسنها بأبيات لأمرىء القيس، فيستغربان في الضحك، وتقول إحداهما: أتدري من أنا يا علي بن منصور؟ فيقول: أنت من حور الجنان اللواتي خلقهم الله جزاء للمتقين. فتقول: أنا كذلك بإنعام الله العظيم، على أني كنت في الدار العاجلة أعرف بحمدونة وأسكن في باب العراق بحلب، وأبي صاحب رحى، وتزوجني رجل يبيع السقط؟ فطلقني لرائحة كرهها من فيّ وكنت من أقبح نساء حلب، فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا الغرارة وتوفرت على العبادة فصيرني ذلك إلى ما ترى.

وتقول الأخرى: أتدري من أنا يا علي بن منصور؟ أنا توفيق السوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد، وكنت أخرج الكتب إلى النساخ فيقول: لا إله إلا الله. لقد كنت سوداء فعدت أنصع من الكافور[1].

فلو تغاضينا عن أسلوب المعري الساخر في هذه الحادثة لوجدنا شبهاً بعيداً بينها وبين بعض الحوادث عند دانتي، مثل لقائه مع «بياسينا» في المطهر، ومع «بيكاردادوناتي» الفلورنسية في سماء القمر، ومع «كوينزادي بادوا» في سماء الزهرة، حيث تنعى أولاهن ـ مثل حمدونة ـ حظها التعيس وشقاءها في حياتها الزوجية، وما تبدو عليه «بيكاردا» من جمال رائع وحسن فتان يدهش دانتي لأنها لم تكن كذلك أبداً في الحياة الدنيا مثل توفيق السوداء. كلهن يتقدمن إلى دانتي، ويذكرن له أسماءهن في الدنيا وموطنهن كي يشبعن فضوله ويثرن عجبه بنفس طريقة الغفران.

ومن قبيل هذا النوع من التشابه كذلك لقاء ابن القارح بآدم عليه

---

(١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، تحقيق عائشة عبد الرحمن ص ٢٨٤ ـ ٢٨٧، دار المعارف الطبعة الثامنة، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م.

السلام في الجنة حيث نرى أن موضوع الحديث الرئيسي بينهما هو اللغة الفطرية الأولى التي كان يتحدث بها أبو البشر، فيقول آدم: إنما كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة، فلما هبطت إلى الأرض نقل لساني إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت فلما ردني الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت على العربية[١].

كذلك يلتقي في السماء الثامنة بآدم، حيث يكون موضوع الحوار الرئيسي بينهما هو أيضاً اللغة التي كان يتحدث بها أبو البشر خلال إقامته في جنة الأرض[٢]. هذا مع اختلاف اللغات يعزوها دانتي إلى آدم عن تلك التي ذكرها المعري بطبيعة الحال.

وعندما يعود ابن القارح من الجحيم تلقاه الحورية المكلفة بخدمته فتلومه برقة على تأخره، وتصحبه في نزهته بين حدائق الجنان وأهاضيب الفردوس، وهذا نفس ما تفعله الحسناء «ماتيلدي» مع دانتي حيث تلقاه باسمة عاتبة عند دخوله غابة الفردوس الأرضي، وتجيب على أسئلة بلطف ومهارة، ويمضي في نزهته معها حتى تقع عينه على كوكبة من الحسان اللاتي يحطن بحبيبة «بياتريش» وهي تهبط من السماء للقائه، كما وقعت عين ابن القارح من قبله على كوكبة مماثلة من الحوريات وهن يحطن بحبيبة امرىء القيس التي خلد ذكرها في أشعاره[٣].

وتمضي الرحلة التي يقوم بها ابن القارح إلى الجحيم على نفس الوتيرة التي تسير بها رحلة دانتي بالرغم من اتجاهها العكسي فقد بدأ «المعري» رحلة صاحبه «ابن القارح» بموقف الحساب ثم أدخله الجنة

---

(١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، تحقيق «بنت الشاطىء» عائشة عبد الرحمن ص ٣٦١، ٣٦٢، دار المعارف، الطبعة الثامنة، ١٣٦٧ ـ ١٩٧٧م.

(٢) ترجمة الكوميديا الإلهية لدانتي حسن عثمان ج ٣، الفردوس النشيد السادس والعشرُون أبيات ٧٤ ـ ٩١، القاهرة ١٩٦٩م.

(٣) رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن ص ٣٧٣، دار المعارف، الطبعة الثامنة، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

وأشرف به على النار فابتدأ بالفردوس، وأطلق لخياله العنان، وفي السخر وفي الدعابة، ويسخر مع الشعراء والأدباء والنحاة بل مع إبليس، ومع الخزنة خزنة النيران يرى المعذب تتدلق أقتابه، ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت فيحاوره في النحو والصرف، وفي الرواية والتصحيف، دون أن تجدي لديه ضراعة المعذبين واعتذارهم عن الإجابة بما هم فيه ولم يصحب المعري دليلاً في رحلة ايناسا لابن القارح.

أما «دانتي» كان هلوع القلب ابتدأ الرحلة بالجحيم فلم يطلق السير في ظلماتها وحيداً فصحب الشاعر العظيم فرجيل، يؤنسه ويهديه سواء السبيل.

## الجحيم عند دانتي:

إذا تحدث الأدباء عن جحيم دانتي إنما يريدون تلك الكوميدية التي لم تقصر نفسها على الجحيم تذكر طبقاته وحراسه ومعذبيه، بل ضمت جوانحها ثلاث نواح الجحيم، المطهر أو الأعراف، الجنة. وتلك أقسام ثلاثة سار فيها على نهج «أبي العلاء المعري» في التقسيم واستغرق الوصف لرحلته في الآخرة مائة نشيد تناولت رؤى إنسانية في الآخرة وقد شغلت أوروبا فكراً منذ ابتداعها ودخل بها «دانتي» مجمع الخالدين[1].

غير أن «دانتي» قد خالف «المعري» في بعض الجزئيات التي لا تقدح في صحة التأثير بالفكرة التي للمعري.

إن دانتي في وصف الجحيم كان أكثر إسهاباً وأشد قوة ومن هنا طغى اسم الجحيم على الرواية كلها واستأثر بالاسم وحده بين كثير من المتأدبين.

ولكن المعري لم يعن بجهنم كما عنى بالفردوس ولم يسهب في وصفها كما أسهب في وصف الجنة.

كما لم يعن المعري بقسيم الجحيم إلى طبقات، لكل طبقة من العصاة

---

(١) في الأدب المقارن نظمي عبد البديع ص ٥١.

والمذنبين جزء مقسوم ولم يسهب في وصف أهوالها وآلامها إسهاب «دانتي» بل كان كل همه لقاء الشعراء وحوارهم فيما نسب إليهم من شعر وفي تصحيح الرواية، وبيان الوجوه النحوية واللغوية والصرفية[1].

أما دانتي فقد بذل مجهوداً عظيماً في تقسيم جهنم، فقسمها إلى تسع حلقات اختص كل منها بطائفة من المعذبين، وصف ما هم فيه من عذاب وآلام وصفاً مؤثراً بليغاً.

ففي الحلقة الأولى رأى الملائكة الذين لم يطيعوا الله ولم يطيعوا إبليس حينما تمرد على ربه انتظاراً للنتيجة حتى يتبعوا الغالب في زعمهم، ثم أرى خلقاً كثيراً عريت أجسامهم، وانتهابتها أفواج من الذباب والزنابير تدمي جلودهم، وتنهل من دمائهم.

وفي الحلقة الثانية: رأى المحبين الذين أسرفوا فألقوا أنفسهم في حمأة الخطيئة الشرهيين المفرطين في الأكل، الطفيليين.

وفي الحلقة الثالثة: ويتلخص عذابهم في تساقط الأرواح المهيمين البرد عليهم وقطع الجليد يمزق كلب ضخم جلودهم بمخالبه.

وفي الحلقة الرابعة: رأى البخلاء والمسرفين يلعن بعضهم بعضاً ويقول الأولون للآخرين: لماذا أفترتم؟ فيقول الآخرون للأولين: لماذا أسرفتم؟ ولن يغني تخاصم أهل النار عنهم من العذاب من شيء.

وفي الحلقة الخامسة: يرى الحمقى الذين كان يمتلكهم الغضب وهو يضرب بعضهم بعضاً. ثم يرى المتكبرين في بركة سوداء مليئة بالأوحال والأقذار وهم يتقلبون فيها خاشعين ينظرون من الذل من طرف خفي.

وفي الحلقة السادسة: فهي عبارة عن مقابر متراصة تزخر بالأنين وباللهب وقد أعدت لمن أنكروا وجود الله.

---

(١) رسالة الغفراني لأبي العلاء المعري ومعها نص تحقيق من رسالة ابن القارح، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء» ص ٢٨٩ وما بعدها.

وفي الحلقة السابعة: رأى نهر من دم يغلي يغوص فيه السفاكون وقاطعوا الطريق.

وفي الحلقة الثامنة: رأى رجال الدين المتجرين به، والذين كانوا يدعون أنهم خلفاء المسيح الذي أحب الفقر وآثره على الغنى. بينما هم يتساقطون على الحطام تساقط الذباب على العسل، والكلاب على الجيف، ورأى المنجمين والمخادعين وهم يلبسون أثواباً باطنها رصاص يشوي الوجوه وظاهرها ذهب لامع براق جزاء وفاقاً على ريائهم ودهانهم.

وفي الحلقة التاسعة: زمهرير تجمد ماؤه، وضم في أحشائه إبليس والذين خانوا أوطانهم مسيباً في وصف هؤلاء الخائنين مفتناً في ذكر ما أعد لهم من عذاب أليم[1].

وقد تحدث المعري عن حراس الجحيم في قلة وفي دعاية ثم ذكر قليلاً من أعمالهم ووظائفهم، على حين أن دانتي ذكر لكل حلقة من حلقات جهنم حارساً أو جملة أحراس، وأسهب في وصف أعمالهم وما يصبونه فوق رؤوس المعذبين من عذاب.

وحراس الجحيم عند «دانتي» شياطين وعند «أبي العلاء» ملائكة تأثراً منه بالفكر الإسلامي في ذلك.

ولم يكن «المعري» هو الرائد الوحيد - عن طريق ابن القارح الذي جاس خلال المحشر، وطوف بالجنة والنار وتحدث إلى أهلهما، وإنما كان كثيرون من الشرق ومن الغرب سبقوه أو جاءوا بعده وكادت - تصوراتهم تلتقي مع تصوراته لمشاهد القيامة، ولما يلقى الناس من ثواب وعقاب[2].

---

(١) موسوعة تراث الإنسانية المجلد الخامس الكوميديا الإلهية بقلم الأستاذ إبراهيم المويلحي ص ٦٢٧، ٦٢٨، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة سلسلة تتناول بالتعريف والبحث والتحليل وروائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية.

(٢) النقد الأدبي الحديث محمد غنيمي هلال ص ٤٩٦، ٤٩٧، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

ومن هنا كان أدب الرحلة إلى الآخرة قيمة إنسانية غالية وتراث خالد بما فيه من مؤثر قوي في أنماط الآداب فنجد أن حديث القرآن الكريم عن اليوم الآخر له أثره في التراث الفارسي ويظهر ذلك الأثر واضحاً فيما نعرفه من أشعار المتصوفة بفارس، وهم مسلمون قد درسوا عقائد دينهم وألموا بحياة رسولهم ثم جذبتهم قصة المعراج إلى رحلات خيالية بديعة قاموا بها على جناح الشوق إلى آفاقهم الروحية، ومن أشهرهم في ذلك شيخهم الأكبر سنائي[1].

وقد بينا أن متصوفة الأدب العربي قد جذبهم حديث «القرآن الكريم» عن اليوم الآخر وجذبتهم قصة المعراج بصورها العلوية، وأنوارها السماوية وأوضح من تأثر بها على نحو ما بينا إمامان كبيران هما: البنين بن عربي الأندلسي وأبو زيد البسطامي.

وقد أثبت البحث العلمي أن أثر حديث القرآن الكريم عن اليوم الآخر وحديث المعراج لم يقف عند حدود الأدب العربي، بل كان لهذا كله آثاره العالمية في جميع العصور، ولقد كان أبرز الصور الواضحة لهذا الأثر كما أوضحنا ما خلفه أديب إيطاليا الأشهر «دانتي الالجيري» في مؤلفه العظيم «الكوميديا الإلهية».

وقد سبق أن بينا مدى تأثر دانتي بالمعري في رسالته «رسالة الغفران» وفتوحات ابن عربي[2].

ولكن الموضوع من ناحية، وطريقة العرض الفني من ناحية أخرى أكبر وأوسع من أن يقتصر على هذين العلمين الأدبيين، وما يزالان يصلحان للإيحاء الفني في شتى الاتجاهات، لو أرادت الفنون المختلفة من شعر

---

(١) تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي صلاح فضل، ص ٩٨، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) قصة الحضارة، تأليف ديورانت الجزء السادس من المجلد الرابع عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران ص ٣٢٥، الطبعة الثانية أنفقت على ترجمة الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية.

وقصة ومسرحية وموسيقا وتصوير أن تتخذ منهما مادة فنية خصبة رائعة الخيال.

ومن هنا كان الأدب الآخرة قيمة إنسانية وأدبية خالدة مستمرة وتراث ما زال يؤثر ويعطي الكثير بلا حدود. كما أنه على هدى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أخذ الخطباء يصوغون خطبهم فلقد كان ظهور الإسلام من أهم الأحداث ذات الشأن والخطر، تلك الأحداث التي أطلقت الألسن من عقالها وأثارت الخطابة من مكانها ومنحتها قوة فوق ما كانت عليه في جاهليتها فارتقت رقياً سريعاً وقفزت إلى أوج مجدها قفزة قوية متينة رفعتها إلى ذروة الارتقاء في الأعصر الأدبية العربية كلها[1].

فقد كان للخطباء من القرآن والحديث النبوي الشريف مدد لا ينفذ ومعين لا ينضب فقد شغف الخطباء في كل عصر من العصور بالقرآن الكريم وأعجبوا ببلاغته وأسلوبه وإعجازه، وحفظوا سوره وآياته، وقاموا على تلاوته وترتيله، وأسلوب القرآن أسلوب الخطابة المعجز البليغ بسجعه وجرسه وانسجامه، وأغراض القرآن أغراض الخطابة نفسها من وعد ووعيد ودعوة وإقناع، وحجة وفكرة وأحكام، وحض على، وللمعري مقام فريد بين شعراء العربية لا من حيث أسلوبه وفنه ولكن من حيث روحه ونظرته إلى الدنيا[2].

فنظرة أبي العلاء إلى الدنيا نظرة الازدراء والسخرية فهو يعرف حقيقتها ونهايتها ورأيه في الموت أنه نهاية كل حي وغاية كل سعي ثم شاهدناه وقد تخلى عن دنياه واتجه إلى العزلة فراراً من البشرية التي تهافتت على الماديات وغرقت في بحار الشهوات وما البشر في الحقيقة إلا أشباح أناس في الزمان تلوح وتختفي وواقع الأمر أن متاع الدنيا قليل والآخرة خير وأبقى. ولذا فهو يتمنى الموت فراراً من هذا العالم الذي ينطوي على

---

(١) منهج القرآن والسنة في الدعوة إلى الله تعالى محمود يوسف كربت ص ١٠٧، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، مطبعة النهضة العربية.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جورجي زيدان ج ٢ ص ٣٠٩.

الشرور والآثام والقدر والخيانة. لقد ربط المعري إذن بين الموت والآخرة فإذا كان يحدد سؤات الحياة ويبحث على التزود للآخرة ويرحم بالموت فإنه يعتبر في ذلك الراحة الأبدية والنعيم وفي ذلك رجاء ورحمة الله وعفوه.

وفي حديثه عما بعد الموت يدور شعره نحو البعث والحساب والجنة والنار. فالناس ينقلون من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد يقول:

خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعمال ... إلى دار شقوة أو رشاد[1]

ويذكر المعري يوم الحساب فيقول:

إن صحَّ لي أنني سَعيد ... فهلبتني ضمَّني صعيدُ
صُمْتُ حياتي إلى مماتي ... لعلَّ يومَ الحمامِ عيدُ
وراعني للحساب ذِكر ... وغرَّني أنهُ بعيدُ
وعنْ يميني وعنْ شمالي ... يَضحبني حافظ قَعيدُ[2]
حمامة في غصون أيكٍ ... ناحت فأنشأتُ استعيدُ
وما فَقِهتُ المرادَ منها ... كلَّ فقيهٍ له مُعيدُ[3]
إذا رَجَوْنا قضاء وعدٍ ... فكيفَ لا يُرْهَبُ الوعيدُ؟[4]

---

(١) سقط الزند ج ٣ ص ٩٧٨ ـ ٩٧٩.

(٢) الحفظة: الملائكة الذي يحصون أعمال بني آدم وقعيد من قوله تعالى: «عن اليمين وعن الشمال قعيد» بمعنى القاعدي أي المجالس أو الحافظ وفعيل ومفعول مما يستوى فيها الواحد والإثنان والجمع.

(٣) المعيد: العالم بالأمور وأراد به هنا المعنى المصطلح عليه وهو المسمع بين يدي المحدث أو المدرس ما يريد التحدث به أو تقريره.

(٤) اللزوميات: تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي ج ١ ص ٢٤٥، وكذا شعر أبي العلاء بين الفكر والفن ص ٢٥٢، رسالة دكتوراة صالح حسن اليظي جامعة الإسكندرية كلية الآداب، إشراف أ. د./ محمد زغلول سلام.

يمكن للتأمل في هذه المقطوعة أن يرى نهجاً دينياً خالصاً في تصور البعث والمساءلة فأبو العلاء المعري يتمنى أن يكون مقبولاً لدى الله بموجب ما يراه صالحاً من أعماله فهو قد جانب الآثام وصام عن خطايا الحياة لعله يدرك عيد الروح بالموت وهو ما ذكر الموت إلا تذكر الحشر والمساءلة وإن كانت النفس الأمارة ركنت إلى بعد هذا اليوم الموعود، إلا أنه ما يلبث أن يغرق في خشية من أن يكون غير مقبول لدى الحق عز وجل فيتمثل الحافظين المنوط بهما عمله خيره وشره. وكيف بالرجل لا يخشى اليوم الموعود وحمامة الدوح ما بكت إلا خشية وخشوعاً لتذكره. ولئن كان المرء طامعاً في وعد الله بالثواب فمن الواجب والحق عليه أن يتحسب من وعيده بالعقاب.

يقول أبو العلاء:

عاقبة الميت محمودة ... إذا كفى الله أليم العقاب
ليس عذاب الله من خانه ... كالقطع للأيدي وضرب الرقاب
لكنه متصل فاحتقب ... ما شئت لا يوضع كوضع الحقاب
وتارة لا تشبه النار في ... إفنائها ما أطعمت من ثقاب
كم عملٍ أهمله عامل ... يحفظه خالقنا بارتقاب
أو لضعفي كيف بي هابطاً ... في الواد أو مرتقبا في القاب[1]

الروح الدينية متغلغلة في التجربة الفنية هنا أيضاً، إن الموت لمحمود ومرغوب طالما يأمن المرء غضب ربه وعقابه، إذ هو عقاب متصل لا ينتهي ولا يشبه في شيء ارتسم بأذهان المخلوقين عنه، وهو على ثقة من صالح عمله وعدالة خالقه ليتملكه الهلع والإحساس العام بالضعف كلما تصور نفسه في موقف الحساب يوم القيامة.

وأبو العلاء قد ضمن شعره وأدبه كثيراً من آرائه في العقيدة والشريعة وفي الموت والحياة، وفي البعث والحساب، وفي الجنة والنار.

---

(١) اللزوميات، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي ج ١ ص ١٤٦.

ولزوميات «أبي العلاء» تدور كلها حول الموت وما وراء الموت ولا تكاد قصيدة، أو مقطوعة من شعره في هذا الديوان خلت من الحديث عن الموت أو النفس، أو البعث، والجزاء في صور شتى من الرأي المتقلب بين اليقين، والإنكار حيناً، وبين الشك والتوقف أحياناً.

إن الموت هو الينبوع الذي ارترته فيه فلسفة «أبي العلاء» فعمقت جذورها وسمت فروعها، وتعددت طعومها، فكانت فلسفة مؤمنة ملحدة، متفائلة متشائمة شأن الخائف المفزع، تتغاير في عينه حقائق الأشياء وتتراقص صورها.

وهذا ما جعل الأستاذ «حنا الفاخوري» يقول عنه: نفس كبيرة في جسم هزيل، وقلب لا يسعه العالم تحت ثياب الضعة، وبعيدة نافذة وراء ستار العمى، وعقل بحاث في قيود السجن الجسدي يحاول أن يستجلي الحقائق ويقف عند مكنونات الوجود، ذلك كان أبو العلاء المعري في ديوانه الشعري فهو رجل تفكير وتقليد وتركيب وهو إن مدح أو رثى أو فخر أو وصف، متوكىء على معاني من سبقه، جاد في تصيد صورهم وتركيبها تركيباً علائياً منه تضخيم وتجسيم وتمثيل وواقعية حسية[1]، وكان أبو العلاء في شعره متشائماً، إن فكر في حقيقة الحياة والموت اندفع مبالغاً في وصف الزوال وذكر المآل.

وقد حاول أبو العلاء أن يخص فلسفة الحياة بديوان ضخم هو «اللزوميات» واللزوميات ديوان شعر كبير مرتب على حرف المعجم يذكر كل حرف بوجوهه الأربعة من ضم وفتح وكسر وسكون وهذا الديوان كله فلسفة واعتبار ونقد للحياة وسمى كذلك لأن صاحبه التزم قبل الروي حرفاً إذا غير لم يكن مخلاً بالنظم فقد تحرر من قيود الشعر من حيث الموضوع لا من حيث الأبيات والقوافي[2].

---

(١) فنون الأدب العربي الفن التعليمي الحكم والأمثال حنا الفاخوري ص ٥٦، دار المعارف الطبعة الرابعة.

(٢) قصة الأدب في العالم ص ٤٠٠، لجنة التأليف ١٩٤٣م.

«انتهى الكتاب
والحمد لله رب العالمين»

# فهرست الكتاب


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| **مقدمة بقلم الأستاذ عبدالله بن خميس** | ١٥ |
| تصدير | ٢٣ |
| **الباب الأول: التوحيد نداء الله للناس.** | ٣٥ |
| الفصل الأول: التوحيد شريعة الله. | ٣٧ |
| الفصل الثاني: البيت الحرام. | ٥٠ |
| الفصل الثالث: المدينة والمسجد النبوي. | ٥٤ |
| الفصل الرابع: المسجد الأقصى. | ٥٧ |
| الفصل الخامس: ماذا نريد من رحلة البشرية هذه؟ | ٦٤ |
| الفصل السادس: ماذا تعني الحياة بالنسبة للمسلم. | ٧٩ |
| **الباب الثاني: الرحلة الخالدة في الديانات القديمة.** | ٨٧ |
| الفصل الأول: في الديانة المصرية القديمة. | ٨٩ |
| الفصل الثاني: في الديانة الفارسية. | ١٢٤ |
| الفصل الثالث: في الديانة الإغريقية. | ١٤٣ |
| الفصل الرابع: في الديانة البابلية. | ١٥٤ |
| الفصل الخامس: في الديانة الهندوسية. | ١٥٦ |
| الفصل السادس: في ديانات العرب قبل الإسلام. | ١٦٤ |
| **الباب الثالث: الرحلة الخالدة في الديانات السماوية.** | ١٨٧ |
| الفصل الأول: الديانة اليهودية. | ١٨٩ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|


الفصل الثاني: الديانة المسيحية. ..... ١٩٢
**الباب الرابع: الرحلة الخالدة في العقيدة الإسلامية.** ..... ١٩٩
الفصل الأول: في القرآن الكريم. ..... ٢٠١
الفصل الثاني: في الحديث النبوي الشريف. ..... ٢٧٧
**الباب الخامس: الرحلة في الآداب العالمية.** ..... ٣٤٣
الفصل الأول: رحلة الإسراء والمعراج وأثرها في الآداب العالمية. ..... ٣٤٥
الفصل الثاني: أبو العلاء ورسالة الغفران. ..... ٣٥٣
الفصل الثالث: في الآداب الفارسية والأوروبية. ..... ٣٦٧
**فهرس الموضوعات** ..... ٣٨٨

# «محمد كامل الخجا»
# مفكر وشاعر ومنظِّر

- ولد بالمدينة المنورة وهو دون الستين من عمره على وجه التقريب وكما يؤكده العارفون إذ لم تكن عند ولادته شهادات ميلاد ومن أسرة عربية هاشمية من الأشراف الشويكيين. وهي من فخوذ الأشراف المنحدرين من سلالة الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها. أسرة هاشمية من آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. موزعة في الحجاز والدمام والخبر بالمملكة وفي سوريا ولبنان ومصر والأردن ممثلة في نقابة الأشراف والسادة آل البيت في هذه الدول. وكذلك في البحرين وتونس والمملكة المغربية وكندا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

- بدأ حياته الفكرية والأدبية في الثانية عشر من عمره حيث نشرت الصحف المحلية نماذج من شعره ومقالاته ومن ثم في معظم الصحف العربية في مصر وسوريا ولبنان وتونس والكويت والأردن، وقد عرف في مطلع حياته باسم مستعار هو «النسر الصغير» كما كانت له برامج في إذاعة المملكة وبعض أحاديث إذاعية وتلفزيونية في المملكة ومصر وسوريا.

- شارك في مؤتمر الأدباء العرب في الجمهورية السورية ضمن ممثلي المملكة فيه وألقى كلمة وفدها وكان في الرابعة عشر من عمره عام ١٩٥٧م في حفل افتتاح المؤتمر الذي افتتحه الرئيس شكري القوتلي رئيس جمهورية سورية آنذاك رحمه الله.

- شارك في عدة مؤتمرات ومهرجانات وأمسيات فكرية وشعرية محلية وفي معظم الدول العربية والإسلامية وفي أسبانيا وألقى عدة محاضرات وقصائد فيها كما دعي إلى كثير من الأندية والمنظمات والجامعات المحلية والعربية والإسلامية وألقى محاضرات ولقاءات حوارية وأحيا أمسيات شعرية فيها.
- عرف بأسلوبه المميز الجريء المقنع كمفكر وشاعر ومتحدث مفوه ومنظر مجرب وملم بالأحداث والثقافات الإنسانية قديماً وحديثاً.
- له دور طليعي بناء في التضامن الإسلامي والوحدة العربية.
- عمل سكرتيراً لتحرير جريدة عكاظ في بدء صدورها ومديراً لتحرير جريدة الخليج العربي المحتجبة ومعلقاً سياسياً بالإذاعة السورية. وعضواً بمكتب الشؤون العربية برئاسة الجمهورية في عهد الرئيس جمال عبدالناصر وتربطه صداقات حميمة بعدد من ملوك ورؤساء وأمراء وقادة ومفكرين وشعراء وأدباء وإعلاميين في كثير من الدول ويحمل عدة أوسمة منها ووشاحات ودروع.
- عمل بتوجيه من الملك الشهيد فيصل بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ بوزارة الإعلام سكرتيراً عاماً للصحافة في الوزارة بالرياض ثم مديراً للعلاقات العامة بالوزارة بجدة حيث انتقل قريباً من أسرته بعد تقاعد والده، ثم انتقل إلى المدينة المنورة مسقط رأسه ومكث يعمل بالوزارة حتى إحالته إلى التقاعد هذا العام بطلب ملح منه وكان آخر مسمى لوظيفته هو سكرتير عام وزارة. وذلك ليتسنى له التفرغ للبحث والدراسة وجمع وترتيب منجزاته الفكرية والأدبية والشعرية.
- صدر له ديوان الأمل الغارب كتب مقدمته عميد الأدب الدكتور طه حسين رحمه الله في الستينيات عند إقامته بمصر وقد نفذ.

كما صدر له على التوالي: «موقعنا من الحضارة ضمن الإطار العالمي». و«أفكار من المدينة المنورة» وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية والفرنسية والأسبانية وكتاب «دور الإعلام الإسلامي في بناء الإنسان المثالي».

وفي المطابع الآن على وشك التوزيع خلال أسبوعين أو ثلاث إن شاء الله الكتب التالية: «رحلة البشرية عبر الزمن». كتب مقدمته العلامة الشيخ عبدالله بن خميس.

وكتاب: «موقف الإسلام إزاء الغلو والتطرف». كتب مقدمته دولة الرئيس السوري السابق الأستاذ الدكتور/ مأمون الكزبري.

وكتاب: «في دائرة الضوء ـ الجزء الأول». كتب مقدمته الأديب العربي الكبير الأستاذ/ عبدالله الشيتي.

كما ستصدر له قريباً إن شاء الله، مجموعة شعرية تحت عنوان: «أشعار من محمد كامل الخجا».

وكذلك كتاب: «أفكار من المدينة المنورة» في خمسة أجزاء.

وهو يعكف الآن على تسجيل مذكراته التي تحكي مراحل حياته من طفولته وصباه وشبابه وحتى الآن أمد الله في عمره.

ـ متزوج وله ثلاثة أولاد ذكور هم:

جهاد ومجد الإسلام ومأمون.